د. وليد عودة

أين ولدي؟

حكاية اختطاف صبي سوري

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أين ولدي؟

حكاية اختطاف
صبي سوري

د. وليد عودة

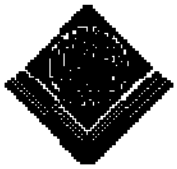

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.م
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ISBN: 978-614-02-2154-3

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو

الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

1

تلفّتَ يمنة ويسرة. في تلك المعمعة يبدو أن أحداً لم يلتفت لما قام به. حمل الصبي بين ذراعيه، واجتاز به الشارع. فتح باب السيارة ووضعه برفقٍ على الكرسي المحاذي لكرسي السائق. نظر إليه نظرةً متفحصةً قبل أن يشغل المحرك وينطلق مسرعاً. في أعماقه أحس أن هذه المرة ليست ككل مرة. شيءٌ ما تحرك في نفسه ولم يتمكن من السيطرة عليه. ربما تكون عمليته الأخيرة.

2

بحفاوة كبيرة استقبلوني. خشيت أن أكون عبئاً عليهم. أحطته بذراعَي وضممته إليّ. احتميت به لأحميه. وجوه بشوشة حولي. لِمَ القلق؟ لا أدري. لِمَ الحرج؟ اللاجئ دائماً يشعر بالحرج. لكنهم عائلته. ذلك سبب إضافي. منذ أن غادرت بيت أهلي، لم أعتد الإقامة في غير منزلي. سأحاول التأقلم. أعرف نفسي. خجولة ولا أحسن الاختلاط بالناس. هل أنا مغرورة؟ لستُ كذلك. هل أنا انطوائية؟ ليس بالضرورة. هل أحب الانعزال؟ أحياناً. سأبذل جهدي لأشعرهم بامتناني.

غرفة صغيرة مريحة تلك التي خصصوها لنا. شعرت بالأمان ما أن دخلتها. إنها غرفته حيث قضى طفولته والأيام الأُول من شبابه. إلى جانب النافذة المطلة على الشارع، استقر سريران خشبيان فوق بعضهما. فيما مضى، كان السرير السفلي له، والأعلى لأخيه الذي يصغره بسنوات قليلة. اتسعت الغرفة لخزانة ملابس ومكتب صغير اعتاد الأخوان التناوب على استخدامه أثناء الدراسة.

وضعت حقيبتنا في زاوية قريبة من الخزانة. هي حقيبة واحدة كدست الملابس فيها على عجالة عندما سمعنا باقتراب الخطر. أحس مضيفونا بما شعرت به من إعياء، فالسفر قطعة من العذاب. اقترحوا عليّ أن أنال قسطاً من الراحة. شكرتهم واضطررت مكرهة لأفلته من يدي. فالجد يود الاستمتاع بصحبة حفيده.

استلقيت على سرير أيهم. شعرت بطيفه يحوم حولي: «أنت في أيد أمينة. اعتنِ بغسان». وصيةٌ في غير محلها، فغسان هدية ساقها الله لنا بعد سنوات عجاف. غسان طفلي الوحيد الذي قُدِّر أن لا أُرزق ببنين بعده. يتهمونني بالإفراط في الخوف عليه. قالت أمي: «ستفسدينه. ستجعلين

منه طفلاً مدللاً غير قادر على الاعتماد على نفسه». لا أحب أن يتدخل الآخرون بتربيتي لابني، وأغضب عندما يقف زوجي في صف أمي.

أذكر كم عانيت عندما أنجبته. لا زالت كلمات الطبيب ترن في أذني: «سنضعه في الحاضنة. توقعوا الأسوأ، فقد ولد قبل أوانه». سمعتهم يهمسون أن الرحم قد تضرر، ولن يكون بوسعي الإنجاب مجدداً. نظرات الشفقة في عيّني زوجي عذبتني. سهام الاتهام التي صوبتها أم أيهم نحوي خلسة آلمتني. بأي شيء تتهمني؟ هل اخترت أن ألد مبكراً؟ هل أفسدت رحمي بيدي؟

كنت أعاني يومياً وأنا أسمع أن حالة ولدي تزداد سوءاً. ضاقت الدنيا في عيني. خفت من المستقبل. إذا فقدت ولدي سأصبح أرضاً بوراً. لم يحزنني ذلك بقدر حزني عندما تخيّلت حياتي من غير أطفال.

اقتربت أمي مني في ذلك اليوم الذي أخبرنا فيه الطبيب أن الأمل في تحسن حالة الطفل بات معدوماً، وأنها ساعات معدودة وسيموت بعدها. همست في أذني: «أشكِ أمرك لله». أحسست أنها ألقت لي بطوق النجاة. أغمضت عيني وتوجهت إلى خالقي. أحسست بروحي تغادر جسدي. لم أعد أشعر بما يجري حولي. ناجيت ربي ودعوته. لا أدري من أين جاءت تلك الدعوات التي انسابت من فمي وكأنها نهر رقراق. لم يخطر ببالي من قبل أن للسماء أبواباً تُطرق. أحسست يومها أن دعائي قهر القدر وغير مساره. فتحت عيني وكلي ثقة أن ابني سيكون على خير ما يرام. ابتسمت في وجه زوجي. خالني فقدت صوابي عندما شددت على يده وقلت له: «لا تقلق. اذهب واشترِ للصغير ملابس جميلة».

انقضى ذلك اليوم وليلته. جاء الطبيب المتجهم عادة بوجه يطفح سروراً. ردد: «لا أدري ما حصل ولا أملك تفسيراً، ولكن يسعدني أن أخبركم أن طفلكم بدأ بالتعافي واستقرت نبضات قلبه. لقد زال الخطر».

لم أفاجأ، ولكني استمتعت بمراقبة تعابير وجه أيهم التي تغيّرت في لحظة، من الحزن والألم، إلى الفرحة والانبساط. تمنيت لو كان بحوزتي حينها كاميرا فيديو لأسجل ذلك المشهد، وأعيد عرضه بالحركة البطيئة.

نظرت إلى أمي وشكرتها بعيني، فاحتضنتني بجفنيها ثم أفلتتني. ليتني ورثت عن أمي حكمتها.

ماتت أمي قبل عامين وتبعها أبي بشهور. ابني وزوجي هما الآن كل ما أملك. أيهم كأبيه طيب القلب. يحبني بكل جوارحه. يحب أمه كذلك ويسمع كلامها، ولطالما عانى لإرضائنا كلينا. دافع عني كلما حاولت أمه

الإساءة إليّ.

اشتقت إليه.

أذكر ذلك اليوم، قبل خمسة عشر عاماً، عندما التقيت به للمرة الأولى. كنت طالبة في كلية التجارة. لم يتجاوز عمري يومها التاسعة عشر. أعجبت بطلّته عندما دخل علينا القاعة وعرّف بنفسه بأنه معيد في الجامعة. أُغرمت بطوله الفارع وصدره العريض وعينيه اللتين تشعان ذكاءً. عرفت فيما بعد، أنه كان متفوقاً في دراسته، وأن الجامعة عينته معيداً بمجرد تخرجه. كم كنت أستمتع عندما يخصني بالأسئلة أثناء المحاضرة من دون غيري. وقتها لم أكن طالبة نجيبة، لكني حرصت على الاهتمام بالمادة التي يدرّسها. كم مرة تبعته بعد انتهاء المحاضرة لألقي عليه أسئلة ذكية حضرتها بعناية. تعمدت مراراً أن أقبض على عينيه متلبستين وهما تسترقان النظر إليّ. نظراته في العادة سريعة جداً، ولولا تربصي به، ما كنت لألحق بها.

مرت الأيام وأحبني. عشقني وعشقته، وتكلل العشق بالزواج.

جفلت وانتُزعت من ذكرياتي عندما سمعت صوت انفجار. هل جاء دور طرطوس لتقصف وتنضم إلى أخواتها المنكوبات؟ نظرت من النافذة. هدأت نفسي. إنه صوت صادر عن عادم إحدى السيارات.

قبل أن يحدث ما حدث في اللاذقية، كانت حياتنا مستقرة. فعمل زوجي بالتجارة كان يدر علينا مدخولاً جيداً يكفينا. لم يكن تاجر ملابس ذائع الصيت، ولكنه نجح في اكتساب سمعة طيبة لدى زبائنه. كادت أمه تصاب بسكتة قلبية، عندما أخبرها أنه قرر التوقف عن التدريس بالجامعة، وسيتوجه للعمل بالتجارة. غضبت يومها غضباً شديداً. اتهمتني كالعادة أني وراء اتخاذه لهذا القرار، وأني أُكثر التذمر من ضيق الحال. في الحقيقة، كانت صادقة هذه المرة، فأنا من أوحى له بهذه الفكرة. أثبتت الأيام أنه كان قراراً صائباً. استطعنا شراء منزل.

اشتقت لمنزلي.

أنا أيضاً أعمل. بالأحرى كنت أعمل. درّست في إحدى المدارس القريبة من محل إقامتنا. توقف التدريس عندما أحس الأهالي بالخطر على أولادهم.

أفقت مجدداً من ذكرياتي، عندما طرق غسان باب الغرفة ودخل عليّ. أجلسته بقربي على سرير والده. أخبرني أن جده يحبه كثيراً وكذلك عمه. هل نسي ذكر جدته من حسن حظي؟ لا، ولكنه لم يرها بعد، فقد ذهبت لزيارة إحدى جاراتها كما علمت. الدنيا مقلوبة، وهي لا تبالي.

تفضل جلسات النميمة على استقبال حفيدها وأمه. حسناً، حسناً. لن أغتابها. هي تحب غسان كثيراً.

سألني عن أبيه. متعلّق هو به كثيراً. وعدته أن غيابه لن يطول. تمنيت أن يفي أيهم بوعدي. ماذا سأفعل إن تأخر؟ ما من وسيلة للاتصال به. قُطعت جميعها. كيف سيهنأ لي بال إن وقع تحت الحصار؟ نظر إليّ بحزن: «هل سنبقى طويلاً في بيت جدي؟ متى سنعود إلى منزلنا؟» لم أعرف بماذا أجيبه. هل أخبره أننا ربما لا نعود أبداً. هل أكون صريحة معه فأريه صور الدمار في حمص وحلب؟ أخبره أن هذا هو المصير الذي ينتظر اللاذقية. أأكذب عليه وأعده بأن الأمان سيعود قريباً للوطن، أم أصدقه القول بأن سوريا لن ترجع أبداً كما كانت؟ لم أجبه. قلت له: «تعال نفتح الحقيبة، ونخرج ملابسنا، نعلّقها في الخزانة». أعجبه الاقتراح.

3

طنين في أذني أزعجني. توقف دقائق معدودة، ثم عاد بصوتٍ أعلى. تحركت يمناي بحثاً عن مصدر الصوت لإخماده. سقط من فوق المنضدة، وتناثرت أعضاؤه بمجرد ملامسته لبلاط الغرفة. فتحت عيني مرغماً. تمددت لألتقط الأجزاء المبعثرة. جمعتها، وبضغطة زر أعدت الحياة لهاتفي المحمول.

اليوم جمعة. فما بال المنبه يوقظني في هذا الوقت المبكر من الصباح؟ نظرت في إعدادات الهاتف وتفقدت الرزنامة. ابتسمت عندما وقعت عيناي على التاريخ. الخامس والعشرون من شهر أكتوبر/تشرين الأول. ذكرى زواجي الثانية عشر. التفت يساري لأتفقد وسادة زوجتي الخالية. جذبت الوسادة وإلى صدري قربتها. عانقتها فتسلل عطر معشوقتي إلى روحي واختلط بأنفاسي. شعرت بغصة بين أضلاعي. تنهدت. حاولت السيطرة على ألمي. كنت قد تعاهدت مع قلبي على حبس أحزاني وهمومي بين جدران حجراته. ما لي أراه يفتح أبوابه ما أن تطرقها ذكراها؟ لم يحفظ قلبي عهده.

تمالكت نفسي كي لا تدمع عيني. لن يكون فراقاً طويلاً. سأبيع الأثاث لأول مشترٍ، ثم أحكم إغلاق شقتنا وألحق بزوجتي وابني.

اضطررت لإرسال لميس وغسان إلى مدينة طرطوس بصحبة أخي أمجد عندما تواترت الأخبار بقرب اقتحام الجيش للاذقية.

بيت العائلة كبير، ولكنه يقع في حيٍ قديم. لم تعارض لميس فكرة الإقامة في بيت أهلي، ولكنها لم ترضَ بسهولة أن تتركني خلفها وحيداً. وعدتها أن أصفي أعمالي التجارية سريعاً، وأخرج من المدينة في أقرب وقت.

لا يصدقني رفاقي عندما أخبرهم أن جذوة الحب الذي يجمعني بلميس لا تزال متقدة. أجمعوا كلهم على أن الحب مهما كان مشتعلاً في بداية الزواج، فإن شعلته تخبو مع الأيام، فيتحوّل إلى عِشرة لا أكثر. جادلتهم بأنني ولميس حالة خاصة. قالوا: ما من حالة خاصة. أخبرتهم أن عشقاً جارفاً جمعنا قبل الزواج. قالوا: أغلبنا كذلك.

إن كان حبنا كما يدعون عِشرة، لمَ تهفو نفسي إليها؟ لماذا يضيق صدري ببعدي عنها؟ لماذا أستيقظ في جوف الليل أتأمل وجهها الذي طبعت ملامحه في ذاكرتي؟ لماذا تسري شرارة في جسدي كلما لمستها؟ لماذا يدق قلبي كلما تلامست شفاهنا؟

نهضت من السرير. اغتسلت وارتديت ملابسي. جابت عيناي أنحاء المنزل للمرة الأخيرة. ذكريات كثيرة شهدتها هذه الجدران. مررت بغرفة ولدي الوحيد. خلتني سمعت ألعابه تناديني. تسألني عن مصيرها بعد غياب مالكها. واسيتها وأخبرتها أني مثلها أعاني من بُعدي عنه. كم أنا مشتاق لضمك يا حبيبي غسان.

ودعت بيتي وخرجت من الشقة لألتقي بصاحب محل الأثاث المستعمل.

دوىّ صوت انفجار كبير. تبعته زخات من الرصاص. لقد بدأ اقتحام المدينة.

4

تحت شجرة توت وارفة الظلال، على ناصية أحد الأزقة، أوقف سيارته القديمة التي بَهت لونها.

اختار تلك البقعة بعناية فائقة، فالأغصان المتدلية من شجرة التوت المعمرة، وفرت غطاءً طبيعياً مثالياً استغله في تنفيذ مهمته الحساسة.

قبل أن يقرر مراقبة ذلك الحي، اشترى سيارة «فيات» بالية، ثم غيّر من مظهره، فابتاع قميصاً وسروالاً مستعملين، من أحد الأسواق الشعبية القريبة.

أراد أن يوحي بأنه رجل متوسط الحال، فيظهر كشخص مألوف بين سكان ذلك الحي القديم الذي تقطنه عائلات فقيرة.

من حسن حظه، لم يكن ذا بنية رياضية أو جسم ضخم يجلب الانتباه. ملامح وجهه وطوله المتوسط وبطنه البارز قليلاً، لم توحِ إلا بهيئة رجلٍ عاديٍ من أولئك الرجال الذين تعج بهم الشوارع، من دون أن يثيروا اهتمام أيٍّ من المارة.

الأمر الوحيد الذي تميّز به، كان عيناه المتمرستان، واللتان اعتاد أن يمسح بهما المكان حوله، فيلتقط صوراً عالية الجودة، يخزنها في دماغه لاسترجاعها عند الحاجة.

أخذت عيناه تصوران المشهد حوله:

شارع فرعي تكدست البيوت القديمة والدكاكين الصغيرة على جانبيه. في هذا الوقت من الصباح يزدحم الطريق بالمارة. أصحاب المحال يشرعون برش الماء أمام دكاكينهم الصغيرة.

يتذمر طلاب المدارس بعيونهم نصف المفتوحة، ويضطرون إلى تغيير مسارهم هرباً من الإصابة بزخات الماء التي تلاحقهم.

يختلط الموظفون بالموظفات، وطلاب الجامعة بالطالبات أثناء توجههم نحو محطة الحافلات العامة.

وها هو طابور طويل يظهر فجأة من العدم للحظات، قبل أن يتحوّل إلى سرب بشري غير منظم، يندفع بمجرد رؤية حافلة قادمة من بعيد، وكأن اصطفافهم في الطابور كان لالتقاط صورة صحفية تظهر تمدنهم.

ما هي إلا دقائق أخرى، وتبدأ سمفونية الصباح المعتادة بالاكتمال، بعد أن يأخذ كل عازف محترف بأداته الموسيقية.

إذا أرهفت السمع لربما تصبح من أولئك المحظوظين، فتلتقط أذناك أصوات البلابل والزرازير الغاضبة من ضجيج البشر وآلاتهم، وإفسادهم الفج لحفلات الغناء الصباحية التي توارثتها الطيور جيلاً عن آخر من دهور طويلة.

لم يبالِ إلا بالبحث عن طريدته المنشودة.

لقد اكتسب لقبه من خلال ما عُرف عن مهارته في اختيار طرائده، وقدرته على توفير بضاعة تتمتع بأعلى المعايير، وتلبي رغبات زبائنه المهمين.

حاول الكثيرون تقليده فيما يفعل، ولكن من دون جدوى، فالزبائن باتوا مدركين وبعد تجربة طويلة، أنه هو الوحيد القادر على توفير البضاعة الأفضل، والالتزام الدقيق بالمواصفات. أدرك هو ذلك، وتعمّد رفع أجرته بشكل مبالغ فيه، رغبة منه في التعامل فقط مع أثرى الأثرياء.

أراد ببساطة أن يجعل من اسمه المستعار ماركة يسم بها بضاعته المخصصة لعلية القوم، وفهم - ومنذ فترة طويلة - كيف يفكر ذلك النوع من الأثرياء. كلما زاد السعر، كلما تسابق أولئك البلهاء على شراء السلعة.

عرف - ومنذ البداية - عندما قرر العمل في هذا المجال، أن مهنته هذه ستعرضه لكثير من المخاطر، وما من سبيل للنجاح فيها والصمود في

وجه التحديات، سوى العمل منفرداً، وتحت غطاء كثيف من السرية بالإبقاء على هويته الحقيقية قيد الكتمان.

يعرفه زبائنه باسم «القناص»، ولكن لم يسبق لأحد منهم الالتقاء به شخصياً.

لم يعلم أحد من أصدقائه أو المقربين إليه بعمله في هذا المجال، ولم يكن ليخطر ببالهم، أن ذلك الرجل ذا الشخصية الرزينة والملامح الهادئة والمواصفات الجسدية المتواضعة، هو «القناص» ذائع الصيت.

نجح، وبعد مضي سنوات معدودة على مزاولته لهذا العمل، بصنع أسطورة من نفسه. كان يستمتع كثيراً بما يصله من تكهنات العاملين في هذا المجال حول هويته الحقيقية. تارةً تنتشر إشاعة مفادها أن «القناص» هو أحد أفراد المافيا الشيشانية. تارةً أخرى يصل إلى مسامعه، أن «القناص» عميل مخابرات أمريكي متقاعد. أما أظرف تلك الإشاعات، فكان اتهامه بأنه شخصية وهمية، وأن «القناص» ليس سوى اسمٍ لعصابة دولية يعمل بها عشرات الأفراد.

في الشهور الأخيرة، ازداد الطلب بشكل كبير على الطرائد، بعد أن أصبحت الظروف مواتية أكثر من أي وقت سابق، فالحصول على أجود السلع بات سهل المنال.

أصبح مطالباً بتسليم ما يزيد على أربع طرائد في الشهر، بعد أن كان يصيد مرة كل شهر أو شهرين. من سوء الحظ، أدى انتعاش السوق إلى جعل الزبائن أكثر انتقائية في تحديد مواصفات السلعة المطلوبة.

هذه المرة كان الأمر مختلفاً، والمهمة صعبة بشكل استثنائي، أما المكافأة فكانت مغرية إلى أبعد الحدود. من أجلها اضطر للسفر إلى مدينة أخرى لم يعتد الصيد فيها للعثور على الطريدة المنشودة. كانت القائمة بالخصائص المطلوب توفرها طويلة بشكل مبالغ فيه.

أخذ ينتقل من منطقة إلى أخرى، ومن حي إلى آخر بحثاً عن مبتغاه. مرت الأيام تباعاً من دون أن يسفر بحثه الحثيث عن نتيجة مرضية.

للمرة الأولى، ومنذ أن بدأ امتهان هذه المهنة، شعر أن القلق أخذ يتسرّب تدريجياً إلى نفسه. عشرة أيام مضت على انطلاقه في رحلة القنص، وكان لا يزال لم يجد طريدة بالمواصفات المطلوبة.

زار أحياءً غنية وأخرى فقيرة. أمعن النظر. قضى الساعات الطوال في المراقبة. وجد سلعاً متنوعة، بعضها غاية في الجودة، لكنها لم تكن مطابقة

تماماً للمواصفات.

في سره، وبعد أن أجهدته هذه المهمة، لعن ذلك الزبون الانتقائي.

أخذه خياله في تلك الليلة بعيداً، فتصور نفسه وقد دُعي إلى مصنع السلع الذي لم يدخله أحد قبله. رأى نفسه أمام لوحة تعمل باللمس. أدخل عن طريقها مواصفات السلعة المطلوبة. بعد تحليل المعلومات، ظهرت على الشاشة رسالة تفيد أن عليه الانتظار دقائق معدودة، ريثما يتم تصنيع المنتج خصيصاً له. أضاف القناص إلى المشهد مقعداً جلس عليه في انتظار الانتهاء من صنع القالب وصب الخامات.

بعد هنيهة، صدر صوت شبيه بصوت فرن المايكروويف عند إتمامه لعملية التسخين. نهض لتسلّم طلبيته بعد أن ظهر سهم مضيء أشار إلى المكان الذي تخرج منه السلع الجاهزة.

ضحك من تلك الفكرة التي غزت خياله، واستبشر بها خيراً عندما وجد ذلك المكان الذي قرر أن يوقف فيه سيارته تحت شجرة التوت.

عجت المنطقة بالطرائد من كل شكل ولون. أحس في قرارة نفسه أن سعيه في هذه المنطقة سيتكلل بالنجاح، وسيتمكن من العثور على طريدته التي أعياه البحث عنها.

لقد تحوّل الأمر إلى تحدٍ بالنسبة إليه، وأصبحت سمعته على المحك، فكان لا بد له من النجاح مهما كلف الأمر.

5

ظلامٌ دامسٌ يلفني. آهاتٌ تؤرق مضجعي. آلامٌ تنخز جسدي. لِمَ أنا هنا؟ ماذا فعلت لأعامل بهذه الطريقة؟ أيعقل أن تُكسر ضلوعي بغير ذنب اقترفته؟

يريدون أسماءً. أسماءٌ لأشباحٍ تطاردهم. أشباحٌ خرجت لهم من كل زاوية.

ظنوها نزهة تنقضي بالتأديب، وكثير من الترهيب، وربما قليل من الترغيب. لم يجد ذلك نفعاً. لقد عبثوا بعش الدبابير.

ما لي أنا وكل ذلك؟ لست شبحاً ولا أعرف شيئاً عن الأشباح. هل أخترع لهم أسماءً علهم يتركوني وشأني؟ أخشى أن أخترع اسماً حقيقياً فأجر الويلات على صاحبه.

حولي كثيرون مثلي. أناسٌ عاديون قُبض عليهم، وعذبوا من دون جريرة. لم يخطر ببال معذبينا أن خطتهم بكسر نفوسنا ستنقلب عليهم. أصحاب الآهات هنا كانوا جميعاً أعضاءً في حزب «امش الحيط الحيط،

وقول يا رب الستر». مشيهم قرب الحائط لم يشفع لهم. هاهم يُضربون ويُنكل بهم.

ما عادوا يؤمنون بعقيدة النعاج. أستطيع سمع همساتهم. وعيد بالانتقام. ليس انتقاماً من معذبيهم فقط، بل ممن أرسلهم وشد على أيديهم. لقد صنع البطش ثورةً، وأجج نارها.

حدث ما حدث عندما كنت أقف في طابور طويل لشراء الخبز، بعد أن انتهيت من إتمام صفقة البيع. أردت الخروج من المدينة بأسرع وقت لألحق بأحبابي. فوجئنا بعربة أتت مسرعة وتوقفت إلى جانب المخبز. نزل منها مجموعةٌ من الرجال المسلحين. ارتدى بعضهم ملابس عسكرية.

أحاطوا بنا، وأشهروا أسلحتهم في وجوهنا.

«انبطحوا على الأرض» صاحوا بنا. تأخر بعضنا في استيعاب ما يحصل. أطلق العساكر النار في الهواء.

تعالت صرخات النساء والأطفال. انبطحت فوراً. أمرونا أن نضع أيدينا خلف رؤوسنا.

حاول أحد الواقفين في الطابور أن يستفسر عما يجري. كان رجلاً مسناً قد ابيض شعره وانحنى ظهره. أخبرهم أن حالته لا تسمح له بالانبطاح على الأرض. قوبل سؤاله بضربة في بطنه بكعب بندقية أحد الشبان المسلّحين. سقط المسكين على الأرض وتلوى من الألم. لم يكتفِ المعتدي والذي كان يرتدي ملابس مدنية بذلك، بل انهال على العجوز بكيل من الشتائم. غلى الدم في عروقي. تخيلتني أنقض على ذلك الشاب الحقير وألكمه في وجهه.

لم أفعل ذلك.

بقيت متفرجاً. تسلسلت ومن معي بقيود من الخوف وسنوات من الجبن.

«لا حول ولا قوة إلا بالله»، «حرام عليك»، «احترم شيبة المسكين».. تعالت الصيحات. كان الرد سيلاً من الشتائم وزخات من الرصاص أُطلقت في الهواء.

أطعت الأوامر ولم أقاوم. أردت أن ينقضي الأمر سريعاً. ظننتهم سيفتشوننا ويتحققون من هوياتنا، ثم يتركوننا وشأننا. لم يكن ظني في محله.

قيدوا أيدينا خلف ظهورنا. حتى الأطفال لم يسلموا وقُيدوا مع أمهاتهم وسط بكائهم وعويلهم. نالني ما نال بقيتنا من شتائم تشمئز لها

الآذان. أخذوا يركلوننا. قاوم البعض، فتلقوا حصة مضاعفة من الركلات. لم أقوَ على النظر نحو العجوز الذي غاب عن الوعي من شدة الألم. اختلطت ضحكات المعتدين بآهات المعتدى عليهم. شعرت بضعفي وقلة حيلتي. تعرّت نفسي أمامي. تمنيت أن تنشق الأرض وتبلعني وأنا أنظر إلى النساء، تهان كرامتهن أمامي، وأنا بلا حول ولا قوة. تخيّلت لميس وغسان مقيدين قربي. اختبرت غضبي. ماذا سأفعل؟ كيف سأفزع لنجدتهم؟

ساءني عجزي.

«شو بدكم منا يا ولاد الكلب؟» صاح بأعلى صوته أحد الشبان المقيدين ممن لم يستطع تحمل المزيد من الإهانات. انفجر فيهم وأخذ يلعن صغيرهم وكبيرهم.

«يلعن روحك يا بشار» صدح صوت ذلك الشاب الشجاع بأهازيج الثورة. ألجمت المفاجأة ألسنة الجنود ومن رافقهم. ظنوا أنهم يتعاملون مع شعب مدجن. خاب ظنهم.

رقص قلبي طرباً عندما سمعت شباناً آخرين يرددون خلف صديقهم. لم أشعر بنفسي إلا وقد أخذت أردد معهم: «يسقط بشار الأسد. يسقط بشار الأسد».

حدث كل ذلك في ثوانٍ معدودة. انهال بعدها الجنود علينا بالضرب.

قبل أن أفقد وعيي بلحظات، رأيت ذلك الشاب وقد تلقى رصاصة في رأسه. أغمضت عيني وتلوت الشهادة.

6

نظر مجدداً إلى الصورة التي بات يحملها معه منذ أن انطلق في رحلة الصيد. لقد حفظ تلك الملامح الرقيقة وطبعها في ذاكرته. أضاف إليها الصفات الجسدية الواردة في القائمة. أصبح باستطاعته تخيّل شكل الطريدة، ولم يبقَ سوى العثور عليها. أيقن أن مهمته ربما تكون مستحيلة، إذ أنه ليس من السهل إيجاد طفل شبيه بطفل آخر من بلد آخر.

إبرة في كوم قش. هذا ما خطر بباله عندما عُرضت عليه المهمة. لم يسأل حينها عن السبب الذي دفع الزبون للبحث عن صبي بهذه المواصفات تحديداً. من أهم قواعد عمله ألا يسأل. ولكن ماذا لو لم تكن الإبرة موجودة أصلاً في كوم القش؟ المبلغ المعروض كبير، ولكنه لن يحصل على فلس منه إن لم ينجح في العثور على الصبي. التحدي الكامن في المهمة مجتمعاً مع أجرها المرتفع شكلا إغراءً لم يستطع مقاومته.

ها هو الآن يقبع في سيارته القديمة تحت شجرة التوت يراقب المارة.

الأطفال تحديداً هم سلعته الرائجة.

الساعة تقترب من الثامنة صباحاً، الوقت المثالي للمراقبة. تمتلئ الطرقات بجموع التلاميذ المتوجهين إلى مدرستهم القريبة.

لبس نظارته الشمسية ذات العدسات الشبيهة بالمرايا. أخفى عينيه جيداً. باستطاعته الآن المراقبة دون إثارة الشبهة. تفرّس في وجوه الأطفال. قارن بين كل وجه يراه مع الصورة المطبوعة في مخيلته. عليه التركيز على الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة.

هذا صبيٌ أسمر. لا يصلح. هذا صبيٌ أبيض عيناه زرقاوان. لا يصلح. هذا صبيٌ نحيل. لا يصلح. هذا صبيٌ شعره أسود. لا يصلح. هذا صبيٌ طويل. هذا صبيٌ قصير. هذا صبيٌ ذو أنفٍ أفطس. هذا صبيٌ سقطت بعض أسنانه الأمامية. هذا صبيٌ عيناه صغيرتان. هذا صبيٌ فمه كبير. كلهم لا يصلحون.

مرت أفواج التلاميذ جميعها. لم يجد غايته. بعضها مر سريعاً. لم تتح له الفرصة ربما للتدقيق في وجوه كل الأطفال. سينتظر عودتهم من المدرسة.

شغل سيارته واستعد لمغادرة المكان. سيعود في الظهيرة. إنه اليوم الثالث على التوالي. يراقب في الصباح، ويراقب عند الظهيرة. إن فشل اليوم في العثور على طريدته، سيتوجه إلى حي جديد.

نظر في المرآة الخلفية. الشارع شبه خالٍ إلا من حافلة صغيرة توقفت خلفه مباشرة. باستطاعته الانطلاق. نظر في مرآته الجانبية نظرةً خاطفةً وتحرّك نحو الشارع.

ضغط فجأة على المكابح. حدق مجدداً في المرآة. لم يرَ شيئاً. أنزل النافذة وأخرج رأسه. رآهم يقطعون الشارع. شاب في العشرينات من عمره يجر خلفه حقيبة كبيرة. امرأة جميلة في منتصف عقدها الثالث، تحكم قبضتها على يد صبي يبدو في التاسعة من عمره.

الصبي جميل. شعره أشقر. طوله متوسط. صحته جيدة. ممتلئ قليلاً. بشرته بيضاء. لم يتأكد بعد من لون عينيه.

أخذ الناظور من فوق المقعد بجانبه. أغلق النافذة وأخذت عيناه تتبعان الصبي. انتظره حتى التفت. رأى وجهه جلياً. عيناه خضراوان واسعتان. ملامحه رقيقة. أنفه مستقيم مع ارتفاع طفيف في أرنبته. مبسمه صغير. قال شيئاً ما للمرأة فظهرت أسنانه. بيضاء وسليمة.

ترك الناظور، وأخرج الصورة من جيبه ليتأكد فقط. الشبه كبير. ابتسم

ابتسامة واسعة. هل وجد ضالته أخيراً؟ عاد سريعاً ليراقب فريسته. رآهم يدخلون إحدى البنايات. من هذه اللحظة، لن يفارق مدخل هذه البناية نظره.

7

كان الوقت لا يزال باكراً عندما خرجا إلى الشارع. نظرت يمنة ويسرة ثم أمسكت بيده وحثته على الإسراع بالمشي. منذ أن انتقلت إلى السكن هنا، وهي تفرط في حمايته. لم تكن تسمح له أن يغيب عن ناظريها.

أصرت هذا اليوم أن تذهب بنفسها لإحضار الخبز. كانت تشعر بضيق شديد وأرادت أن تستنشق القليل من هواء الصباح العليل. وعدتهم وهي تقف أمام الباب أن تعود به سريعاً. راقبته وهو ينحني ليرتدي جزمته الجديدة التي ابتاعها جده له. داعبت شعره فرفع رأسه لينظر إليها. ابتسمت له فبادلها الابتسامة. «تشبهه كثيراً. كأنك نسخة مصغرة عنه» خاطبت نفسها وتنهدت. نهض على قدميه وضرب الأرض بهما معلناً جاهزيته للانطلاق. شبك أصابعه بأصابعها. انحنت قليلاً لتطبع قبلة على وجنته. قطب جبينه لحظات قبل أن يفرده. كانت مثل هذه التصرفات تشعره بالحرج وخاصة في وجود الآخرين. لوّح لعمه وجدته وخرج مع أمه والسرور بادٍ على وجهه.

توجها نحو المخبز. لم يكن يبعد كثيراً عن مكان سكنهما. وقفا في الطابور بانتظار دورهما. أخذ غسان يراقب الخباز وهو يعجن العجين ويرققه، ثم يدخله إلى جوف الفرن ليخرجه بعد قليل، وقد تحوّل إلى رغيف شهي. شعر بالمتعة وهو يتابع هذا المشهد. نظر إلى أمه ليعبر لها عن إعجابه بعمل الخباز. كانت بقربه ولكنه أحس أنها في عالم آخر. لم يضطر ليخمن طويلاً. لا بد وأنها تفكر بأبيه، فقد طال غيابه ولم يتصل بهما، ولم يتمكنا من الاتصال به.

تخمين غسان كان في محله. اشتاقت لميس لزوجها. لم تعتد غيابه عنها. سمعت باقتحام الجيش للمدينة فانفطر قلبها خوفاً عليه. هي تعرف أنه لم يكن متورطاً بأي شكل من أشكال المقاومة. حاولت أن تهدئ من روعها وتقنع نفسها أنه بخير، وأنه ينتظر الفرصة المناسبة للخروج من المدينة واللحاق بها وبابنه. محاولاتها كانت غالباً ما تبوء بالفشل، فهي تعلم أن أغلب ضحايا الثورة هم من أولئك الذين لم يكن لهم أي علاقة بها. أخافتها تلك الهواجس كثيراً. كاد القلق يمزقها. غزت مناظر القتلى فجأة عقلها وعبثت بقلبها. هل مات أيهم؟ هل أصبح جثة هامدة؟

«أنت تؤلمين يدي يا أمي».

انتبهت، فوجدت أصابعها تضغط بشدة على يد صغيرها. أفلتت يده وانحنت فضمته إلى صدرها. «أنا آسفة يا حبيبي. لقد شرد ذهني قليلاً».

ربت على يدها: «لا تقلقي يا أمي. والدي بخير وسيأتي قريباً».

ابتسمت واغرورقت عيناها بالدموع. «لقد كبرت كثيراً يا غسان».

مسحت عينيها واستعادت رباطة جأشها. نهضت ثم تحركت مع الطابور. «سيحين دورنا قريباً. هيا بنا».

أمامهما وقف رجل أربعيني. عن يمينه طفلة في السادسة من عمرها، وعن يساره صبي في عمر غسان. أخذ الطفلان يقفزان فرحين وهما يؤرجحان يدي أبيهما.

أحيا منظر الأب مع طفليه مجدداً ذكرى أيهم. في نفسها تمنت لو كان باستطاعتها الاطمئنان عليه. دعت الله في سرها أن يسلّمه، وأن ينتقم من أولئك الذين يريدون بسوريا وأهلها شراً.

اقتربت وابنها خطوة أخرى. أخرجت النقود وعدّتها. كانت على وشك أن تطلب من الخباز عشرة أرغفة عندما حدث ما حدث.

صرخ غسان فجأة: «ماما، لقد لسعتني نحلة..»، لم يكد يكمل جملته حتى هوى على الأرض.

التفتت لميس نحو ابنها فزعة وهي تراه يفقد توازنه ويسقط بين يديها.

«غسان، ولدي. ماذا أصابك؟» انحنت فوقه.

قبل أن تصله شعرت وكأن إبرة صغيرة اخترقت عنقها. لا إرادياً وجدت يدها تتفقد موضع الألم لتحكه. جثت على ركبتيها. نظرت إلى جسد ابنها المكوّم أمامها. أرادت أن تساعده. أن تفعل له شيئاً.

لم تستطع.

لم تعد قادرة على التركيز. أخذت الصور تتراقص أمام عينيها. كانت أذناها لا تزالان تعملان. سمعت أصوات صراخ آتية من كل مكان. أخذت الأجساد تتساقط من حولها. لم تعلم إن كان ما تراه حقيقة أم خيال.

فجأة غابت الشمس وأظلمت الدنيا وتوقف كل شيء.

8

خمسة عشر يوماً مرت على احتجازي. خمسة عشر يوماً من الضرب والإهانات وسوء المعاملة. خمسة عشر يوماً لم أسمع عن لميس وغسان ولم يسمعا عني. سجانوني باتوا مدركين - ولا شك - ألا علاقة لي بأي مقاومة،

مسلحةً كانت أم سلمية، ولكن يبدو أن إذلال البشر وكسر نفوسهم يوفر متعة وإحساساً فريداً بالقوة والقدرة على التحكم بالمصائر. لولا الأقنعة التي يغطون بها وجوههم لحرصت على مراقبة ملامحهم وهم يضربون ويشتمون. لا أظنهم بشرًا. البشر لا يفعلون فعلهم. ولا أخالهم حيوانات. الحيوانات لا تعذب صغارها. هل يعقل تعذيب صبيان لم يبلغوا الحلم؟ هل يعقل اغتصاب فتاة أمام ذويها؟ هل خلع الأظافر وتقطيع الأصابع يقبله عقل؟ من أين جاءوا بكل هذا الحقد؟ أين كان مدفوناً طوال هذه السنين؟

ما رأيته في هذه الأيام لن يمحى من ذاكرتي أبدًا. مشهد بكاء الأطفال من شدة الألم الناتج عن إطفاء السجائر في جلودهم الناعمة سيلاحقني طوال حياتي. أصوات استغاثاتهم ستبقى تتردد في أذني. توسلات أمهاتهم ستظل تعذبني وأنا السجين مثلهم.

بالأمس، تلقيت تهديداً من أحد المحققين، بأنني سأنتقل إلى مرحلة جديدة من العقاب في حال لم أشهد أن زملائي في الزنزانة أعضاء في خلية إرهابية. زملائي هؤلاء لم أرهم من قبل. ولكن، لماذا يحتاجون إلى شهادتي؟ ألا يستطيعون قتلهم ببساطة ثم تلفيق أي تهم جاهزة كما يفعلون دوماً؟ ضحك أحد رفاقي المحتجزين من أسئلتي. قال لي: «وهل تظن أنك ستشهد في محكمة؟ شهادتك ستبث على التلفاز السوري، وربما على قناتي الدنيا والمنار. ما زال في سوريا وما حولها قليلون يصدقون روايات النظام. شهادتك وشهادات أمثالك ستبقيهم متعلّقين بالوهم فترة أطول».

«لماذا اختاروني أنا تحديداً لأشهد على زملائي؟» نظر إليّ رفيقي بعينين تنطقان شفقة ولم يجب عن سؤالي. زادني الأمر حيرة. هل أبدو كمن يشي بأصدقائه؟ هل أظهر وكأني من أصحاب النفوس التي يسهل كسرها وتطويعها؟

استيقظت هذا اليوم على صوت طرق شديد على باب الزنزانة. يتعمد الحراس ألا يسمحوا لنا بأن نستغرق بالنوم. في الأوقات التي لا نتعرض فيها للضرب أو التحقيق، يتفننون في إزعاجنا، تارة بالطرق، وتارة بإشعال الأضواء شديدة الإنارة وإطفائها. باتت روائحنا كريهة من قلة الاستحمام وفقدت الكثير من وزني من سوء التغذية.

كثيراً ما يشرد ذهني وأجدني أفكر بلميس وغسان. لا بد أنهما قلقان جداً عليّ. ليت كان باستطاعتي طمأنتهما.

أحدهم يعبث بقفل الباب. يبدو أن جلسة التحقيق ستبدأ مبكراً هذا اليوم. دخل المحقق الذي هددني بالأمس. يبدو من هيئته أنه في العقد

الثالث من عمره. كان متوسط الطول مفتول العضلات. طريقته في الكلام توحي أنه لم يكمل تعليمه. تبعه شخصان يبدوان أصغرا عمراً وقدراً.

اقترب مني وكأنه جاء مع رفيقيه خصيصاً من أجلي. دعوت الله في سري أن يمنحني الثبات.

«أجاهز للشهادة يا أيهم؟ أيهم؟! ما هذا الاسم الغبي؟ سأغيّره. سأناديك باسم يليق بك. ما رأيك بمنال؟ أليس اسماً جميلاً».. ضحك المحقق ورفيقاه.

لم أجب.

ركلني أحد تابعيه في خاصرتي. أحسست بنظرات رفاقي تواسيني.

تأوهت. «بماذا أشهد؟».

«أنت تعرف يا ابن.....».

«لن أشهد زوراً» قلتها بصوتٍ عالٍ. ربما وجودي بين زملائي أعطاني دفعة إضافية من الثبات والثقة بالنفس.

«زوراً تقول؟ حسناً. لقد توقعت ذلك» نظر إلى رفيقيه: «أحضرا منال إلى الغرفة الأخرى بسرعة». شعرت في نبرته بمسحة من الغبطة، وكأنه يقولها مبتسماً ابتسامة صفراء. استدار وترك الزنزانة.

أردت أن أنهض على قدمي. لم يسمحا لي. أمسك أحدهما بذراعي اليمنى وأمسك الآخر بذراعي اليسرى، وأخذا يجراني خلفهما إلى الخارج. أردت أن أقاومهما ولكني لم أفعل. أدركت أن مقاومتي لن تنفعني، فهما مسلّحان.

اقتاداني كما تُقتاد النعجة إلى حتفها. عبرنا ممراً طويلاً أوصلنا إلى غرفة نظيفة مفروشة بالسجاد وخالية من أي أثاث. كان المحقق يقف هناك بانتظاري.

«قيدا يديه خلف ظهره» أشار إلى رفيقيه.

«ماذا تريدون مني؟» صحت وقد شعرت بخطر داهم.

«اصمتي يا منال. كمما فمه».

أرادا أن يقلباني على بطني ليسهل تقييد يدي خلف ظهري. قاومت وأخذت أنتفض. «لن أكون لقمة سائغة حتى لو قتلت» فكرت في نفسي. أدركت أن خطباً جللاً ومصيراً أسود ينتظرني. حاولت أن أفلت من قبضتهما. ركلاني بين ضلوعي وأسفل معدتي. تأذيت وخفت مقاومتي. جثم أحدهما على ظهري وقيد يداي. كمم الآخر فمي.

شعرت بآلام شديدة، ولكن خوفي من القادم كان أشد.

«أجاهزة أنت يا منال؟ سأجعلك تشعرين بشعور لم تجربيه من قبل».. ضحك المحقق.

أخذت أنتفض بما تبقى لي من قوة. شعرت أن مقاومتي تكاد تكون معدومة. عرفت أنهم اختاروا أسوأ الطرق وأشدها فتكاً لكسر عزيمتي. ماذا أفعل؟ هل أصيح بأني مستعد لتنفيذ أوامرهم والتوقيع على أي اعترافات؟ ولكن ما ذنب أولئك المساكين الذين سأعترف عليهم زوراً وبهتاناً؟ سيموتون بكل الأحوال، وإن لم أعترف أنا، سيعترف غيري. إن لم أفعل ذلك ستكون العاقبة وخيمة. ولكن كيف سأخبرهم أني مستعد للاعتراف وفمي مكمم؟ هل سيفهمون ويتوقفون؟

«لقد لفتّ نظري منذ اليوم الأول. جسدك الطري والممتلئ يوحي بالبيئة المنعمة التي نشأت فيها. لقد أوصيت رفاقي ألا يكثروا من ضربك. لا أريد لهذا الجسد أن يتضرر».

«سأعترف. سأعترف» صحت.

لم يكن كلامي مفهوماً.

«سنتحدث فيما بعد، أما الآن يا منال فأريد منك أن تهدئي وتستمتعي معي».

مع كل كلمة كنت أسمعها كنت أزداد انتفاضاً ولكن من دون جدوى.

«أعدك يا منال أن أكون رفيقاً بك».

تحرك المحقق ودار حولي فما عدت أراه. نهض ذلك الذي كان يجثم على ظهري وقبل أن ألتفت أصبح أمامي وضغط بيديه على منكبيّ ليمنعني من أي حركة.

فجأة أحسست بمعدن بارد يمر من أسفل رأسي نزولاً إلى ظهري. شعرت بقميصي والفانيلا تحته تتقطعان من الخلف. أصبح قسمي العلوي عارياً تقريباً بعد أن سحب أحدهم ما تبقى من الملابس الممزقة.

«جميل وناعم» أحسست بيدين تتسللان أسفل صدري وتنزلان نحو بطني تضغطان عليه ثم تتوجهان إلى أسفل ظهري. ارتعش جسدي وانتفض. لم أستطع الحركة وحتى مقاومتي لم تسعفني. لمساته انتهكتني. شعرت بمهانة كبيرة وأنا أتحوّل إلى فريسة سهلة المنال. أدركت أنهم خبراء في تحطيم الرجال.

«ما رأيك بهذا المساج يا منال؟» ضحك المحقق.

ليت الأمر توقف عند هذا الحد.

«ستصبحين جاريتي بعد دقائق. كفي عن الحركة. استسلمي لي كي لا تشعري بالألم. سيكون الشعور غريباً أول مرة ولكن مع الوقت ستعتادين».

عاد المعدن البارد ليشق طريقه أسفل ظهري.

انقضى ما بقي من كبريائي.

9

هرج ومرج. فوضى عمت المكان. أناس يهربون في كل الاتجاهات. أم تمسك بيدي ابنتيها وتجري بهما بعيداً على غير هدى. مسن يستند على عكازته ويحث الخطا، عل القدر يمهله أياماً إضافية يعيشها. أطفال يصطدمون بسيقان الكبار. الكل ينشد النجاة. إنها غريزة البقاء.

حانت ساعة الصفر. بات المشهد ملائماً للقيام بالحركة الأخيرة.

وضع «القناص» بندقيته جانباً. فتح باب سيارته وخرج منها بهدوء. قطع الشارع وتوجه نحو مركز الحدث. عيناه تجوبان المكان ترصدان أي حركة، أراد أن يتم العملية من دون أن يجلب أي انتباه إليه. أمامه أقل من دقيقة. عليه أن يستغل تلك الثواني التي يكون فيها تركيز الأشخاص منصباً على النجاة بأنفسهم. خبرته علّمته أن حتى أكثر الناس شجاعة، عندما يتعرّضون لخطر مفاجئ فإنهم يقومون - لا إرادياً - بالهرب من مصدر الخطر قبل التفكير بإنقاذ الآخرين.

تخطى بسرعة الأجساد التي أرداها بطلقاته المخدرة. كان قناصاً ولكنه لم يكن قاتلاً. انحنى فوق جسد الأم وأزاحه بهدوء ليبعده عن الصبي. وقع نظره على وجهها. كانت ملامح الخوف على ولدها لا تزال مطبوعة على محياها. شيء ما تحرك في نفسه. ما من مشهد محزن يعادل مشهد أم مفجوعة بفقدان ولدها.

كان قد عاهد نفسه ومنذ فترة طويلة ألا يدع عواطفه تتدخل في عمله. صرف تلك الأفكار عن ذهنه، ثم أمسك بالصبي من تحت إبطيه ورفعه ثم أسند رأسه إلى كتفه وأحاطه بيديه. ترنح قليلاً عندما نهض واقفاً على قدميه. «يا له من صبي ثقيل» فكر في نفسه.

مشى مسرعاً بعد أن رسم على وجهه ملامح الخوف الممتزج بالدهشة. تقمص دور أب يحمل ولده ويجري به ليبعده عن الخطر. اختلط بالمارة الذين كانوا لا يزالون يندفعون على غير هوادة. أصبح فجأة جزءاً من المشهد.

فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها وقفت على شرفة أحد المنازل المطلة على الشارع. تابعت المشهد منذ بدايته، ولم تقتنع بأداء الممثل.

«بابا. الزلمة أخذ الولد النايم. هو مو أبوه».

«أدخلي بسرعة» خرج الأب إلى الشرفة.

«بابا. هذا مو أبوه» أشارت الفتاة إلى الشارع نحو رجل يمشي مسرعاً ويحمل صبياً فاقد الوعي.

نظر الأب إلى الخارج من دون تركيز. رآهما ولكنه لم يمعن النظر «ما دخلنا». لم يُلقِ بالاً لكلمات ابنته. حملها، ودخل بها، وأحكم إغلاق باب الشرفة.

ركب «القناص» سيارته وطريدته إلى جانبه. لم يقيّد الصبي، فلديه ما يكفي من الوقت لتسليمه قبل أن يزول مفعول المخدر. أجرى اتصالاً قصيراً وشغل المحرك وانطلق مسرعاً.

ابتسم لنفسه. لقد أتم الجزء الأول من مهمته أخيراً على أكمل وجه.

10

إطلاق نار. صيحات مدوية. تهليل وتكبير. حدث ما لم يكن بالحسبان. انتفض المظلومون. ارتفع الشهداء وسقط المجرمون.

كنت في حالة يرثى لها عندما أحاطني شاب في مقتبل العمر ببطانية سترت بها جسدي المهان. نهضت بصعوبة. لم يكن جلاديّ حولي. لا بد أنهم فروا أو لعلهم قتلوا.

«ماذا حدث؟» سألت الشاب والذي كان واضحاً أنه نزيل من نزلاء المعتقل مثلي.

«ثرنا على العساكر. قُتل بعضنا وجُرح البعض الآخر، ولكنا في النهاية تمكنا من الاستيلاء على أسلحتهم وقضينا عليهم جميعاً».

«قتلتم جميع العساكر والضباط؟» سألته بلهفة.

«قتلنا أغلبهم واستسلم الباقون فأودعناهم إحدى الزنزانات».

«خذني إليهم» أردت أن أعرف مصير المعتدين.

من يصدق أن هؤلاء المحتجَزين كانوا قبل ساعة سادة المكان. سبحان مغير الأحوال. اختفت مظاهر الكبر والاستعلاء. سقطت عصا السلطة فهوت معها أقنعة القوة والجبروت.

وجدت من بين المستسلمين أحد التابعين الذين جراني نحو غرفة المحقق وشاركا في إهانتي. وقفت أمامه وكان مقيّد اليدين راكعاً على ركبتيه. نظرت في عينيه فرأيت الرعب وقد أحكم قبضته على روحه. أطرق برأسه وأخذ يهذي «مشان الله ما تقتلني. كنت أنفذ الأوامر فقط. لا أريد أن أموت. لست السبب فيما حدث لك» بكى وتوسل الصفح.

«أين المحقق ورفيقك الآخر؟» سألته بعصبية.

«سأخبرك بكل شيء ولكن لا تقتلني».

صحت به: «ليس لديّ اليوم بطوله. أخبرني بمكانهما فوراً».

رفع رأسه قليلاً: «عندما كنا في الغرفة، وسمعنا أصوات الرصاص وصيحات المعتقلين، خرج رفيقي ليتفقد الأمر فأصابته رصاصة في رأسه. أمرني المحقق بإطلاق النار على كل ما يتحرك كي يتسنى له الخروج من الغرفة والتوجه إلى مكان أكثر أمناً أو ربما مغادرة السجن. فعلت ما أمرني به، وأفرغت ما بجعبتي من رصاص. غادر هو الغرفة تحت غطاء طلقاتي النارية وتوجه نحو المخرج. لا أعرف ما حدث له بعد ذلك، فقد سلمت نفسي بمجرد أن نفدت ذخيرتي. أقسم لك أن هذا ما حدث تماماً. أتوسل إليك أن لا تقتلني فلدي عائلة تنتظرني».

قضت كلماته الأخيرة على ما تبقى لدي من قدرة على كظم الغيظ وضبط الأعصاب.

صحت به: «وهل نسيت أيها السفيه عندما كنت تتفنن أنت ورفاقك الوضيعون في تعذيبنا، أن لدينا عائلات تنتظرنا نحن أيضاً؟ بالطبع نسيت. فنحن في نظركم حيوانات لا يحق لها ما يحق لكم».

ضربته بقبضتي بين عينيه بكل ما أوتيت من قوة. أردت استعادة كبريائي. تذكرت ضحكاته عندما كان جاثماً على ظهري. أفلت العنان لغضبي. صاح متوسلاً. هشمت أنفه. بكى كالنساء. توالت لكماتي. تفجرت الدماء من كل بقعة في وجهه. تذكرت عندما ثبت كتفاي على الأرض ليفعل بي سيده ما يشاء. تضاعف غضبي فركلت رأسه كما تركل الكرة. أمعنت في ضربه إلى أن اختفت ملامح وجهه تماماً.

دسته كما تداس الحشرات. شعرت بشهوة التعذيب ولذة الانتقام. لم أبالي إن كان مقيداً، فقد قيدني ثلاثتهم. قتلته شر قتلة. نعم. قتلته وهو مقيّد ولم أبالي. لست نادماً على ما فعلته به.

ولكن بعد كل هذا هل انطفأت جذوة الغضب؟

لا، لم تنطفئ؟ لن تنطفئ.

لماذا؟

لأن أياً من ذلك لم يحصل حقيقة. فأنا أضعف من أن أنتقم. سأخدع نفسي كما أفعل دائماً وأقنعها أن الانتقام ضعف، وأن العفو عند المقدرة من شيم الأقوياء. لا أشعر بأي قوة. لا أشعر إلا بنفس محطمة وشخصية ضعيفة لم تقو حتى على الاعتراض عندما حدث لها ما حدث.

ثبتوني وفعلوا بي ما فعلوه، والآن أجدني غير قادر على الرد. لا أفكر إلا بالهرب.

شددت البطانية حول جسدي المنهك وغادرت الزنزانة من دون أن أنطق بكلمة واحدة. توجهت نحو المخرج، فوجدت الضابط الذي اعتدى عليّ ممدداً على الأرض، وقد اخترقت ظهره عدة رصاصات. لم أبالي بالنظر إليه واكتفيت بأن اجتزته وخرجت إلى النور.

أود أن أهرب. أركض بعيداً. أنسى كل ما حدث. ألغي هذا الفصل من حياتي. أتظاهر وكأن شيئاً لم يكن. أقنع نفسي أني لا أزال رجلاً مكتمل الرجولة. لجأت إليه. هو الوحيد القادر على تفهم ألمي. أثق به. سينسيني ما حل بي. أوكلت نفسي إليه.

توجهت إلى شقتي وجمعت ملابسي. لم يعد لدي ما أفعله هنا. لا أريد العودة أبداً.

الآن لا أريد إلا أن ألحق بزوجتي وابني. أود أن أضمهما إلى صدري لأشعر بالأمان مجدداً.

11

صداع شديد. أشعر بأني منهكة. أصوات كثيرة حولي. فتحت عينيّ بصعوبة. الدنيا تدور بي. الإضاءة الشديدة تزعجني.

من هذا؟ لماذا يقف أمجد بالقرب من سريري؟ إنه يبدو متجهماً. ماذا حصل؟

ماذا تفعل أم أيهم هنا؟ ولماذا ترمقني من بعيد بهذه النظرات؟

لحظة. هذه ليست غرفتي!

أين أنا؟

«أين أنا؟» سألتهما بصوت مرتفع.

تبادلا النظرات.

وأين غس....؟ تلفت حولي. يا إلهي أين غسان؟

الشارع. المخبز. الطابور. غسان يسقط بين يدي. لسعة النحل. يا إلهي ماذا حل بنا؟

أفقت كمجنونة. صحت بهما: «أين غسان؟ أين غسان يا أمجد؟».

«غسان؟ ألديك الجرأة لتسألي عنه؟ أنت أخبرينا أين أضعته. أي أم أنت؟ تباً لك».

«توقفي يا أمي. دعيها تستعيد عافيتها قليلاً».

«أضعته؟ أمجد، عم تتحدث أمك؟ بالله عليك أخبرني أين غسان؟».

حاول أمجد تهدئتي: «نحن في المستشفى يا لميس. عندما وصلني الخبر جئت مسرعاً إلى المخبز. اخترقت جمهرة الناس المجتمعين حول المكان. هالني المنظر عندما وجدتك ومجموعة من الأشخاص ممددين على الأرض. كنت تبدين مثلهم جثة هامدة. خلتكم قتلى وكدت أفقد صوابي».

«وغسان؟ هل رأيت غسان؟» ألححت عليه.

«صاح أحدهم وكان يبدو من هيئته وطريقة تفحصه للمصابين أنه طبيب: «ليسوا موتى. هم نائمون فقط» أحيا كلامه الأمل في نفسي. اقتربت منك. تحسست نبضك ثم تأكدت من أنك تتنفسين».

«وغسان؟ ماذا حل بغسان؟» سألته مجدداً وقد نفد صبري.

أخفض بصره وما عاد ينظر إليّ مباشرة «بحثت عنه بين الأجساد الممددة. لم أجده. لم يكن بقربك. استنتجت أنه ربما نجى من الإصابة وأسرع لإحضار النجدة».

«لم ينجُ. لقد سقط قبلي» حدثت نفسي وقد تملكني الخوف.

«سألت عنه من كان حاضراً في ذلك الوقت. لم يشاهده أحد. جاءت سيارة الإسعاف ونقلتكم إلى هذه المستشفى. لا زلنا لا نعرف مكان غسان. تركنا أبي في المنزل تحسباً لعودته. أخبرنا الأطباء أن جميع مصابي المخبز بخير الآن. أصبتم جميعاً بطلقات مخدرة. لا أحد يعرف سبب استهدافكم». توقف قليلاً وعاد لينظر في عيني. «هل تذكرين شيئاً؟ أين كان غسان قبل الحادث؟ هل كان قريباً منك؟». لم تحمل نبرته أي اتهام.

«لا بد أنها تركته يلعب بعيداً عن ناظريها. يا لك من أم مهملة. أين أنت يا أيهم؟ تعال لترى ماذا حل بولدك الوحيد. أضاعته زوجتك. حذرتك منها كثيراً ولكنك لم تصغ إليّ».

«أمي. رجاءً. أنت لا تساعدينا بكلامك هذا».

«حتى أنت يا أمجد تقف في صفها، وهي السبب في فقدان ابن أخيك؟ كيف استطاعت خداعكم جميعاً؟».

لم أكلّف نفسي عناء الرد عليها. لديّ ما هو أهم بكثير. نهضت من السرير: «هيا بنا. علينا الذهاب بسرعة للبحث عنه. ربما كان قد أفاق قبل أن تصل إلينا».

نظر إليّ أمجد مستفهماً.

«نعم. لقد أصيب غسان مثلي، ورأيته يسقط قبلي بلحظات. لعل إصابته لم تكن مباشرة، وهكذا لم يتسلل إلا قدر قليل من المخدر إلى دمه». حاولت أن أطمئن نفسي، ولكني لم أجد إجابة للسؤال الأهم: أين

ذهب غسان؟».

12

وصلت أخيراً. سأطرق الباب. ستكون مفاجأة سارة لغسان ولميس، ولعائلتي أيضاً. سأقبل وجنتي ولدي المحمرتين ثم سأضمه وأدور به. لقد اشتقت إليه كثيراً. اشتقت لأمه أيضاً. سأعدهما بأننا لن نفترق عن بعضنا مجدداً أبداً.

طرقت الباب. انتظرت لحظات. إني أسمع وقع قدميه. صغيري سيفتح لي الباب. يا تُرى كيف سيكون استقباله لي؟

هل سيقفز فرحاً؟ أم تراه سينقض عليّ معانقاً؟

فتح الباب. إنه هو.

ما لي أراه متسمراً؟

«غسان حبيبي. اقترب مني».

لم يتحرك. إنه ينظر إليّ نظرة اشمئزاز غريبة.

«بابا. كيف أتيت إلى هنا وأنت على هذه الحال؟».

لم أفهم. عن أي حال يتحدث؟

«أبي. ماذا فعلوا بك؟».

اصفر وجهي. من يقصد؟

«أبي. لماذا أنت عارٍ؟ أين ملابسك؟».

دهشت من كلامه ونظرت إلى جسدي.

يا الهي. أين ذهبت ملابسي؟ هل يعقل أني قطعت كل هذه المسافة ولم أنتبه إلى أني لا أرتدي شيئاً.

غطيت سوأتي بيدي ونظرت خجلاً إلى ولدي.

لم أجده.

أين ذهب؟ لقد اختفى. لابد أن منظري قد ساءه. عليّ أن أجد ملابساً بسرعة لأستر جسدي.

تلفتُ حولي. أين أنا؟ لقد اختفت الشقة أيضاً.

ما هذه القضبان؟

يا الهي كيف عدت إلى الزنزانة؟

المحقق يقترب مني وهو يبتسم ابتسامته الصفراء. لم يمت. ماذا يريد مني؟

«ابتعد عني.

لا تلمسني.

اتركوني وشأني.

توقفوا.

إلهي أنقذني».. صحت بأعلى صوتي.

أفقت.

تفقدت جسدي. لست عارياً. الجو شديد البرودة. أكاد أتجمد. إنها ليلتي الأولى التي أقضيها في العراء. عليّ أن أصل إلى طرطوس في أقرب وقت، ولكن تسعون كيلو متراً مسافة كبيرة لأقطعها مشياً على الأقدام من دون استراحة. المشي مرهق، ولكنه أقل خطراً من ركوب السيارة. السيارات أصبحت لقمة سائغة للطائرات هذه الأيام. أين نمت؟ في الغابة، بين الأشجار في بقعة منزوية بعيدة قليلاً عن الشارع العام. أشعلت قليلاً من الحطب علني أشعر ببعض الدفء.

أتمنى أن لا تكشف النيران موضعي.

خرجت من اللاذقية بصعوبة. المدينة محاصرة. نقاط التفتيش في كل مكان. الجثث بدأت تملأ الشوارع. قتل على الهوية. غدت لؤلؤة البحر المتوسط ساحة حرب اختلط فيها الحابل بالنابل. يا إلهي، متى ستكشف الغمة.

جفلت عندما سمعت باقتراب خطوات مني. تلفتُ حولي فلم أجد أحداً.

اقتربت الخطوات أكثر.

ناديت: «من هناك؟».

لم يجب أحد. توقف صوت الأقدام برهة ثم عاد مجدداً.

نهضت. قربت قطعة خشب إلى النار فغدت مشعلاً رفعته ومشيت به.

دققت النظر بحثاً عن مصدر الصوت. في البداية لم أرَ شيئاً. درت حول النار وتفقدت المكان.

سقط قلبي عندما رأيت مصباحين صغيرين بين الأشجار يتحركان سوياً ويقتربان مني شيئاً فشيئاً.

حاولت أن أستعيد رباطة جأشي. أمسكت بالمشعل ولوحت به مهدداً. اقتربت العينان أكثر. تملكني الخوف عندما تعرفت على هوية المتطفل. ضبع شرس. لم يخطر ببالي أن هذه المنطقة تؤوي ضباعاً. حاولت أن أخفي ما أشعر به من خوف. اقتربت خطوة من الحيوان ولوحت بالمشعل في وجهه. هالني ما رأيت. لقد تضاعف عدد العيون المضيئة. ليس ضبعاً واحداً أو

اثنين. إنها مجموعة. باتت الضباع تحاصرني.

تراجعت نحو النار. الحيوانات تخشى النيران. أقنعت نفسي أني سأكون بأمان ما دمت قريباً من مصدر الضوء. اقتربت العيون المضيئة أكثر. لقد شمت رائحة خوفي. عليّ أن أتصرف سريعاً. ماذا لو قررت الضباع أن تهاجمني من الخلف. سأكون فريسة سهلة.

تشجعت قليلاً. اقتربت من النيران وأشعلت قطعة خشب أخرى. بات لديّ مشعلان. تقدمت نحو العيون المضيئة. رفعت يدي اليمنى وألقيت بالمشعل بكل ما أوتيت من قوة باتجاه الضباع. أخطأتها فزمجرت. إنها تشم رائحة خوفي. اقتربت أكثر فانخلع قلبي. نظرت خلفي. وجدت شجرة عالية. فكرت بتسلّقها. لا أجيد التسلّق من صغري. ماذا أفعل؟ ستنقض الوحوش عليّ في أي لحظة. نظرت إلى المشعل الآخر الذي أحمله. إنها فرصتي الأخيرة. ألقيته بقوة أكبر نحو الضباع.

أصبت أحدها إصابة مباشرة. عوت الضباع ثم جعرت وفرت متراجعة خطوات قليلة، وكأنها تستعد لجولة جديدة.

أوقدت المزيد من الحطب. حمدت الله أن ألهمني أن أجمع الكثير منه. لن أنتظر الهجوم. أمسكت بجذع الشجرة وحاولت تسلّقها. زلقت قدمي وسقطت. نعل حذائي أملس لا يناسب مثل هذه المهام. خلعته وعاودت الكَرة حافياً. هذه المرة أفضل ولكني تأخرت. تأخرت كثيراً. لم أنتبه عندما قفز أحد الضباع متجاوزاً النار. بات خلفي تماماً. حاولت أن أسرع أكثر في تسلّقي، لكنه كان أسرع مني. شعرت بأنيابه تنغرس في قدمي وتجذبني نحو الأرض. أيقنت بقرب نهايتي. سأبيت في بطون الضباع. يأست وكدت أستسلم لمصيري المحتوم.

تحركت فيّ غريزة البقاء. ركلته بكل ما أوتيت من قوة. أفلت قدمي فأكملت تسلّقي رغم ما أصابني من جروح. صعدت إلى أعلى الشجرة وجلست على غصن كبير. أسندت رأسي إلى الجذع. ما زالت أعصابي متوترة. نظرت إلى الأسفل فرأيت الضباع وقد تجمعت حول الشجرة تنتظر أن أسقط أو أن أنزل إليها لتقيم وليمتها على لحمي. دعوت الله أن تمضي هذه الليلة بخير.

⊠⊠⊠⊠⊠⊠

1

تحركت سيارة الـ«مايباخ» الفارهة من أمام الباب الرئيسي. عبرت ببطء الطريق الذي يقطع الحديقة الغناء التي تحيط بالقصر. مجرد النظر إلى

تلك الجنان كان كافياً لسلب الألباب. اشترك أشهر مصممو الحدائق في ألمانيا في التخطيط لجعل هذه الجنينة واحدة من عجائب الدنيا. كان مالك القصر قد أصر على الحصول على حديقة مخضرة طوال فصول العام. لم يكن ذلك سهلاً ولكنه تحقق.

لدى السائق تعليمات محددة بإيصال توماس إلى مدرسته ثم العودة إلى القصر وانتظار نزول الأم.

كانت لدى توماس خطط أخرى.

في الليلة السابقة، احتفل مع والديه ببلوغه التاسعة من عمره. في هذه السن، ورغم أنه وحيد أبويه، لم يكن كغيره من أبناء الأثرياء الذين أفسدهم الدلال. على العكس، فقد كان صبياً متمرداً سابقاً لسنه. يعشق المغامرة ويرفض الاستسلام لبروتوكولات أبناء العائلات الراقية. أصدقاؤه المقربون لم يكونوا من علية القوم، بل صبية من عائلات متوسطة الحال، التقى بهم صدفة في مباراة كرة قدم اشترك بها خلسة.

والده كثيراً ما كان يغضب من تصرفاته التي لا تتناسب مع وضعه المادي أو الاجتماعي.

أمه تتظاهر في حضور الوالد بأنها غاضبة هي الأخرى، ولكن بمجرد اختلائها به كانت تقدم دعمها الكامل له. ربما لأنها نفسها كانت قبل زواجها بأبيه تعيش في كنف عائلة فقيرة. كانت تعرف أنه لولا جمالها الأخاذ لما لفتت نظر ذلك الشاب الثري الذي تجاهل كل بروتكولات عائلته وأقدم على الزواج بها عندما سحره حسنها.

«ماثياس! أين ستأخذني اليوم؟» ابتسم توماس ابتسامة ماكرة.

«إلى المدرسة سيدي» أجاب ماثياس بثقة.

«قلت لك مئة مرة. لست سيداً لأحد. عليّ التفكير بعقاب مناسب لك كي تتوقف عن مناداتي بسيدي. ما زال الوقت مبكراً للذهاب إلى المدرسة. ما رأيك بمغامرة صغيرة؟».

ابتلع ماثياس ريقه: «ولكن تعليمات السيد فلوريان واضحة. عليّ أن أوصلك إلى المدرسة وأعود إلى القصر وأنتظر السيّدة...».

«أمي وأعرفها. ستتأخر في النوم كالعادة ولن تذهب إلى السوق قبل الظهيرة» قاطعه توماس.

«أين تود الذهاب سيدي؟».

«سيدي مرة أخرى؟ حسناً. دعني أفكر» ربت بسبابته على عظم خده. ابتسم «وجدت العقاب المناسب. خذني إلى وادي بارتناخ» نظر توماس من

مقعده الخلفي في المرآة الأمامية ليراقب ردة فعل ماثياس على هذا الاقتراح.

اصفر وجه السائق: «لكنه بعيد من هنا. نحتاج إلى أكثر من ساعة كي نصل إلى الوادي، كما أن قيادة السيارة هناك شديدة الصعوبة، فهو طريق جبلي وعر».

«لديّ ما يكفي من الوقت، لا تقلق. كما أني سأتناوب معك على السياقة».

كادت كلمات توماس تصيب السائق بسكتة قلبية: «تت.... تتناوب معي؟.... على السياقة؟.... هناك؟.... في الوادي؟..... مستحيل يا سيدي. مستحيل. السيد فلوريان سيقتلني. أنت تمازحني ولا شك. أليس كذلك؟»

التفت ماثياس إلى توماس وكله أمل أن يكون اقتراح الأخير مجرد دعابة.

«أنا جاد. توجه إلى هناك فوراً. إياك أن ترفض تنفيذ أوامري وإلا سأخبر السيد فلوريان بعلاقتك بإيفون مدبرة المنزل».

تلون وجه ماثياس ولم ينطق بكلمة واحدة. لم يخطر بباله أن يكون الصبي على علم بعلاقته بإيفون. ضغط على دواسة البنزين وانطلق مسرعاً نحو الجنوب.

ابتسم توماس وظهر على وجهه علامات الارتياح، فاليوم سيقوم بمغامرة جديدة محفوفة بالمخاطر. أغمض عينيه واستسلم للنوم على أنغام أغنية جاستن بيبر المفضلة لديه « never say Never ».

بعد ساعة من انطلاقهما، رن جرس هاتف السائق. كان سيده فلوريان هو المتصل. لم يجرأ ماثياس على الرد. لم يكن قد وجد بعد حجة لائقة تبرر تأخره عن العودة إلى القصر. حان الوقت لاختراع قصة يحمي بها نفسه. فكر ملياً. أقفل هاتفه المحمول. عندما يرجع سيخبر السيد أن بطارية هاتفه نفدت لهذا لم يتمكن من تلقي الاتصال. أما تأخره فربما يفسره بتعرض السيارة لعطل ميكانيكي استغرق إصلاحه بعض الوقت. أعجبته الفكرة وخف توتره قليلاً ولكنه لم يزل كلية.

وادي بارتناخ شديد الوعورة. يحتاج إلى سائق ماهر متمرس بالقيادة على الطرق الجبلية. لن تكون مهمة سهلة. تذكر طلب توماس أن يتناوب معه على السياقة، تقلبت أمعاؤه بمجرد تخيله للصبي وهو يسوق في ذلك الطريق الضيق. في أوقات فراغه وعندما لا يكون السيد والسيدة فلوريان متواجدان في المنزل، اعتاد أن يعطي توماس دروساً في قيادة السيارة بناءً على طلبه. لقد قطع شوطاً كبيراً ولكن القيادة في باحة القصر شيء،

والقيادة على طريق جبلي شديد الانحدار شيء مختلف تماماً. سيرفض السماح له بالقيادة مهما كلّف الأمر، حتى لو تسبب ذلك بطرده من العمل لعلاقته بإيفون الجميلة.

«سيد توماس. سيد توماس» نادى السائق. توماس مستغرق في النوم. «ها هو الوادي أمامنا. باستطاعتك الاستمتاع بمشهد الشلالات والتقاط بعض الصور».

تنحنح توماس وتمطى. فرك عينيه. فتحهما. «أين نحن الآن؟».

«لقد وصلنا إلى الوادي. أوقفت السيارة في مكان مثالي يسمح لنا بمراقبة مثلى للشلالات. أنظر بنفسك».

نظر توماس من الواجهة الأمامية للسيارة. ثغر فاه متأثراً بروعة المنظر. لقد زار هذا المكان بضع مرات من قبل، ومع ذلك فإنه وفي كل مرة تدفعه هيبة الشلالات إلى الشعور بالدهشة.

فتح باب السيارة وترجل منها. اقترب من حافة الطريق الوعر المطل على الجبل النازف. جلس على الأرض. أخرج هاتفه المحمول وأخذ بالتقاط الصور.

«ماثياس. تعال إلى هنا» نادى بأعلى صوته.

سمعه السائق بصعوبة لاختلاط صوته بصوت سقوط المياه. خرج ملبياً.

«التقط لي بعض الصور. أود أن أعرضها على والدي عندما نعود» أخفى ابتسامته.

«ولكن سيدي.... سأخسر... وظيف....» تلعثم ماثياس وارتبك.

«لا تقلق. أنا أداعبك. لن يشاهد والداي الصور. سأنشرها فقط على صفحتي بالفيسبوك». غمز بعينه.

لم يعرف ماثياس فيما إذا كان ذلك أمراً يبعث على الاطمئنان أم لا.

نهض توماس وناول سائقه الهاتف المحمول وشرح له طريقة التقاط الصور.

صورة من هذه الزاوية. صورة أخرى من زاوية أخرى. صورة يقف فيها توماس وقفة رزينة. صورة أخرى يقفز فيها عالياً. صور كثيرة.

بديعة حقاً. فكر ماثياس عندما شاهد الصور. عزى روعة الصور إلى كفاءته في التقاطها، وليس إلى جودة الكاميرا أو جمال المكان.

«لقد تأخرنا كثيراً يا سيدي» نظر إلى ساعته.

«ما زلت مصراً على مناداتي بسيدي؟ حسناً كما تشاء. نعم. نستطيع العودة الآن» مشى توماس باتجاه السيارة مقترباً من باب السائق.

اصفر وجه ماثياس. «ولكن سيدي. عليك الجلوس في الجهة الأخرى».

فتح توماس باب السيارة وجلس خلف المقود وأقفل الباب. ابتسم لماثياس الذي كان لا يزال يقف خارج السيارة وقد تملكه شعور مختلط من الدهشة والخوف. رفع توماس إبهامه إعجاباً بعد أن اكتشف أن محرك السيارة لا يزال يعمل.

أسرع ماثياس نحو السيارة وحاول فتح باب السائق ليكتشف أنه قد أغلق من الداخل. أشار إليه توماس ليركب من الجهة الأخرى. رفض الاستجابة وأخذ يتوسل إليه ليفتح الباب ويدعه يجلس في مكانه.

ما كان من توماس إلا أن غيّر وضعية التروس من الوقوف إلى القيادة وضغط بلطف على دواسة البنزين. جفل ماثياس ودار حاول السيارة. أسرع ففتح الباب وركب بجانب توماس مرغماً والعرق يتصبب من جبينه رغم برودة الجو.

«الطريق شديد الوعورة هنا يا توم، والسيارات تتحرك في اتجاهين وتتشارك الشارع نفسه. دعني أقود أنا أولاً، وعندما يصبح الطريق منبسطاً أترك لك القيادة. هذا وعد مني لن أخلفه».

ضحك توماس: «أصبحت تناديني توم إذاً. هذا تقدم ملحوظ. أما بخصوص القيادة فاقتراحك مرفوض، إذ أين المتعة في القيادة على طريق منبسط؟ دع الأمر لي. لا تقلق».

«ستتسبب في فصلي عن العمل بتصرفك الأهوج. هذا إن بقينا على قيد الحياة. هذا انتحار. ستقتلنا ولا شك». فقد ماثياس أعصابه، وصاح بتوماس لأول مرة في حياته، وأخذ يحذره بلهجة حازمة من خطورة ما هو مقدم عليه. لم يلقَ الأخير بالاً واكتفى برفع صوت مشغل MP3 ، ثم ضغط بقوة على دواسة البنزين، فقفزت السيارة نحو الطريق المعبد المتجه نزولاً.

أخذ ماثياس يعصر ذهنه ليتذكر الأدعية التي علّمتها له أمه في الصغر، ليدعو بها كل أحد، عند الذهاب إلى الكنيسة. حاول جهده ليعطي توماس التوجيهات المناسبة أثناء قيادته نزولاً على المنحدر، لكنه لم يدرك أن توجيهاته تلك كان تزيد من توتر توماس وتضعف تركيزه.

في البداية، كان الأمر بمثابة مغامرة وتحدٍ بالنسبة إلى توماس، ولكن بمرور الوقت، ومع ازدياد وعورة الطريق، لم يتمكن توماس من إخفاء خوفه وارتباكه الشديدين. في قرارة نفسه، ندم على فعلته الرعناء هذه، ولكن كبرياءه منعه من الاعتراف بحاجته للمساعدة ورغبته بالتوقف. حاول

الإبطاء من سرعته قدر الإمكان، ولكن طابور السيارات الذي تكوّن خلفه مع ضغط سائقيها المتواصل على الزامور، دفعه مرغماً لزيادة السرعة.

مرت الدقائق الأُول بسلام. خفت انحناءات الطريق وبدا وكأن الشارع سيصبح منبسطاً عما قريب. ارتخى توماس قليلاً واستعاد شجاعته وثقته بنفسه. تخيل نفسه يقود سيارة في إحدى لعب السباق التي يعشقها. زاد من قوة ضغطه على دواسة البنزين وسمح للسيارة بالانطلاق بسرعة أكبر.

اعترض ماثياس وأخذ يحذر من أن الطريق سيزداد وعورة بعد قليل. كان صوت المغني عالياً فلم تصل التحذيرات إلى مسامع توماس.

أغمض عينيه منتشياً بشجاعته لحظة فقط.

لحظة كانت كافية لتقرر مصيره.

في تلك اللحظة، فات توماس الانتباه إلى الإشارة التي أعلنت أن الطريق مقدم على انحناءة بالغة الخطورة.

فتح توماس عينيه ليجد أن الطريق ما عاد منبسطاً، وأنه تحوّل فجأة إلى ثعبان متلوٍ.

صرخ ماثياس.

انحرفت السيارة.

حاول توماس إعادة السيطرة عليها.

لم يفلح.

هب ماثياس من مكانه، ومال على توماس، وأمسك عجلة القيادة بكلتا يديه.

ارتبك توماس أكثر. ضغط على المكابح.

زادت سرعة السيارة. لم يضغط على المكابح. لقد ضغط بالخطأ على دواسة البنزين.

طارت السيارة. بعيداً عن الطريق.

هوت.

سقوط حر.

اصطدام.

سكون تام.

2

كارولين، فتاة جميلة قفزت فجأة من طبقتها الفقيرة المتدنية إلى أعلى الطبقات وأكثرها ثراءً.

لم تلقَ أي ترحيب من أفراد عائلته. اعتبروها مجرد ساقطة حقيرة

نجحت بإغواء ولدهم طمعاً في دخول قصره والتنعم بغناه. ظنوها نزوة عابرة ستنقضي سريعاً. جن جنونهم عندما أخبرهم برغبته بالزواج منها.

جوبه بمقاومة عنيفة. هددوه بالطرد من القصر وبالحرمان من الإرث. لم يبالِ وأصر على موقفه.

في نهاية الأمر، فقد والداه الأمل في ثنيه عن قراره، واضطرا مرغمين للقبول بزواجه درءاً للفضيحة. فخبر طرد وريثهم الوحيد سيكون كفيلاً بهز أركان مؤسستهم الاقتصادية العملاقة.

حفل زفافهما كان أسطورياً يليق بمكانة العائلة. أشاعت أمه أن العروس من عائلة ثرية في النمسا. دعت كارولين أفراد عائلتها إلى حضور الحفل، ولكنها لم تتمكن من الحفاوة بهم أمام الضيوف. كانت تلك تعليمات والديّ العريس، ولم تكن قابلة للنقاش. مر العرس بسلام ولكنها لم تكن سعيدة. ما زالت وحتى اليوم تشعر بالأسى كلما تذكرت نظرات والديها لها، وهي تجلس على عرشها، بالقرب من عريسها، بينما يقبعان هما على طاولة بعيدة، لا يجرؤان على الاقتراب منها وتهنئتها. أحست يومها بالذل ولا زالت تشعر به.

بعد الزواج، لم يتوقف عداء العائلة الثرية لتلك الفتاة الفقيرة التي اقتحمت قصرهم رغماً عنهم. حاولوا المستحيل لتحويل حياتها إلى جحيم. صبرت على الأذى. خلافاً لظنون العائلة، فقد كانت كارولين تحب فلوريان بحق. لم تكن فتاة وصولية كما ادعوا. على العكس، كانت - وحتى بعد الزواج - ترفض هدايا حبيبها إن كانت مرتفعة القيمة، وتفضل عليها وردةً حمراء أو دباً محشواً أو ربما حيواناً أليفاً صغيراً.

شغف كارولين الحقيقي كان الأطفال. أحبت أحجامهم الصغيرة، والطريقة الظريفة التي ينطقون بها الكلمات. عندما كان يأتي أفراد عائلة فلوريان لزيارته، كانت كارولين تصب اهتمامها على أطفالهم، فتلاعبهم وتندمج معهم وكأنها في مثل سنهم. ألحت طويلاً على فلوريان للإسراع بالإنجاب. كان يرى أن يؤخرا الأمر سنة أخرى على الأقل. بالطبع، استنتج والدا فلوريان من إلحاح كارولين على الإنجاب، رغبتها بالإسراع في الحصول على وريث يثبت أقدامها في القصر.

لم تتحقق أمنيتها سريعاً، فقد مرت خمس سنوات على زواجها من دون أطفال. زارا أطباء عدة. تبين بعد فترة أنها تعاني من بعض المشكلات فيما يخص الخصوبة. كان الخبر بمثابة الفاجعة بالنسبة لها. وقف فلوريان إلى جانبها ولم يدع طبيباً اختصاصياً داخل ألمانيا أو خارجها إلا وذهب بها

إليه. وكما هو متوقع، تعرضت كارولين خلال تلك السنوات لحرب شعواء من والدي زوجها، وقد أصبح لديهما الآن سبب مقنع للتخلّص منها.

بقي فلوريان وفياً لها ولم يسمح لوالديه بالنيل منها.

حلت السنة السادسة من زواجهما حاملة أخباراً طيبة، فقد بدأ علاجها بإعطاء نتائج إيجابية. ولم تنقضِ سنة الخير تلك إلا وقد برز بطن كارولين.

وهكذا، وبعد خمس وسبعين شهراً من الزواج، رزقت كارولين بطفل ذكر جميل موفور الصحة. في ذلك اليوم، شعرت أن جميع أمانيها قد تحققت. توقفت الحرب بعد أن نجح طفلها الصغير في تغيير موقف جديه. ما عادت غريبة بعد اليوم. لقد بلغت سعادتها ذروتها.

أحبت طفلها، وتعلّقت به أكثر من أي أم أخرى تعرفها. أصبح رفيقها وشغلها الشاغل. ملأ حياتها بهجة بعد أن كادت أن تفقد الأمل بالإنجاب. كثيراً ما كانت تنهض من سريرها في جوف الليل لتجلس قرب مهده، تتأمله وتشكر الله على هذه الهدية. أحياناً كانت تظن نفسها تعيش حلماً جميلاً ستستيقظ منه في أي لحظة.

مرت السنوات، وكبر توماس، وأصبح فتىً جميلاً، يضرب المثل به لذكائه وفطنته وحسن خلقه. لقد ربته كارولين بعناية شديدة. كان ببساطة قرة عينها وجوهر روحها. كان كل شيءٍ بالنسبة إليها.

3

لم يتمكن هذه المرة من وعدها بإصلاح الأمر، كما اعتاد أن يفعل بعد كل مشكلة يتعرضان لها. ثروته لن تسعفه. لن يتمكن من الاستعانة بوالديه لينشلاه من مصيبته. ما من مسؤول يستطيع الاتصال به ليساعده.

أدرك أن ما حدث سيفقدها عقلها. ربما يفقد عقله هو الآخر. لم يخطر بباله أن يخبئ له القدر كارثة بهذا الحجم. ليته خسر كل أمواله عوضاً عن ذلك.

فيما مضى، كان عندما يسمع بحدوث أمر مماثل لشخص يعرفه أو موظف يعمل لديه، تحدثه نفسه بأن هذه المصائب لا تصيب أمثاله. وكأن ثراءه ومكانته في المجتمع تحصنانه من التعرض لذلك.

كان أول من درى بالخبر، عندما حضر شرطيان إلى شركته، وطلبا من مساعدته الخاصة الالتقاء به لأمر غاية في الخطورة. اضطر يومها لقطع اجتماعه مع كبار موظفيه.

في البداية، ظن أن الأمر متعلّق بسوء تفاهم بخصوص تقرير شركته

الضريبي. الوجوم الذي رآه في وجهيهما وشى بأمر أشد خطورة.

أدخلهما مكتبه، وجلس في مقعده منتظراً الأخبار السيئة.

تبادلا النظرات وكأنهما يجدان صعوبة في الاتفاق على من يجدر به البدء بالحديث.

تشجع الأكبر سناً: «سيد فلوريان. اممم..... لدينا بعض الأخبار....التي.... نود أن نطلعك عليها» بدت نبرته قلقة وكلماته غير متزنة.

«أفرغ ما في جعبتك. أخبرني بما لديك؟» بدأ يفقد أعصابه وقد أحس بأنهما يحملان خبراً جللاً.

«لقد تلقينا خبراً بأن السياج الذي يفصل الطريق عن المنحدر الصخري في منطقة ما إلى الجنوب من هنا قد أزيل» تنهد الشرطي ونظر إلى زميله وكأنه يطلب يد العون. أومأ الأخير برأسه وأكمل عنه: «استجبنا للشكوى وتوجهنا إلى الموقع. كان واضحاً أن السياج قد أزيل بفعل فاعل».

«ما علاقتي أنا بكل ذلك؟» قاطعهما وقد نفد صبره.

تحدث الشرطي الأول مجدداً: «كان كافياً أن ننظر من فوق المنحدر لنكتشف الفاعل».. تردد قليلاً قبل أن يكمل: «رأينا سيارة مقلوبة رأساً على عقب وقد استقرت أسفل الوادي. لم تكن مشتعلة ولكن كان من الواضح أنها هي من أفسد السياج عندما انحرفت عن الطريق وهوت في الوادي».

صمت فلوريان وقد جمد الدم في عروقه.

أكمل الشرطي: «استدعينا فريق الإنقاذ الذي جاء خلال دقائق وهبط بالحوامة قريباً من موقع سقوط السيارة».. توقف هنيهة قبل أن يكمل: «السيارة من نوع مايباخ سوداء اللون. تحققنا من رقم لوحتها وعرفنا أنك المالك».

اصفر وجه فلوريان. فكر قليلاً ثم سأل: «قلت أنكما وجدتما السيارة أسفل منحدر إلى الجنوب من هنا. لا يوجد منحدرات قريبة من هنا. ماذا حل بالسائق؟ كان بمفرده بالطبع. أليس كذلك؟».

تبادل الشرطيان النظرات مجدداً. قال الأصغر سناً: «لم يتمكن المسعفون من فعل شيء. كانت سقطة هائلة. ما كان أحد لينجو منها».

«كان السائق بمفرده. أليس كذلك؟ بالطبع كان بمفرده. ولدي في المدرسة. لا أدري ماذا دفع ماثياس للذهاب بمفرده إلى ذلك المكان دون إذن مني».

أخفض الشرطيان رأسيهما سوياً في حركة بدت عفوية. تحدث الأكبر سناً بصوت بالكاد مسموع: «لم يكن بمفرده».

سرت رعشة في جسد فلوريان: «أعد ما قلته لو سمحت. لم أسمعك جيداً».

رفع الشرطي رأسه قليلاً ولكنه لم يجرؤ على النظر مباشرة في عيني فلوريان: «المعذرة سيدي، ولكن السائق لم يكن بمفرده».

«تقصد أنه كان برفقة فتاة ما. أليس كذلك؟».. تمنى أن تكون الإجابة بنعم.

«أنا بغاية الأسف سيدي. السائق كان بصحبة فتىً بالتاسعة من عمره، وقد تحققنا من الهوية التي يعلّقها على صدره. إنه ولدكم توماس. تقبل عزائنا الحار. يؤسفنا أننا نحن من نقل لك الخبر السيئ. نحن في غاية الأسف».

ضاق نفس فلوريان وشعر بالاختناق. أحس أن جدران مكتبه أخذت تقترب منه شيئاً فشيئاً وكأنها تستعد لسحقه. وسع ربطة عنقه وفك زر قميصه العلوي. تصبب عرقه وشعر ببرودة أسفل ظهره. «ماذا يفعل ولدي معه في ذلك المكان؟ لابد أنكم مخطئون. ولدي في المدرسة» نادى على مساعدته بأعلى صوته. توتره أنساه أن بإمكانه التحدث إليها باستخدام الهاتف. جاءت ملبية في لمح البصر.

«اتصلي بمدرسة توماس واطلبي منهم أن يدعوه يتحدث معي فوراً».

أومأت برأسها ولكنها وقبل خروجها من المكتب سألت: «لماذا لا تتصل به مباشرة؟ أقصد تتصل بهاتفه المحمول». أدرك أنها محقة ولكنه لم يكن بحالة تسمح له بالتركيز.. «افعلي ما قلته لك» صاح في وجهها. غادرت المكتب بينما سارع هو لطلب رقم هاتف ولده.

راقب الشرطيان ما يحدث. لم يتدخلا. أدركا أن المصاب عظيم.

الهاتف خارج التغطية. عاود الاتصال مرة وثانية وثالثة ولكن دون جدوى.

عادت مساعدته: «اتصلت بالمدرسة. أخبروني أن توماس لم يحضر اليوم. اتصلت بالمنزل أيضاً. عرفت أنه خرج في موعده مع السائق، وكانا متوجهين إلى المدرسة. هل تود إبلاغ الشر...» أدركت أن سؤالها في غير محله في وجود الشرطيين.

«ماذا يعني كل ذلك؟ أين ذهب توماس؟ هل تعرض للاختطاف؟» وجه أسئلته إلى الشرطيين.

لم يعرفا بماذا يجيبان.

قال الأكبر سناً بنبرة حازمة ولكنها مهذبة: «نحن متيقنان أن ولدك

قد لقي مصرعه مع السائق. يؤسفنا ذلك. لقد جئنا لنطلب منك أن تصحبنا للتحقق من هويتهما بإلقاء النظرة الأخيرة على الجثتين».

«كفا عن ذلك. ولدي لم يمت. توماس ما زال صغيراً. لن يموت الآن. ما زال أمامه عشرات السنوات ليحياها سعيداً». أخذ يهذي. ذرفت عيناه الدموع. لم تره مساعدته بهذه الحالة من قبل. ما عاد ذلك المدير الصارم الذي يخشاه الجميع. لقد تحوّل فجأة إلى مجرد أب مفجوع بفقدان ولده.

لم يتقبل الأمر بسهولة.

أما كارولين فلن تتقبله أبداً.

4

شقة واسعة تلك التي انتقل إليها حديثاً في مدينة الأنبار. أربع غرف. غرفة له ولزوجته. غرفة لأمه وأبيه. غرفة أخرى للضيوف. ماذا عن غرفة الأولاد؟ الغرفة موجودة، ولكن ما من أولاد يشغلوها. خمسة عشر عاماً عجافاً مرت على زواجه لم يرزق خلالها بأطفال. عرف مبكراً أن العلة منه، وأن زوالها شبه مستحيل. عرض على زوجته تطليقها ولكنها رفضت.

«معك على الحلوة والمرة» أخبرته.

«لن تصبحين أماً أبداً» ذكّرها.

«يكفيني أن أبقى إلى جوارك» حسمت أمرها.

مرت السنوات، وبقت زوجته على عهدها. ربما أصبحت سريعة الغضب في الآونة الأخيرة، ولكنها وطوال هذه الأعوام لم يزل لسانها ولا لمرة واحدة بتذكير زوجها بعجزه. كثيراً ما كان يراقب نظراتها إلى أطفال الآخرين ويسمع تنهيداتها الخفية. كان يرى لهفتها وهي تُقبّل أولاد إخوانها وأخواتها. لم يكن الأمر سهلاً عليها، وكان عليه أصعب.

أحواله المادية في تحسن مستمر. شقة جديدة وسيارة جديدة. لطالما تساءلت زوجته عن سر الحياة الرغيدة التي باتوا يعيشونها في السنوات الأخيرة. هو مجرد مدرس رياضيات في مدرسة حكومية.

«الدروس الخصوصية منجم ذهب».. هكذا كان يجيبها كلما تساءلت. لم تكن تجادله طويلاً في هذا الأمر، فجل وقته بعد المدرسة يقضيه في الخارج، متنقلاً بين بيوت التلاميذ. لم يسبق له أن جاء بأحد التلاميذ إلى شقته. كان يذهب بنفسه إلى منازلهم.

كانت تستغرب سفره المتواصل، والذي كان يبرره كل مرة بأن الوزارة قد أرسلته في مهمة لتلقي دورة في أحد المجالات. «سمعة الحكومة العراقية لا تدل على اهتمامها المزعوم هذا بالمدرسين وتحصيلهم العلمي»

كانت تفكر. كانت تشك أحياناً بأنه متزوج من أخرى. لم يصل شكها إلى الدرجة التي تدفعها للتحقيق معه.

اعتاد الخروج مبكراً كل يوم، والعودة بعد المغيب. أحياناً كان يعود فترة الظهيرة لتناول الغداء مع زوجته ووالديه، ثم يخرج إلى دروسه الخصوصية المزعومة.

لم تكن زوجته تعلم، ولا والداه، أنه ترك التدريس بمجرد سقوط بغداد في يد الأمريكان، ولم يعد إليه مجدداً. لقد وجد لنفسه مهنة أخرى تدر عليه أضعاف ما كان يتقاضاه كمدرس أو يحصل عليه من أي دروس خصوصية.

بدأ الأمر قبل سنوات، عندما طرق أحدهم باب شقته القديمة. كان الطارق يوزع منشورات تدعو إلى جمع التبرعات لملجإٍ قريب. دفعه الفضول لزيارة الملجأ. ذهب بمفرده ولم يخبر زوجته. كان الملجأ صغير المساحة ولكنه يعج بأعداد غفيرة. أسِرّة متلاصقة في كل مكان. أطفال من كل الأعمار، ولكن الأغلبية صغار في عامهم الأول أو الثاني. بكاء وصراخ وروائح كريهة.

هاله ما رآه. التقى بمديرة الملجأ وكان على وشك أن يكيل لها أفظع الشتائم. استوقفته. طلبت منه أن يسمع منها أولاً. أخبرته أن الملجأ لا يتلقى أي مساعدات حكومية، وأنه قائم على التبرعات فقط. أعداد الأطفال في الملجأ بازدياد مستمر. توقع أن تخبره أن هؤلاء الأطفال ضحية الحرب ممن قتل والديهم ولم يبقَ لهم من يعولهم. كان بعضهم كذلك، ولكن كثيراً منهم كانوا أطفالاً تخلّت عنهم أمهاتهم لأنهم... أولاد زنى. لم يصدق المدرس الوقور ما سمعه. لم يتوقع أن تكون الحرب قد غيرت مبادئ الناس وعبثت بأخلاقهم إلى هذه الدرجة، فما عاد العراق عراقاً. تذكر قدره بأن يحرم الأطفال. هؤلاء الأطفال الذين يرى الآن العشرات منهم ممن تخلّى عنهم ذووهم.

خرج من الملجإ مسرعاً وقد تشوشت أفكاره، وأحس برغبة شديدة بالانتقام. ولكن الانتقام ممن؟ أمن الأمهات والآباء مجهولي الهوية الذين رموا فلذات أكبادهم؟ أم من الحكومات العميلة المتعاقبة التي أفسدت البلد وأهله؟ أم من الأمريكان الذين احتلوا العراق وأحالوه خراباً؟ لقد أصبح غاضباً من كل شيء. من المجتمع. من الحياة. من عجزه الذي جعله ناقص الرجولة.

سيطرت عليه فكرة شاذة. لقد أصبح مقتنعاً فجأة أن الأطفال يتم

توزيعهم على البشر بشكل خاطئ. قرر في ذلك اليوم أن يسعى لتغيير ذلك.

عاد إلى البيت وهو يهذي وفي حالة يرثى له. لم يخبر زوجته بما عزم على القيام به.

في اليوم التالي، أخذ يبحث في الإنترنت عن الجمعيات الأجنبية المتخصصة في تبني الأطفال. اكتشف بعد أيام من البحث أن هناك سوقاً سوداء كبيرة للمتاجرة بالأطفال. بعض الصفقات كان يتم لأغراض تبدو نبيلة لإنقاذ الأطفال، وتوفير حياة أفضل لهم. بالمقابل، كانت هناك تجارة أضخم لأغراض جنسية شاذة. عزم على الخوض في النوع الأول. ظن في البداية أن بإمكانه الاكتفاء بدور الوسيط الخفي بين الجمعيات والملاجئ. لم يجرِ الأمر بالسلاسة المطلوبة. لم يكن من السهل على تلك الجمعيات القيام بالأمر بشكل رسمي، بسبب القوانين التي تمنع الأجانب من تبني أطفال عراقيين.

كان عليه أن يجد طريقة أخرى.

أخذ يراقب الملجأ. تعرّف على حارسه العجوز «أبي شجاع». أدرك بعد أيام أن الحصول على أطفال من الملجأ أمرٌ غاية في السهولة. اتصل بالجمعيات وأخبرها أنه قادر على توفير أطفال عراقيين بالاتفاق مع الملاجئ، ولكن بشكل غير رسمي. بعض هذه الجمعيات رفضت الفكرة، ورحبت بها أخرى. طلب مبلغاً زهيداً مقابل خدماته. كانت المشكلة الوحيدة تتمثل في كيفية تسليم الأطفال إلى هذه الجمعيات. تفاجأ عندما علم أن كثيراً من هذه الجمعيات تعمل بشكل خفي تحت غطاء من الجيش الأمريكي، وتقوم بالفعل بنقل أطفال عراقيين إلى متبنيهم في الطرف الآخر من العالم. لم يكن مطلوباً منه سوى توصيل الطفل إلى مكان محدد في زمن محدد ثم العودة في وقت لاحق لاستلام مكافأته.

لم يخبر الجمعية أنه ينوي خطف الطفل من الملجأ. ربما كانت تدرك ذلك ولا تبالي.

المرة الأولى لم تكن سهلة. دوماً الخطوة الأولى صعبة. الصفقة تمثلت بتوفير طفل عراقي أسمر البشرة بعمر لا يتجاوز العامين. في تلك الفترة كان يكثر من زيارة الملجأ بحجة التبرع وتفقد أحوال الأطفال. لفت نظره طفل صغير لم يزد عمره عن السنة والنصف. عرف أنه وُجد على باب الملجأ بعد ولادته بأيام. كان الصبي نحيلاً ولكنه نشيط وكثير الحركة. لم يكن يتلقى الرعاية الكافية في هذا المكان. عزم أمره. سيكون إنقاذ هذا الطفل مهمته الأولى.

في مساء أحد الأيام راقب الحارس وهو يترك موقعه للذهاب إلى منزله القريب لتناول العشاء مع عائلته. كان يغيب في العادة نصف ساعة ويترك بوابة الملجأ موصدة، وقد ربطت بسلسلة معدنية ولكن من دون قفل.

بمجرد دخول الحارس منزله، خرج من مخبئه وتوجه نحو البوابة. فك السلسلة ودخل إلى باحة الملجأ. أعاد ربط السلسلة كي لا يجلب منظر البوابة الانتباه. بهدوء دخل مبنى الملجأ. كانت جميع الأنوار مطفأة كما توقع تماماً. في الأيام السابقة، حفظ مكان الطفل المنشود بدقة جعلته قادراً على الوصول إليه، حتى ولو كان معصوب العينين. توجه نحو غرفته. كانت قدماه بالكاد تحمله. كان يومها خائفاً جداً. في تلك اللحظات أدرك أنه يقوم بعملية اختطاف. التخطيط للقيام بشيء ما أمر، وتنفيذه بالواقع أمر مختلف تماماً.

فتح باب الغرفة بحذر. اقترب من سرير الطفل. وجده يغط في نوم عميق. ازداد خوفه وأخذت نفسه تحدثه بالعودة عما عزم عليه. الطفل جميل ووادع. كان قد أقنع ضميره أنه يقوم بفعل صائب. إنها ليست عملية اختطاف بل عملية إنقاذ. ما ذنب هذا الطفل الصغير أن يعيش مهمشاً ذليلاً وقد وُصم بعار والدته. لا بد أن حياته ستكون أفضل عند متبنيه. لقد حُرم الأطفال ويعرف جيداً قيمتهم عند من حُرم مثله.

صرف هذه الأفكار عن ذهنه. عليه أن يحمله الآن. إذا أفاق الطفل وبكى سيفتضح أمره. بعناية شديدة رفعه من مهده. تململ الطفل. قربه سريعاً إلى صدره وأخذ يهدهده. لم يستيقظ. حمله وبخطوات سريعة خرج به من الملجأ وتوجه إلى البوابة. السلسلة في مكانها. لم يعد الحارس بعد. حمل الطفل على ذراعه الأيسر وأخذ يفتح السلسلة بذراعه الآخر. خرج من البوابة ومشى مسرعاً قبل عودة الحارس.

كان قد خطط لهذه الليلة بشكل جيد. أخبر زوجته أنه مسافر لزيارة أحد أصدقائه في مدينة أخرى وسيعود متأخراً. ركب سيارته ووضع الطفل إلى جانبه. ساق بهدوء كي لا يوقظ الطفل أو يوقعه. لم يكن يمتلك مقعداً خاصاً بالأطفال. وصل إلى مخزن شبه مهجور يلفه ظلام دامس. طُلب منه أن يضع الطفل في سرير صغير سيجده داخل المخزن. حمل الطفل بعناية ودخل به. أخذ معه مصباحاً يدوياً ليستخدمه في إنارة المكان. عثر بسهولة على السرير. اقترب منه. كان سريراً نظيفاً. استنتج أن أحدهم قد وضعه هنا قبل فترة وجيزة. مدد الطفل عليه بهدوء وقفل راجعاً. ركب سيارته

وغادر المكان.

بعد ساعة، تلقى رسالة على بريده الإلكتروني تخبره أن مكافأته جاهزة ويستطيع استلامها من نفس المكان. عاد إلى المخزن ودخله. بدلاً من السرير وجد هذه المرة صندوقاً صغيراً. فتحه ليجد بداخله مظروفاً منتفخاً بالدولارات. كان المبلغ أكبر مما طلب.

شعر يومها بسعادة بالغة. لقد أنقذ طفلاً وحصل على مبلغ كبير من المال. عاد إلى منزله، واندس تحت اللحاف، بالقرب من زوجته. نام تلك الليلة مرتاح البال.

كانت تلك البداية فقط. مع الأيام تغيّرت أمور كثيرة. ما عاد الاختطاف من الملاجئ أمراً سهلاً. جمع هو الكثير من المال، ولكن استمراره في هذا العمل كان يقتضي منه تغييراً جذرياً في التكتيك. أفكاره الشاذة تطورت، فبعد أن كان يكتفي بإنقاذ أطفال الملاجئ، أقنع نفسه أن اختطاف الأطفال من ذويهم وإرسالهم إلى دول متقدمة، وعائلات أخرى أكثر ثراءً، هو أيضاً عمل نبيل يشكر عليه. في تلك الأثناء كان يتدرب سراً على الرماية والقنص. وبمرور الأيام نجح في تقمص شخصية غامضة غريبة الأطوار أبعد ما تكون عن شخصيته الحقيقية.

لقد أصبح مدرس الرياضيات يعرف بين زبائنه بـ«القناص».

5

الأم في مصحة نفسية. الأب ما عاد قادراً على إدارة أعماله. الجد والجدة كادا يصابا بالشلل لدى سماعهما للخبر. الخطب جلل. الشمعة المنيرة في القصر قد أطفئت. الزهرة المتفتحة قد ذبلت. الضحكات التي كانت تملأ المكان ما عادت تُسمع. حل محلها بكاءٌ وعويلٌ مكتوم. سوادٌ بات يلف كل شيء. ملابس سوداء. سيارات سوداء. هالات سوداء حول العيون الدامعة. حتى الجدران باتت فجأة وكأن السواد قد علاها. أُعلن الحداد في القصر. أُعلن الحداد في المدرسة. أُعلن الحداد في جميع شركات العائلة. لقد مات الوريث الوحيد. مات الفتى المفعم بالحيوية والنشاط. مات توماس.

حضر الجنازة والعزاء عدد كبير من الأشخاص. امتلأت الكنيسة عن آخرها. شوهد الأب من غير زوجته. لاحظوا جميعاً كم تغيّر. لم يعد ذلك السيد الآمر أو الثري المتعجرف أو المدير المتسلّط. لم يروا سوى أب مفجوع بفقدان ولده. رفض فتح التابوت. لم يكن في حالة تسمح له برؤية وجه ولده الشاحب. لم يقو على النظر إلى جسد ذلك الصبي الذي كان يملأ الدنيا صخباً وقد تحوّل إلى جثة هامدة.

سأل الحضور عن حال كارولين. علموا أنها لم تقوَ على تحمل الخبر، وأصيبت بصدمة عصبية، استدعت نقلها بعيداً عن القصر، لتبقى تحت رعاية خبراء في الطب النفسي، يساعدوها على تجاوز الأزمة.

كان يفترض بفلوريان أن يلقي كلمة معبرة يتحدث فيها عن مناقب ولده الفقيد. غلبته دموعه وهو يبحث عن الكلمات المناسبة التي يصف فيها ولده. حياته كانت قصيرة، فعن أي أحداث يتكلّم؟ هل يخبرهم عن اللحظات الأولى لولادته؟ أو يحدثهم عن فرحته وفرحة زوجته عندما خطى توماس خطواته الأولى؟ هل يصف لهم شخصيته المميزة التي سبقت سنه؟ ولكن ما الفائدة من كل هذا؟ سيهزون رؤوسهم؟ ستدمع عيون بعضهم؟ ثم ماذا؟ سيذهب كل في طريقه ويبقى هو وحيداً في قصره المليء بالخدم والحشم.

عرض المعزون خدماتهم. كانوا جميعاً يتمنون تقديم المساعدة. ولكن أي مساعدة تلك التي قد يحتاجها شخص مثله. لم يكن بحاجة إلى أموال. لم يكن بحاجة إلى نفوذ. لم يكن بحاجة إلى خدم أو حراس أو معاونين. كانت الخدمة الوحيدة التي يحتاجها مستحيلة. فلا أحد يستطيع إرجاع الزمن إلى الوراء، ولا أحد يستطيع إحياء الموتى.

توقف فجأة عن الكلام. مزّق الخطاب الذي أعده له أحد معاونيه ليقرأه على الملأ. نظر في وجه الحضور. «أريد استعادة توماس» ضرب بقبضته سطح المنصة. ترقرقت الدموع في عينيه. لم يعد قادراً على تمثيل دور الأب المتماسك.

تسمرت عيونهم ولم يقوَ أحد على الرد.

«أعيدوا لي توماس وخذوا ما شئتم من أموالي».. صاح بهم وقد أوشك على الانهيار.

قابلوه بمزيج من نظرات الشفقة وعبارات المواساة. «المسكين، كزوجته، سيفقد عقله» تمتم بعضهم.

نهض أكبرهم وأحاط به في محاولة لتهدئته.

في المؤخرة، وقف شخص غريب حضر المراسم من أولها. كان الوحيد الذي أخذ طلب فلوريان على محمل الجد. قال في نفسه: «تريد توماس؟ سأعيده إليك».

6

أنا متعبة. نمت فترة طويلة. أشعر بآلام في رسغيّ وكاحليّ. أحاول أن أفتح عيني ولكني أواجه صعوبة في ذلك. جفنيّ باتا ثقيلين. سأحاول

مجدداً.

فتحتهما.

تحاول عيناي التأقلم مع إضاءة الغرفة.

أرى بوضوح الآن.

أين أنا؟

ما هذه الغرفة؟

سأنهض من السرير.

لماذا لا أستطيع النهوض؟

يداي مقيدتان.

قدماي مقيدتان.

ما كل هذه الأسلاك؟

لست في منزلي. أين أنا؟ من قيدني؟

ليس سجناً. إنها غرفة في مستشفى.

من الذي جاء بي إلى هذه المستشفى ولماذا؟

أين كنت قبل أن آتي إلى هنا؟

أحاول التذكر.

كنت في القصر أنتظر السائق. تأخر. اتصلت به. هاتفه مغلق.

مللت الانتظار. هممت لأطلب سيارة أجرة.

وصل زوجي في غير موعده.

وجهه مصفر.

تحدث إليّ. لا أذكر موضوع الحديث.

غضبت جداً. لا أذكر السبب.

صرخت في وجهه. كان بقربي آنية خزفية كبيرة الحجم. ركلتها. تهشمت.

جن جنوني. ولكن لماذا؟ لا أذكر.

أذكر أني أخبرته أنني لا أصدقه. أذكر أني اتهمته بأنه مشترك مع والديه في مؤامرة ضدي.

ربما أنا هنا لأنه قرر عقابي. ولكن يا له من عقاب. يتركني وحيدة مقيدة في غرفة في مستشفى. لن أسامحه أبداً. سأشكوه إلى توماس. هو الوحيد الذي سينصفني.

توماس! أين توماس؟ لماذا أشعر بألم في أحشائي كلما ذكرت اسمه؟ يا ترى ماذا أخبروه؟ جنت أمك فأودعناها المستشفى؟! باتت تشكل خطراً على

العائلة؟ لا داعي لزيارتها. سنأتي بها حالما تتماثل للشفاء؟

يا لهم من أوغاد قساة القلب. يتآمرون ضدي لسلبي ولدي الوحيد. لا تعجبهم طريقتي في تربيته. تنقصه العجرفة.

أحدهم يطرق الباب.

«ادخل أيها الزائر».. قلت بصوت مسموع.

فُتح الباب. ولج منه شخص قصير القامة يرتدي ملابس المستشفى. وجهه مغطى بكمامة طبية.

اقترب مني. نزع الكمامة.

«كيف أصبحت يا أمي؟».

يا إلهي. إنه ولدي. إنه حقاً توماس.

اقترب يا توماس. أرأيت ماذا فعل بي والدك وجديك؟ يودون حرماني منك. إياك أن تسمح لهم.

«لقد جئت لأنقذك».

حرر قيودي ودعنا نهرب من هنا.

اقترب مني توماس أكثر. انحنى ليفك الحزام الذي ثُبت به رسغي الأيمن. رأيته بشكل أفضل.

انتفضت خوفاً عليه. توماس حبيبي، ما هذه الكدمة في مؤخرة رأسك؟ ماذا حدث لك؟ هل تعرضت للضرب؟

رفع توماس رأسه ونظر إلي مبتسماً: «أنا بخير يا أمي. لا تقلقي».

فزعت عندما رأيت جبينه الأيمن ينزف. حبيبي، جبينك ينزف.

«لا تقلقي يا أمي».. ابتسم ابتسامة واسعة فبانت أسنانه.

توماس، أسنانك الأمامية مكسورة. ماذا حدث لك؟ أنا خائفة عليك.

حرر يدي اليمنى. حركتها. اقتربت لألمس بأناملي وجهه. بشرتك باردة يا ولدي. شفتاك زرقاوان.

«كارولين. كارولين» أحدهم يناديني. الصوت مألوف.

«افتحي عينيك يا حبيبتي. لقد جئتُ لزيارتك».

عيناي مفتوحتان. من هذا؟ وماذا يريد؟

«افتحي عينيك من أجلي. تحدثي إليّ».

أغلقت عيني وفتحتهما.

«نعم هكذا. لقد اشتقت إليكِ».. انحنى وقبل وجنتي. إنه فلوريان زوجي.

تَلَفت. لم أعد أرى توماس.

عبست. «أين ذهبت بولدي؟ هل خطفته مجدداً؟».

نظر إليّ بشفقة غير مبررة. «ستكونين بخير، لا تقلقي».

«أنا بخير. عم تتحدث؟ هذا لا يهم. أين ذهبت بتوماس؟ لقد كان هنا منذ لحظات قبل ظهورك. أعده فوراً.

هز رأسه: «ستكونين بخير».

لمحت عينيه وقد ذبلتا. بدتا وكأنهما تستعدان لسكب الدموع.

انحنى وطبع قبلة على جبيني.

«سأذهب الآن لأعود إليكِ في المساء. سأتركك في أيدٍ أمينة. لا تخشي شيئاً. سنتجاوز معاً هذه المحنة».

خرج من الغرفة من دون أن يرد على سؤالي أو يعيد إليّ توماس.

لا بد أن توماس مختبئ في مكان ما. سأغلق عيني وأنتظره ريثما يأتي ليفك ما تبقى من قيودي، ونهرب سوياً بعيداً عن هذه العائلة.

7

مرت فترة قبل أن أصبح فلوريان قادراً على مزاولة عمله. ترك الإدارة مؤقتاً لنائبه، بينما تفرغ هو لرعاية زوجته. حالتها كانت تسوء يوماً بعد آخر. بعد ضغط شديد من والديه، قرر العودة إلى العمل. كان في الحقيقة بحاجة إلى العمل. ليست حاجةً ماديةً، ولكن أي شيء يبعده عن جو الحزن والألم.

ما إن وصل إلى مكتبه، حتى استدعى سكرتيرته التي سردت عليه ملخص ما كان يحدث في غيابه. سلّمته تقريراً مكتوباً عن جميع العمليات التي قام بها نائبه. اطمئن عندما عرف أن الشركة كانت في أيدٍ أمينة. بعد ساعات من الاجتماع المتواصل، وقبل أن تغادر السكرتيرة المكتب، تذكرت أمراً نسيت أن تخبره به. استأذنت لتحضر شيئاً ما. عادت بعد لحظات وهي تحمل بطاقة تعريفية سلمتها له.

«نسيت أن أخبرك، سيدي، أن صاحب هذه البطاقة كان يأتي بشكل يومي ويطلب ملاقاتك. كنت أخبره أنك في إجازة، ولا نعرف متى تعود، لكن ذلك لم يمنعه من تكرار المحاولة».. توقفت برهة ثم أردفت: «هو موجود في مكتبي الآن. هل تود أن أتخلّص منه؟».

نظر في البطاقة «سليم ألماظ. لم أسمع بهذا الاسم من قبل. تخلّصي منه».

هزت رأسها وهمت بالخروج من المكتب.

ناداها: «أدخليه. لقد أصابني إلحاحه بالفضول».

عندما رآه، شعر أنها لم تكن المرة الأولى التي يلتقي بها هذا الشخص. كان فلوريان من أولئك الأشخاص الذين يحفظون الملامح.

رجلٌ في أواخر العقد الرابع. حسن الهندام. شعره المبلل أسود اللون، وقد سرح إلى الخلف. بطنه بارز. ملامحه شرق أوسطية. عيناه كثيرتا الحركة. لم تذكر البطاقة مهنته، ولم يتمكن فلوريان من تخمينها.

«سليم ألماظ».. عرّف عن نفسه بلكنة ألمانية سليمة. استنتج فلوريان أن هذا الشخص مولود في ألمانيا على الأغلب. مد يده وصافحه.

«في البداية أعتذر عن قدومي لمقابلتك من غير موعد مسبق. لا أظنك تذكرني ولكني حضرت جنازة ولدكم توماس».. توقف لحظة. نظر إلى الأرض: «أعتذر لتذكيرك بالحادث المؤسف».

هز فلوريان رأسه: «لا عليك».. لقد تذكر أين رآه من قبل. بالفعل، كان قد لمحه أثناء الجنازة.

مرت فترة صمت بدا فيها الزائر وكأنه يبحث عن مدخل مناسب للموضوع الذي جاء من أجله.

«سيد سليم. كيف لي أن أساعدك؟».

بصوت خافت، أجاب: «في الحقيقة، جئت لأساعدك، وأقدم خدماتي» كان لا يزال ينظر إلى الأرض.

قضب فلوريان جبينه: «لم أفهم. ماذا تقصد بأنك جئت لتساعدني؟ ومن أخبرك أصلاً أني بحاجة إلى مساعدة؟!».

رفع رأسه: «لقد قلت: أعيدوا لي توماس. في الجنازة صحت بنا وقلت: أعيدوا لي توماس وخذوا ما شئتم من أموالي».. راقب الدهشة التي كست وجه مضيفه. أردف: «لقد جئت لأعيد لك توماس، لكني لن آخذ إلا القليل من أموالك» ابتسم ابتسامة غريبة.

احمر وجه فلوريان وانفجر غاضباً: «ماذا؟ هل جئت لتهزأ بي في مكتبي. هل أنت مدرك لعواقب فعلتك» رفع سماعة الهاتف وأوشك على استدعاء رجال الأمن.

«لا تتعجل الحكم عليّ. دعني أشرح لك أولاً» حاول سليم تهدئته.

أعاد السماعة. «أرجو أن تدخل إلى صلب الموضوع، وتتحدث بشكل واضح وجلي عن سبب زيارتك».

«سأفعل. في البداية أود أن أؤكد لك أن الهدف من زيارتي هو تخفيف الألم الذي تعانيان منه أنت وزوجتك. لقد سمحت لنفسي كجزء من عملي في الحقيقة أن أتعرف على الأثر الكبير الذي تركه فقدان

ولدكما. لن أدخل في مزيد من التفاصيل عما عرفته، ولكن المهم هو ما جئت لأخبرك به».

كان الفضول هو السبب الوحيد الذي سمح لفلوريان بكظم غيظه. فمن أين لهذا الشخص كل هذه الشجاعة ليجلس أمامه ويخبره أنه قام بجمع معلومات عنه وعن زوجته؟

«جئت لأعرض عليك أن آتيك بصبي في نفس عمر توماس وأتعهد أن يكون شبيهاً به قدر الإمكان».. نظر إلى فلوريان، وقبل أن يسمح له بالتعبير عن رأيه في هذا العرض الغريب، أضاف: «أنا أعمل في مؤسسة خاصة بالتبني. لدينا قاعدة بيانات كبيرة بالأطفال المتوفرين للتبني في جميع أنحاء العالم. قد تستغرب عندما أخبرك أن عددهم كبير لدرجة تسمح بالحصول على أطفال بمواصفات محددة مثل العمر، والطول، ولون الشعر، وملامح الوجه، والجنسية، وغيرها من الأمور. لقد قمنا بخدمة الكثير من العائلات بتوفير الأطفال المناسبين لهم، وكان لذلك أثرٌ كبير في نجاح عملية التبني وتأقلم الطفل مع عائلته الجديدة».

أطرق فلوريان. لم تخطر بباله هذه الفكرة مطلقاً من قبل. هو يعرف أن زوجته لن تتمكن من الحمل مجدداً. ربما يكون التبني حلاً معقولاً، ولكنه متأكد أن كارولين سيجن جنونها، اذا عرفت أنه ينوي أن يأتي بصبي ليحل محل توماس.

قرأ سليم أفكاره: «ربما تتقبل السيدة فلوريان الفكرة إذا جئنا لها بصبي شديد الشبه بتوماس. أعطني الضوء الأخضر لأبدأ بالبحث، وامنحني بعض الوقت. لست مضطراً لدفع أي شيء الآن».

فكر فلوريان ملياً بالأمر. لن يخسر شيئاً. لعل هذا الأمر يكون سبباً في انتشال كارولين من حالتها التي تزداد سوءاً، يوماً بعد آخر. «حسناً. لا أجد مانعاً في أن تبحث لي عن صبي يتيم شبيه بتوماس، لكني لا أعدك بأننا سنتم عملية التبني».

«مفهوم. شكراً لك. هذا يكفيني الآن».

⊠⊠⊠⊠⊠⊠

1

«ماما. رأسي تؤلمني. الدنيا تدور».

«ليس الآن. لم نصل بعد. لا تستيقظ. عد للنوم».. قال بصوت خافت، وكأنه يحدث نفسه. ربت على كتف الصبي بخفة وهدوء. «عد للنوم، بالله عليك».

هدأ الصبي، وعاد ليستغرق في النوم.

مرت ساعة منذ انطلاقهما. لم يكن الخروج من المدينة سهلاً، فالجنود في كل مكان.

دخل إحدى البلدات، وتوجه إلى مركزها. اقترب من الشارع المؤدي إلى المكان المتعارف عليه.

ولكن ما هذا؟

«لم تكن هنا نقطة تفتيش من قبل» لعن حظه. عليه أن يجد طريقاً آخر غير مراقب. لن يكون من السهل إقناع الجنود أن هذا الصبي ولده، خاصة أنه استيقظ. أو أيقظوه. عاد أدراجه وأخذ طريقاً فرعياً. سيحاول الالتفاف.

دار دورة كبيرة.

ظن في البداية أن الطريق الجديد مثالي، وأنه سيصل بهدوء من دون أن يشعر أحد. خاب ظنه عندما رأى علماً بثلاثة خطوط، أخضر وأبيض وأسود، مع ثلاثة نجوم حمراء. إنها نقطة تفتيش خاصة بالجيش الحر. التعامل مع هؤلاء أصعب؛ فهم لا يقبلون الرشوة. عليه الالتفاف فوراً، والابتعاد عن المكان.

يبدو أن الأوان قد فات، فقد لمحه أحد الثوار، وهو يحاول الهرب. شك في أمره فأطلق النار نحوه مهدداً، ومشيراً له بالتوقف. لم تصب السيارة، ولم يستجب هو للتحذير. بدلاً من ذلك ضغط على دواسة البنزين.

تكرر إطلاق النار، ولكن هذه المرة من مصدر مختلف.

التفت ناحية الصوت. إنه جيب عسكري يرفع العلم السوري، ويطلق النار باتجاه نقطة تفتيش الثوار.

المزيد من الرصاص بات ينهال من الطرفين.

سمع الرصاصة وهي تخترق جسد السيارة البالية. أصابت الباب الخلفي من جهة السائق. زاد من ضغطه على دواسة البنزين. عليه الهروب بسرعة قبل أن يصاب هو أو الصبي بجانبه. لم تستجب السيارة بالسرعة الكافية.

رصاصة أخرى أصابت أحد المصابيح الخلفية.

بدأ بالابتعاد. نظر إلى الخلف. حمد الله أن الجيب لم يلحقه، وانشغل الجنود بداخله بتبادل إطلاق النار مع الثوار.

هدأت نفسه، وعاد إليه الاتزان عندما تأكد أنه قد أصبح بعيداً عن مصدر الخطر.

«عمو. إنتَ مين؟».

نظر ناحية الصبي فوجده متكوماً على نفسه وقد ألصق ظهره بباب السيارة. نظرات من الخوف والقلق والحيرة قد أطلت من عينيه.

فكر سريعاً: «أنت لا تعرفني. أنا مجرد رجل طيب أنقذك من الموت».. مد يده نحوه، فانكمش الصبي. «لا تقلق، لن أوذيك».

«أين أمي؟».

«ماذا عساني أقول له؟ لم أعمل حساباً لمثل هذا الموقف. كان يفترض أن أتركه في المستودع وأغادر. لقد تعقد الأمر كثيراً». فكّر «القناص» «حصل إطلاق نار عند المخبز، وسقط الكثير من الناس. اقتربت منك وعرفت أنك لا تزال على قيد الحياة. حملتك وأخذتك بسيارتي بعيداً عن المكان. لا أعرف ماذا حل بمن كان معك، ولكن المخبز كان يعج بالأجساد الملقاة على الأرض». عندما أنهى جملته، أدرك أن وقعها كان مرعباً، فقد انكمش الصبي أكثر وأخذ يبكي وقد ارتعش جسده كله من شدة الخوف. لم يعرف ما عليه فعله. لم تكن لديه خبرة في التعامل مع الأطفال. لم يكن مستعداً للتورط بهذا الشكل. أخرج هاتفه المحمول من جيب قميصه وأجرى اتصالاً.

«مرحباً. لم أستطع إيصال الأمانة. المكان ملغم بالجنود والثوار».

«نعم. نحن على علم بذلك، فقد حاولنا الوصول إلى المكان، ولم نستطع».

«ما العمل الآن؟».

«أبقِ الصبي معك اليوم، وسنعلّمك بموقع آخر للتسليم غداً».

«ماذا؟ أبقيه معي؟ أنت تعرف أن هذا مستحيل. لم يكن هذا اتفاقنا».

«لقد تغيّرت الظروف. عليك التأقلم مع المستجدات. سنضاعف المبلغ».

«ولكن...».

«لا تجادل. انتظر اتصالنا غداً...» انتهت المكالمة.

2

الغرفة ضيقة جداً. جدرانها أطبقت على أنفاسي. الظلمة أضحت فيها حالكة. لم تعد ترحب بأشعة الصباح التي تطرق نافذتها.

لم أنم البارحة. تقلّبت على السرير مراراً. رأيته نائماً بجانبي عشرات المرات. في كل مرة، كنت أهم لآخذه بين أحضاني، كان طيفه يختفي.

لكني أسمعه بوضوح. يناديني «أمي». «لمَ تركتيني وحيداً يا أمي؟».

أعصابي مرهقة. جسدي منهك. قلبي منفطر. إنها الليلة الثانية التي

أقضيها بعيداً عنه. لم أترك شبراً في هذا الحي، وما جاوره لم أبحث فيه عنه. سألت الكبار والصغار. النساء والرجال. عرضت عليهم صورته. لم يرهُ أحد. تفقدت المستشفيات. زرت أقسام الشرطة وتوسلّت لهم أن يدلوني على ابني. لا يعرفه أحد. لم يسمع به أحد.

أحد الضباط رق قلبه ورأف بحالي. أراني لوحاً كبيراً معلّقاً على حائط. عشرات الصور تزاحمت لتجد لها مكاناً على اللوح. أطفال، صبية، فتيات. صور جميلة التقطت بعناية. أعلى اللوح كتبت كلمة واحدة، لخصت قصص أصحاب الصور. كلمة واحدة ردت على أسئلتي، وغرزت سهم الحقيقة في قلبي.

«مفقودون».

عُقد لساني. هل تحوّل ولدي إلى صورة على حائط مشؤوم؟ لا، وألف لا. ليس ولدي. سأجده. لا بد أن أجده. لن أتقبّل أن أصف فلذة كبدي بهذا الوصف المشين.

أين أنت يا غسان؟ أين ذهبت وكيف اختفيت؟ ساعدني. أخبرني كيف أجدك وأين. أنت حي، أنا أعرف. أنت بخير، أنا واثقة.

طرق على باب الغرفة. حماتي؟ لست قادرة على تحمل كلماتها الجارحة، واتهاماتها المتواصلة. لقد تعبت.

«لميس. هذا أنا أمجد. افتحي الباب من فضلك».

أمجد ساعدني كثيراً. وقف إلى جانبي ودافع عني. بحث معي في كل مكان. لولاه لأصبتُ بالجنون.

فتحت الباب.

«صباح الخير. كيف كانت ليلتك؟ هل نمت ولو قليلاً؟» بش في وجهي. عيناه أصبحتا غائرتين. لم يذق طعم النوم.

«الحمد لله».. أومأت برأسي ورمشت بعيني. «تفضل».

دخل حاملاً صينية عليها أصناف من الطعام.

«لست جائعة».

لم يرد. وضع الصينية فوق المكتب.

«لميس. أنتِ لم تأكلي شيئاً منذ الحادث. ستفقدين قوتكِ».

«شكراً أمجد، أنا بحق غير قادرة على تناول أي شيء».

عبس في وجهي: «هل فقدت الأمل؟ كيف ستتابعين البحث عن غسان، وأنت ترفضين تناول الطعام؟! ما زال لدينا الكثير لنفعله. سنطرق الأبواب نسأل عنه. سنزور مدرسته ونتحدث إلى رفاقه. سنطبع صوره،

ونعلّقها على الأعمدة. سنجده. لكن عليك أن تحافظي على صحتك لتساعديني في كل ذلك».

أدركت أنه على حق. كلامه حرك الأمل في نفسي.

اقتربت من الصينية، وبدأت بتناول الطعام على مضض. لم يتركني بل شاركني.

أمجد شابٌ مهذبٌ يحب أخاه كثيراً.

أخوه. أيهم. توقفت عن مضغ الطعام. أدركت أنني منذ الحادث لم أفكر بأيهم. لأول مرة أفطن أني فقدت زوجي وابني.

لا. لم أفقدهما.

«لميس. ما بالك توقفت عن تناول الطعام فجأة؟».

«شبعت. لقد شبعت يا أيهم. أقصد أمجد. عذراً».

«سيعود أيهم وسنجد غسان. ثقي بالله».

«ونعم بالله».. أومأت برأسي. تذكرت وصية أمي: «اشك أمرك لله».. نعم سأشكو أمري إليه.

«من أين نبدأ جولتنا هذا اليوم؟».. سألته.

«نستطيع الذهاب أولاً إلى...» رن جرس الباب.

رن مرة ثانية وثالثة.

نهض أمجد ليجيب الطارق. تبعته، وكلي أمل ورجاء أن يكون غسان هو من يقف خلف الباب.

نظر أمجد من العين السحرية. «لا أرى شيئاً» أخبرني.

«من الطارق؟» سأل بصوت عالٍ.

لم يجب الطارق.

«افتح بالله عليك» طلبت منه.

أدار أمجد المفتاح.

نفد صبري.

فتحت الباب مشرعاً.

شهقت.

إنه هو. تغيّر شكله كثيراً. بدى متعباً. جريحاً. منكسراً.

لقد عاد.

ارتميت بين ذراعيه. لم أقوَ على النطق.

قَبّل رأسي ووجنتي.

بكيت. فرحاً وحزناً.

دخلنا إلى البيت. حاله يرثى له. وجهه شاحب، ثيابه ممزقة. قدمه ملفوفة بخرقة بالية. يا إلهي. ماذا حدث له؟ يبدو أنه عانى الأمرين ليصل إلينا.

سأل، وقبل أن يسلّم على أخيه: «غسان. غسان. لقد عدت. تعال بسرعة. اشتقت إليك».

لم يجب غسان.

«أمجد. أين غسان؟».

لم يجب أمجد.

«لميس. أين غسان؟ هل هو نائم؟».

لم أجب.

3

«ماذا سأقول لمرام عندما تسألني: «من هذا الصبي؟ ولماذا أحضرته إلى المنزل؟» يفترض أني مسافر في مهمة خاصة بالعمل. إذاً من أين جئت بالولد؟

«الولد ابن أحد أصدقائي وقد جاء لزيارتنا بضعة أيام».. لا، هذه الكذبة لن تنفع. ستسأل: «لم جاء بمفرده؟»، كما أن الصبي سيخبرها أن هذا الكلام غير صحيح.

«هذا ولد تائه وجدته بالقرب من المنزل».. يا لها من فكرة عبقرية. إنه صبي، وليس كلباً أو قطة. الصبي قادر على الكلام. سينفي صحة هذا الإدعاء أيضاً.

«عليّ التفكير في قصة محبوكة بشكل أفضل».

«عمو. أريد الذهاب إلى المنزل» كفكف دموعه.

لقد نسي «القناص» أن الصبي بجانبه.

«لقد تأخر الوقت وحل الظلام. سنقضي هذه الليلة في منزلي وأعدك أن نبحث عن منزلك وأمك غداً صباحاً. ما رأيك؟» حاول جاهداً الابتسام وإظهار ملامح الرجل الطيب.

«نستطيع الاتصال بعمي أمجد. لديّ رقم هاتفه المحمول. أنا متأكد أنه سيأتي بسرعة ليأخذني» بدا الصبي متحمساً جداً للفكرة.

«هذا ما كان ينقصني. نتصل بعمه. ألا تستطيع أن تخرس، ولا تفكر بأي حلول، وتدع الأمر لي لأسلّمك غداً. اللعنة على هذه العملية. كلها مشكلات وصعوبات من يومها الأول. بماذا أرد عليه الآن؟» فكر بينه وبين نفسه.

«إنها فكرة رائعة يا... ما اسمك يا بني؟».

«غسان. اسمي غسان أيهم».

«عاشت الأسامي يا غسان. أعطني رقم هاتف عمك وسأحاول الاتصال به فوراً».

تهللت أسارير الصبي وأخذ يلقن عمو رقم الهاتف.

«حسناً دعنا نحاول الآن. سأحوّل الهاتف إلى السماعة الخارجية لنتمكن سوياً من الحديث إلى عمك».

«الهاتف المطلوب مغلق أو خارج نطاق التغطية. يرجى الاتصال فيما بعد» صدح صوت من الهاتف.

«أمرٌ مؤسفٌ يا غسان. يبدو أن الخطوط الهاتفية تعاني من مشكلة ما بسبب الأوضاع» رسم على وجهه ملامح خيبة الأمل.

«دعنا نحاول مرة أخرى».. طلب غسان، وكان لديه بصيص أمل أن ينجح في التحدث إلى عمه.

أعاد عمو طلب الرقم، ولكن النتيجة لم تتغيّر. كيف للنتيجة أن تتغيّر وقد تعمد طلب رقم هاتف آخر كان واثقاً أنه مغلق؟

«دعنا نذهب إلى منزلي الليلة، وسنحاول الاتصال بعمك غداً صباحاً».

أومأ غسان موافقاً، ولكن على مضض.

«حسناً تخلصت مؤقتاً من إزعاج الصبي، ولكني ما زلت بحاجة إلى قصة أرويها لمرام».. حاول عصر تفكيره بحثاً عن حجة مناسبة. بسبب الارهاق، وربما التوتر، لم يفطن إلا بعد فترة طويلة أن بإمكانه استخدام نفس القصة التي رواها للصبي. أدرك أن بإمكانه إخبار زوجته، أنه وفي طريق عودته إلى المنزل، توقف لشراء بعض الخبز، وهناك حدث إطلاق ناري أصيب على أثره كثير من الناس، وأنه رأى هذا الصبي، وخشي أن يصاب بمكروه، فقرر إنقاذه وأخذه معه إلى المنزل، ثم البحث عن ذويه في اليوم التالي وتسليمه لهم. بدت الفكرة قابلة للتصديق، ولكن بقي تفصيل صغير عليه الاهتمام به.

لا ينبغي للصبي أن يعرف اسمه الحقيقي. عليه أن يقنع زوجته أنهما بحاجة إلى اختراع اسمين وهميين يخاطبان بعضهما بهما أمام الصبي، وذلك كي لا يقعا في أي مشكلة، عند إعادة الصبي لذويه. فالأحوال غير مستقرة بالبلد، ولن يكون من الحكمة تعريض أنفسهما للخطر، وهما لا يقومان إلا بعمل خير.

شعر «القناص» بالراحة، فقد أحكم حبك قصته هذه المرة، ولن يتبقى

عليه إلا تمضية هذه الليلة على خير. سيحرص في صباح اليوم التالي على تسليم الصبي إلى الزبون، قبل التورط في الأمر بشكل أكبر.

ضغط على دواسة البنزين. سيصل سريعاً إلى شقة مرام، زوجته السورية، التي ارتبط بها قبل عام في السر، من دون أن تعلّم زوجته الأولى العراقية.

4

الأيام تمضي ولا أثر لولدي. بحثت عنه نهاراً وسألت عنه ليلاً. لم أدع صغيراً ولا كبيراً إلا وعرضت عليه صورته، ولكن دون جدوى. لم يره أحد، ولم يسمع به. حتى رواد المخبز، شككوا في رؤيتهم له في الطابور معي يوم الحادث. ماذا يعني كل ذلك؟ هل فقدت ولدي؟ هل استيقظ بعد الحادث وهام على وجهه وأضاع الطريق إلى البيت؟ لكنه صبي فطن، سيعرف كيف يجدنا. هل اختُطف؟ ولكن لماذا لم يطالب خاطفوه حتى الآن بفدية كما هو متعارف عليه؟ ما دام لم يته، ولم يخطف، ولم يقتل، فأين هو؟ هل انشقت الأرض وابتلعته؟ لقد تعبت من تزاحم هذه الأسئلة في عقلي ليل نهار. تعبت من كثرة ما تخيلته يناديني ويعاتبني على تأخري في إيجاده. تعبت من الكوابيس المرعبة التي باتت ترافقني كل ما أغمضت عيني. أين أنت يا أيهم لتقف معي وتؤازرني في محنتنا هذه؟

ولكن، ألم يعد أيهم؟!

بلى قد عاد. ولكنه أيهم آخر، غير ذلك الذي تركته في اللاذقية.

أيهم هذا نادراً ما يتحدث.

أيهم هذا لا يعمل.

أيهم هذا يقضي جل وقته في غرفته وحيداً.

أيهم هذا يصرخ في الليل طالباً من الأشباح أن تدعه وشأنه.

جاءني منهاراً، وغدا الآن محطماً، بفقدان ولدنا الوحيد. حاولت مراراً أن أعرف منه ما تعرض له من أهوال في طريقه إلينا. كان يتهرّب في كل مرة، ويرفض الحديث. استنتجت أنه ربما تعرض للاعتقال والتعذيب. جسده كان مشبعاً بالكدمات التي حاول جاهداً إخفاءها. أكثر ما هالني كان جفوله كلما اقتربت منه أو مسست جسده. في السابق، كان يحب أن ألعب بشعر رأسه، وأن أمرر يدي على ظهره وصدره. أما الآن، فقد أصبحت أناملي وكأنها تكهربه. لمساتي الرقيقة أصبحت ترعبه. ما عاد قادراً على أخذي بالأحضان. لم يقبلني منذ أن عاد ولا مرة واحدة. لم يعد أيهم الذي أعرفه، والذي أحبني وأحببته. إنه شخص آخر مهزوم نفسياً. لقد

تحوّل إلى عالة بدل أن يكون عوناً لي في هذه الأيام العصيبة.

ليتني أستطيع انتشاله مما هو فيه.

عليّ استعادة ولدي أولاً.

تقلّبت في سريري وقد أرهقني التفكير. فتحت عيني وأخذت أتأمل وجه زوجي. بحثت في ملامحه عن أيهم. أين تلك العيون المتقدة؟ أين تلك النظرات الآسرة؟ أين اختفت أمارات القوة والشجاعة؟ لماذا أراه مستسلماً؟ ما كان زوجي هكذا. ماذا فعلوا بك يا حبيبي؟ كيف سلبوك روحك الأبية؟ مددت يدي نحوه. مررت أناملي على تضاريس وجهه. تحسست شعر ذقنه الذي لم يحلقه منذ أن عاد. اقتربت منه وهمست في أذنه: «أنا بحاجة إليك يا أيهم. عد إليّ». إنه مستغرق في نومه. كم تمنيت اقتحام أحلامه لأفهمه أكثر. لأنتزعه مما هو فيه.

جفلت عندما سمعته يتحدث. إنه لا يخاطبني. ما يزال حبيس أحلامه.

«دعوني وشأني؟».

«ليس لدي ما أضيفه. لا أعرف هؤلاء الأشخاص، ولن أشهد ضدهم في المحكمة».

«توقفوا عن مناداتي بهذا الاسم».

«سأنتقم منكم جميعاً».

«لا تقتربوا مني. دعوا ملابسي».

«توقفوا أيها الكلاب».

«حبيبي أنت تتصبب عرقاً. لا تخف. هذا مجرد كابوس لعين».. حاولت تهدئته.

أخذ جسد أيهم ينتفض وتوقف عن الكلام. بعد لحظات، ظهرت على وجهه علامات الاستسلام، ولكن مهلاً. يداه ترويان قصة أخرى. وكأنهما لشخص آخر. تكورت أصابعه. غرزت أظافره عميقاً في راحة يديه. برزت عروق ساعديه. تحسستها بأناملي. إنها قبضة من يهم بتوجيه اللكمات. يبدو أن خلف هذا القناع المسالم غضبٌ عارمٌ على وشك الانفجار.

أنا بحاجة لمثل هذا الانفجار. أود استعادة زوجي. أريد أن أحتمي به. أن أضع يدي في يده. أن أستعين به لاسترجاع غسان.

فتح عينيه.

كنت لا أزال أحدق به. سحبت أصابعي بعيداً عن يده.

«ماذا تفعلين؟».. سألني بدهشة.

«أتأملك؟» ابتسمت نصف ابتسامة.

«ماذا؟».. قطب جبينه ونظر في ساعته. «لماذا أنت مستيقظة في هذا الوقت من الليل؟».

«أنا مستيقظة لأنك نائم. متى ستستيقظ يا أيهم؟» تنهدت.

«ماذا تقصدين؟ لم أفهم» هربت عيناه.

«أعد لي أيهم؟» قلت بحزم.

«تقصدين غسان؟».

«أعد لي أيهم أولاً لنستعيد غسان سوياً». لاحقت عينيه.

«الوقت غير مناسب لحل الألغاز» أغمض عينيه وهم بإعطائي ظهره.

أمسكت بكتفه «انتظر. يجب أن نتحدث».

«نتحدث؟! عم سنتحدث في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ في الصباح تحدثي كما تشائين» تلحف تمهيداً للعودة إلى النوم، وكأن سؤاله لا ينتظر إجابة.

«أيهم. ماذا حل بك؟ ما الذي غيّرك؟ لم تعد أيهم الذي أعرفه».

«لم أتغيّر. أنت تبالغين. دعينا ننام الآن».

مددت يدي من ورائه واحتضنته، فانسل بعيداً عني نحو طرف السرير.

«أرأيت؟ أصبحت لا تطيق أن أمسّك. أنت لا تقوى حتى على النظر في عيني. أما عدت تحبني؟».

لم يجب.

«أيهم أنا أسألك. هل انطفأت شعلة حبنا؟».

«أحبك، ولكن الوقت ليس مناسباً للتفكير بالحب. ولدنا الوحيد مفقود كما تعلمين».

لم يعجبني تلميحه.

«ماذا فعلت للبحث عنه؟ أنت لا تخرج من الغرفة ليلاً أو نهاراً. حتى الطعام تطلب إحضاره لك في الغرفة». علت نبرة صوتي قليلاً.

«ألم تبحثي عنه في كل مكان؟ ما الفائدة من تكرار البحث؟».

«ماذا تعني؟ هل نستسلم؟ نفترض أنه ميت ونتوقف عن البحث؟ هل أصبحت مستعداً للتخلي عن غسان بهذه السهولة؟ غسان ولدنا الوحيد. ألم تشتق لضمه إلى صدرك؟ ألا تفتقد مناداته لك «بابا حبيبي»؟ هل أصبحت مستعداً للذهاب كل جمعة لأداء الصلاة، من دون أن يمسك يدك، وقد لبس ثوبه الأبيض، وطاقيته الصغيرة المخرمة. تريد أن تنساه؟ أم أنك قد نسيته وانتهى الأمر؟» توقفت الكلمات في حلقي. نطقت عيناي. تبللت

وجنتاي. تحركت يداي. انهالت عليه باللكمات.

انتفض. غطى وجهه بيديه. سالت دموعه.

«لا أريدك أن تبكي. لا تنتحب كالنساء».. صحت به، ويداي لم تتوقفا عن كيل الضربات.

تكوّم على نفسه.

ازدادت ضرباتي قوة.

«ماذا حل بك؟ ألا تقدر على الوقوف في وجهي؟ ألست رجلاً؟» ندمت بمجرد تفوهي بها. لقد تجاوزت كل الخطوط الحمر. توقفت عن ضربه.

«نعم. لم أعد رجلاً.

لقد اغتصبوني كفتاة صغيرة.

سلبوني رجولتي.

لم أتمكن من إيقافهم. لم أقوَ على مقاومتهم.

نادوني منال!

لم أعد أيهم.

أيهم زوجك قد مات.

أصبحت منال».

في ذلك الوقت، كنت قد سقطت على الأرض من شدة الصفعة التي وجهها لي، من دون أن يشعر. كان يتكلّم، بينما تقوم يداه بتمزيق ملابسه، وخرمشة جسده. لقد أصابته نوبة عصبية شديدة. حاولت تهدئته فدفعني بعيداً. آلمتني ضلوعي، وهالتني اعترافاته. لم يخطر ببالي أنه تعرّض لكل ذلك.

شعرت أن انتفاضته هذه قد جاءت في وقتها. لقد كان بحاجة للتنفيس عن غضبه. شيء ما جعلني أشعر ببصيص أمل.

أدرك أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يتمكن من الاقتراب مني، بعد أن باح لي بكل شيء. لكني أشعر أن ما حدث هذه الليلة، سيكون الخطوة الأولى نحو استعادة أيهم زوجي.

عليّ أن أكون حذرة بتعاملي معه. أنا بحاجة إلى من يرشدني. أود أن أساعده على تخطي هذه الأزمة سريعاً فولدنا ينتظرنا.

هدأت العاصفة.

عدنا للنوم لا أدري كيف، ولكن من دون أن يضيف أحدنا كلمة أخرى.

تمنيت أن لا يكون أفراد عائلته قد شعروا بما حدث هنا. دعوت الله أن يمنحني القوة، وأن يعيد لي زوجي وولدي سالمين.

5

كانت تعلم أنها الزوجة الثانية. لم تبالي، فالزوجة الأولى في بلد آخر، ولن تلتقي بها أبداً. كانت تبحث عن الاستقرار والأمان، بعد أن ترملت وهي لا تزال شابة. اضطرت لترك ولدها الوحيد عند أمها لترعاه. كان ذلك شرط العريس الوحيد. لم يكن مستعداً لتربية ولد شخص غريب. سمح لها بزيارته متى شاءت. أخبرها أنه كثير السفر. كانت تستغل فترات غيابه بقضاء الوقت مع ولدها. لم تعلم بطبيعة عمل زوجها. أخبرها أنه رجل أعمال.

أصابتها الدهشة عندما دخل عليها وبرفقته صبي. توقعت أن يكون ولده من زوجته الأولى، رغم تأكيده السابق لها أنه لم يرزق بأطفال.

«من هذا الصبي؟».

«غسان. اسمه غسان».

«ابن من هو؟».

«دعينا ندخل أولاً لنرتاح وسأجيب عن جميع تساؤلاتك. حضري لنا العشاء، وجهزي السرير في غرفة الضيوف من أجل الصبي».

«هل سيمكث لدينا فترة طويلة؟».

«قلت لك سأخبرك بقصته بعد أن أرتاح».

أعدت عشاءً سريعاً، ورتبت السرير استجابة لأوامر زوجها. أخذت الأفكار تدور في رأسها: «لا بد أن يكون ولده. لكنه لا يشبهه. زوجي أسمر والصبي أبيض البشرة، أشبه بأولاد الأجانب. ربما يشبه أمه. ربما يكون متزوجاً من روسية. نعم. ما أدراني أنا. لعل لديه أربع زوجات. كل زوجة من بلد. لا أستبعد. لكن لماذا أحضر ابن الأجنبية إليّ؟ لن أرضى بتربيته إن كان ذلك ما يفكر فيه. ولدي وجعلني أتخلّى عنه مرغمة. لن أوافق على تربية ابن ضرتي. ولكن ماذا لو أن أمه قد ماتت. الصبي حزين. هذا واضح. لابد أن أمه قد ماتت، وقد أحضره إليّ لأربيه. أين سيذهب المسكين إن رفضت رعايته؟ فليرسله إلى زوجته الأولى. ربما فعل مسبقاً، ورفضت هي الأخرى. يا للصبي المسكين. ربما أوافق على تربيته إذا سمح لي بإحضار ولدي لينشأ بيننا. سأعامل الاثنين معاملة واحدة. أنا طيبة القلب ولن أسيء معاملة ابن الأجنبية، فهو يتيم».

أثناء العشاء، لاحظت أن الصبي لم يمد يده إلى الطعام، ولم يتناول

لقمة واحدة.

«غسان. تفضل. كل. لا تستحِ».. نظرت إلى زوجها: «هل يفهم العربية؟».

نظر إليها مستغرباً: «بالطبع يفهم».

«غسان. يجب أن تأكل، وإلا ستصاب بالوهن. هيا كل. غداً سننطلق باكراً» لم يكن لديه أي خبرة في التعامل مع الأطفال.

«لست جائعاً. أنا مشتاق لأمي» قال بصوت خافت.

«كما توقعت تماماً. ماتت أمه وأحضره إلي لأربيه. يا له من صبي جميل مسكين» قالت في سرها. «أمك في الجنة يا صغيري. إنها في مكان أفضل. لا تحزن فأبوك موجود» ربتت على يد زوجها وأردفت: «لا تقلق، سأربيك أحسن تربية. سأعرفك على ولدي. سيكون أخاً لك. أبوك لن يعارض» نظرت إلى زوجها الذي ألجمته الدهشة: «هذا شرطي الوحيد. أن يتربى الاثنان معاً. ولدي مع ولدك غسان. لقد عرفت كل شيء. أعلم أنك متفاجئ لأني فهمت الأمر قبل أن تبوح لي بشيء. الصبي المسكين ماتت أمه وقد أحضرته إليّ لأرعاه».

خيّم الصمت للحظات.

انكمش الصبي على نفسه. «أمي ماتت؟» بدا مرعوباً.

«إنها امرأة مجنونة. دعك منها. أمك بخير. لا تقلق. سأحاول الاتصال بعمك غداً وأعيدك إلى أهلك» شعر بنغزة في قلبه. كان مدركاً أنه يكذب. كانت المرة الأولى التي يحس بها أنه على وشك ارتكاب جرم كبير.

«لماذا تنعتني بالجنون؟ ألأني وافقت على تربية ولد ضرتي» نظرت إليه بغضب.

وجد نفسه غير قادر على كتم ضحكته: «توقفي عن تأليف القصص وتصديقها».

«ماذا تقصد؟».

«هذا الصبي ليس ولدي. ليس لدي أولاد. لقد أخبرتك من قبل. لو صبرتي قليلاً لأفهمتك». قص عليها الحكاية التي حبكها في طريقه إلى البيت. عندما انتهى، اعتذرت من الصبي، وواسته، وحاولت إقناعه أن الأمور ستكون على ما يرام. اصطحبته إلى غرفة الضيوف، ولم تغادرها إلا بعد أن اطمأنت أنه خلد إلى النوم.

لم ينم. لم يستطع النوم ولكنه تظاهر به فقط. مخاوفه كبيرة. إنها

المرة الأولى التي يبات فيها بعيداً عن والديه.

لم يستطع الحكم بعد على الرجل، ولكن زوجته تبدو طيبة.

أغلق عينيه. حاول تذكر المشهد الأخير قبل أن يفترق عن أمه. كان ممسكاً يدها بإحكام، منتظراً في طابور الخبز. ما زال قادراً على شم رائحة الخبز الطازج. اقترب دوره. ستدفع أمه النقود، وسيحمل هو الأرغفة. ربما تناول أحدها في طريق العودة إلى البيت.

أمه لن تمانع.

تقدم خطوة أخرى. ما زال ممسكاً بيد أمه. كانت تبدو وكأنها في عالم آخر.

شيء ما لسعه في رقبته.

مد يده ليحك محل الألم.

شعر بدوار. لم يتمالك نفسه. هوى على الأرض. أظلمت الدنيا.

ما الذي حل بي؟ تساءل. هل كانت لسعة نحل؟ هل تفقد لسعات النحل الإنسان وعيه؟

ماذا حل بأمي بعد أن أغمضت عيني؟ هل أصيبت بلسعة هي الأخرى؟ لماذا قام هذا الرجل بإنقاذي وحدي؟ إنقاذي من أي شيء؟ منذ متى كانت لسعة النحل تستدعي الإنقاذ؟ هو لا يعرف أنها لسعة نحل. لا بد أنه ظن أن المخبز يتعرض لإطلاق نار، فبادر بإنقاذي عندما رآني. هذا يعني أن أمي بخير. اللسعة لم تضرني، وبالتأكيد لن تضرها. أمي قوية. لا بد أنها تبحث عني الآن. تخالني خُطفت أو قُتلت.

أنا بخير يا أمي. سأعود إليكِ في الغد. أعدكِ.

صرير باب الغرفة وهو يُفتح أجفل غسان. فتح عينيه ثم أغلقهما. لمح الرجل وهو يقترب منه. حاول أن يبدو مستغرقاً في النوم. شعر باللحاف يرتفع ليغطي صدره. ارتعش داخلياً عندما أحس بيدٍ تمسح شعره بلطف.

سمع الرجل وهو يقول: «يا له من صبي جميل. إنه شديد الشبه بالصورة. سيسر الزبون كثيراً. لا تقلق يا صغيري، ستعيش حياة جديدة في مكان أفضل».

سمع خطواته وهو يبتعد عن السرير. عاد صوت الصرير. أغلق الباب.

عن أي صورة يتحدث؟ وأي زبون ذلك الذي سيسر كثيراً؟ سرت قشعريرة في جسده الصغير. بدأ الخوف يتسرّب إلى نفسه. تذكر فجأة وصايا أمه المتكررة. «لا تتحدث إلى الغرباء. لا تذهب معهم إلى أي مكان.

أنت صبي جميل. سيخطفك الأشرار بمجرد أن يروك وحيداً. إياك أن تبتعد عني. أطفال كثر يختطفون ويباعون لأشرار. إياك أن تنسى كلامي». وقتها، كان يهز رأسه موافقاً، ولكنه لم يتخيّل أن يتعرض حقيقة لمثل هذا الأمر.

الآن، ها هو يسمع بنفسه ذلك الرجل الذي أدعى أنه قام بإنقاذه، يتحدث عن زبون سيكون سعيداً به.

فجأة أصبحت الصورة كاملة ومفهومة: «هذا الرجل لم ينقذني. لقد اختطفني!».

ولكنه حاول الاتصال بعمي. استدرك باحثاً عن بصيص أمل.

لم أره وهو يطلب الرقم. ربما خدعني. لقد خدعني بكل تأكيد.

بدأ قلبه يخفق بشدة. سيطر عليه إحساس متنامي بالخوف الشديد. تكوّم على نفسه وأخذ يبكي.

أخذ ينادي أمه وأباه في سره.

مرت الدقائق ببطء شديد. تحوّل خوفه إلى هلع. هلع لا يستطيع التعبير عنه. لا يستطيع الصراخ. لا يستطيع الاستغاثة بأي أحد، وهو في عقر دار المجرمين.

حاول تذكر كلمات أبيه عندما كان يوصيه، أن لا يخاف، وأن يعتمد على نفسه، وأن البكاء كالصغار لن يفيده في شيء.

ولكن ماذا باستطاعته أن يفعل؟ هو لا يزال صبياً. لن يتمكن من مقاومة هؤلاء الأشرار. كفكف دموعه، وأخذ يبحث عن وسيلة للنجاة. هل يحاول الاتصال بعمه؟ لم يلمح هاتفاً ثابتاً في الشقة. ماذا لو سمعه المختطف وزوجته؟ سيتعرّض للعقاب.

زوجة المختطف تبدو طيبة. ربما لا تعرف أن زوجها مجرم. هل يحاول الاستعانة بها؟ كيف وزوجها في المنزل؟ ليست بفكرة سديدة.

«لا بد أن أهرب».. فكر فجأة. «نعم سأهرب. سأخرج من الشقة، وأركض بعيداً. سأبحث عن أي بقالة أو محل، وأطلب استخدام الهاتف لأتصل بعمي». شعر بحماس يدب في ضلوعه.

سأكون حذراً جداً.

نهض من سريره.

مشى على أطراف أصابه.

وضع أذنه على باب الغرفة وأرخى السمع. السكون مخيّم على البيت.

فتح الباب بهدوء. صدر صوت أزيز خافت. توقف برهة ثم فتحه أكثر، بما يكفي ليتسلل خارج الغرفة.

تذكر أنه حافي القدمين. عاد أدراجه وبحث حول السرير عن حذائه. وجده حيث تركته صاحبة الدار. ارتداه سريعاً وخرج بهدوء إلى الصالة.

كانت الشقة غارقة في ظلام دامس. مشى ببطء وتحسس طريقه كي لا يصطدم بشيء ما، فيصدر صوتاً يوقظ النائمين.

هذا كرسي. هذه طاولة. باب الشقة خلف الطاولة كما يذكر. خطى خطوات إضافية. كاد أن يتعثر بحذاء كبير، تُرك في الممر أمام الباب.

وصل إليه. أخذ يبحث عن المقبض. لم يجده. بابٌ من غير مقبض؟! كيف سيفتحه؟ الظلام شديد. لا بد من طريقة لفتح الباب. أخذ يتحسس طرف الباب من أسفل إلى أعلى بحثاً عن أي شيء بارز، يكون بديلاً عن مقبض أو مكان لإدخال مفتاح.

وصلت يده إلى علو فوق رأسه بقليل عندما اصطدمت بجسم بارز مستطيل الشكل. تلمسه بعناية ليتعرّف على ماهيته. لم يجد فيه أي فتحة لإدخال مفتاح. بدلاً منها عثر على نتوء جانبي. كان قادراً على الإمساك به. ابتسم عندما عرف ماذا وجد. إنه قفل يفتح من الخارج بمفتاح، أما من الداخل فهناك مزلاج فقط. تذكر أنه رأى مثله على باب منزل أحد أصدقائه.

كل ما عليه فعله الآن هو سحب المزلاج، ليفتح الباب، ويتمكن من الخروج. أخذ قلبه ينبض بشدة. تلفّت حوله ليتأكد من خلو المكان. لا تزال الشقة متشحة بالسواد.

سحب المزلاج بهدوء. شعر أن الباب أصبح حراً فجذبه نحوه.

فتح الباب بمقدار شبر ثم توقف. ماذا حدث؟ تساءل غسان. حاول جذب الباب مجدداً. لم يفتح أكثر. أرخى السمع. كلما حاول إغلاق الباب وفتحه كان يسمع صوتاً أشبه بسلسلة حديدية تعيق فتح الباب بالكامل. فهم السبب. مد يده فوق القفل وأخذ يبحث عن السلسلة. وجدها. تلمسها وصولاً إلى طرفها المثبت بالباب. حرك رأس السلسلة، وأخرجه من سكته، فتحرر الباب.

تسلل بهدوء. هل يقفل الباب؟ تذكر أن هذا النوع من الأقفال يصدر صوتاً عالياً عند قفله من الخارج. قرر أن يوصده بهدوء من دون أن يغلقه، لئلا يستيقظ أصحاب الدار.

قفز على درجات السلم وقفز قلبه معه.

خرج من البناية.

لقد أصبح حراً. يستطيع الآن العودة إلى أمه.

تلفت حوله. الظلام يلف المكان. ما من مصابيح إنارة مضاءة في هذا الحي. السحب حجبت مصابيح السماء. أين يذهب؟ العمارة التي خرج منها كانت على ناصية شارع. الطرق خالية وساكنة تماماً إلا من صوت نباحٍ بعيد. عليه الابتعاد قدر الإمكان. لا يهم إلى أين الآن. المهم أن يصبح بعيداً عن متناول الخاطف.

انطلق بأقصى سرعة، راكضاً على غير هدى. سمح لرجليه أن تقوداه إلى حيث شاءتا. تبع الطريق الرئيسي. تمنى أن يعثر على أي أحدٍ قادرٍ على مساعدته، أو على الأقل السماح له بالاتصال بعمه. الطريق كان خالياً بشكل مرعب. لا سيارات، لا بشر، حتى صوت النباح توقف. سكونٌ تام. توقف لحظة ليلتقط أنفاسه. نظر حوله. لا شيء. لم يرَ حتى إشارات مرور. الأمر غريب. كان يشعر بالظلام يزداد حلكة. أصبح السواد لا يطاق. ما عاد قادراً على الرؤية. إن فتح عينيه أو أغلقهما، ما من فرق. شعر وكأن الدنيا كلها أخذت تضيق عليه وتحاصره. حتى الهواء بات حاراً رطباً ملوثاً غير صالح للتنفس.

شهق بشدة. حرك يديه ورجليه.

انكشف اللحاف عن وجهه فتنفس بعمق.

لقد كان لا يزال في سريره متكوماً على نفسه. أدرك أنه كان يحلم.

لم يهرب بعد، ولكنه عزم على تطبيق خطة الهروب التي رآها في منامه.

7

نهض من سريره وارتدى حذاءه. توجه نحو باب الغرفة. أمسك بالمقبض. حركه وجذبه نحوه بهدوء. لم يتزحزح الباب. حاول مرة أخرى بقوة أكبر. لم يفتح. انهارت آماله. الباب مغلقٌ من الخارج بمفتاح. لن يستطيع مغادرة الغرفة ناهيك عن الهرب من الشقة.

عاد إلى سريره وشعور بالإحباط ممزوجٌ بقدرٍ هائلٍ من الخوف سيطر عليه.

ماذا يفعل؟

يبكي؟ ما الفائدة؟ لن يثني بكاؤه الخاطف.

يصيح في مكانه بصوتٍ عالٍ؟ سيسمعه الخاطف وزوجته قبل غيرهما، وربما انتقما منه.

لابد له من طريقة لطلب النجدة. كان ذهنه مشوشاً من شدة الخوف.

أغمض عينيه وحاول التركيز.

«ماذا لو قمت بفتح النافذة وصرخت بأعلى صوتي لأوقظ الجيران فيهبوا لنجدتي؟» بدت فكرة معقولة، ولكنها لا تخلو من مخاطرة.

التفت نحو الستائر ومشى نحوها. لم يتمكن من فتحها بسهولة فاندس خلفها. نافذة كبيرة كانت مختفية تحت القماش السميك. حاول فتحها من مقبضها فلم تقاومه. اقتحم الهواء العليل الغرفة، فانتفخت الستارة.

نظر إلى الخارج. شجرة كبيرة سدت أغلب المشهد. أخذت عيناه تفتشان عبر الثغرات بين الأوراق والأغصان، بحثاً عن منزل قريب أو عابر سبيل. أقرب بناية كانت تبعد عشرات الأمتار. لن يصل صوته إليها. الشوارع مقفرة.

ماذا يفعل؟

صراخه لن يفيد. نظر إلى الأسفل. إنه في الطابق الثالث. لن يتمكن من القفز. إن فعل، لربما تكسر قدماه أو يداه.

يستسلم إذاً لخاطفه؟ أرعبته الفكرة. سيبيعه الخاطف إلى عصابة.

ماذا سيفعلون به؟ لا يعرف، ولكنه حتماً لن يكون أمراً جيداً. يكفي أنهم سيحرمونه من والديه.

«ربما إن قفزت فتعرضت لكسور، أصبح غير ذي جدوى، فيعدل الخاطف عن فكرة بيعي».. فكر قبل أن يستدرك: «لكني إن أصبحت غير مفيد له، فإنه قد يقرر قتلي والتخلّص مني. هذا إن نجوت أصلاً من القفزة».

نظر مجدداً عبر النافذة.

«إنها قريبة فعلاً. أستطيع الوصول إليها بشيء من الجهد. لست بحاجة للقفز إلى الأرض. قفزة صغيرة فقط هو كل ما أحتاج. لم أفعلها من قبل، ولكنها لا تبدو صعبة. قد تكون فرصتي الوحيدة للنجاة».

حزم أمره.

اعتلى النافذة.

نظر نحو الغصن القريب. يبدو سميكاً بدرجة كافية لتحمل وزنه.

حاول القفز. لم تسعفه شجاعته.

«لن أتردد. سأحاول مجدداً» حاول تمالك نفسه والسيطرة على ما يشعر به من خوف.

فتح النافذة أكثر.

بات مستعداً للقفز. توارى خوفه خلف حماسته.

كان صوت الريح شديداً.

فجأة أضيئت الغرفة خلفه.

«توقف».. سمعها بصعوبة وهي تصيح من خلفه.

«يا سعيد. تعال بسرعة. الولد سيقفز من النافذة» المفاجأة أنستها ما أوصاها به بأن لا تبوح باسمه الحقيقي.

استيقظ على صراخ زوجته وهب إليها.

لم ينظر غسان خلفه. قفز في اللحظة الأخيرة قبل أن يتمكن سعيد من الإمساك برجله.

8

مرت بضع ليال لم ينطق فيها بكلمة واحدة. صمت كامل وحوار بالإشارات.

أثر الصفعة لم يزل بسهولة. كنت أرى عيناه تعتذران. اضطررت لاختلاق قصة لأبرر لعائلته سبب تورم وجهي. لم أغضب منه. استوعبت الظرف الذي يمر به. أخشى أن ذلك قد زاد الأمر سوءاً. حاولت جهدي إخفاء نظرات الشفقة. هو ليس بحاجة لمن يذكره بضعفه.

في أحد الأيام، استيقظت باكراً فلم أجده بجواري. لم يكن في الغرفة. بحثت عنه في أرجاء الشقة من دون جدوى. كانت الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحاً. شعرت بالقلق.

فُتح باب الشرفة ودخل منه أمجد. سارعت فسألته عن أخيه.

ابتسم: «ألم يخبرك؟».

«يخبرني بماذا؟» سألته، وكنت لا أزال أشعر بحيرة ممزوجة بقلق متنامٍ.

«لقد استيقظ كما يبدو في وقت متأخر من الليل. عندما نهضت لصلاة الفجر، كان لا يزال يعمل على جهاز الكمبيوتر ويطبع الأوراق».

«أي أوراق؟» استغربت الأمر.

«لقد طبع أوراقاً جديدة تحتوي صوراً لغسان ومعلومات عن طريقة الاتصال بنا في حال العثور عليه. أخبرته أننا قمنا بذلك من قبل، ولكنه أصر على توزيع أوراق جديدة. لقد خرج قبل ساعتين. عرضت عليه الخروج معه، ولكنه أبى. أصر على القيام بذلك بمفرده». توقف لحظة ثم نظر إليّ بابتسامة واسعة: «يبدو لي أننا ربما نكون قد استعدنا أيهم أخيراً».

برقت عيناي. شعرت بسعادة غامرة. تركت أمجد من دون أن أعلّق

على كلامه. أسرعت إلى غرفتي فبدلت ملابسي. خرجت مسرعة من المنزل. كنت أعرف إلى أين عليّ التوجه.

في الطريق، لفت نظري تجمّع الناس حول أعمدة الإنارة. دفعني الفضول للاقتراب. اخترقت الجمع ونظرت إلى حيث ينظرون.

إعلان ملون تم إلصاقه حديثاً على العامود. اقتربت أكثر لأقرأ محتواه. دهشت من النص.

«أيها الخاطف. أعد لنا ولدنا سالماً وأعدك بمبلغ مقداره ثلاثة ملايين ليرة سورية هي كل ما أملك. إلى كل من رأى ولدي، ولديه معلومات حقيقية تساعدنا في الوصول إليه، أعدكم بمبلغ مقداره خمسمائة ألف ليرة سورية، أدفعها بعد التحقق من المعلومة. إن أسهمت هذه المعلومة في وصولنا المباشر لولدنا، أعدكم بمبلغ مقداره مليون ليرة سورية، أدفعها كاملة لكم بعد استعادة ولدي». أسفل النص وضعت صورة واضحة لغسان مصحوبة بمعلومات عن المكان والزمان اللذين فقد فيهما، إضافة إلى أرقام هواتفنا.

الفكرة ممتازة. قلت لنفسي. فلتذهب كل أموالنا. ليس مهماً. المهم استعادة غسان. الإعلان ذكي. لم يذكر عنوان المنزل، وإلا لتعرضنا للسرقة والابتزاز، وربما لما هو أخطر. كنت مدركة أننا سنتلقى عشرات وربما مئات المكالمات التي ستزودنا بمعلومات مزيفة، قد يكون التحقق منها أمراً غاية في الصعوبة. ولكن من يدري، فقد نتلقى اتصالاً أو اثنين صادقين، يساعداننا فعلاً في الوصول إلى غسان. ولربما اتصل الخاطف بنفسه.

«سأشد على يدي زوجي، وأعينه على ما عزم عليه». أخذت نفساً عميقاً وحثثت الخطى.

وجدته حيت توقعت. كان يوزع الإعلانات على مرتادي المخبز والعاملين فيه والمارين أمامه.

اقتربت منه. أتيته من الخلف. كانت الأوراق التي يحملها على وشك النفاد. أدخلت يدي بين ذراعه وإبطه وأمسكت بعضده. التفت إليّ. ابتسم.

«وجدتيني إذاً؟».

«لم أفقدك لأجدك». نظرت في عينيه.

«ما رأيك؟» وأومأ نحو الورقة الأخيرة التي يحملها.

«فكرة رائعة» ابتسمت.

«قد نفقد كل ما نملك». حذرني

«إنه ثمن زهيد في سبيل استعادة ولدنا الوحيد». قلت له بدون تردد.

«لن يكون الأمر سهلاً أبداً».

«أدرك ذلك».

«ولكنا سنستعيده».

«تعدني بذلك؟».

«بإذن الله سنستعيده. أعدك».

«هيا بنا إذاً».

عدنا أدراجنا.

رن هاتفه. رد عليه.

بعد لحظات رن هاتفي.

«مرحباً. أتصل بخصوص الإعلان. لدي معلومات عن الصبي صاحب الصورة».

9

شعر بأنه قفز قفزة طويلة.

لم تكن كذلك، لكنها كانت كافية لوصوله إلى الغصن الممتد بالقرب من النافذة. أمسك بجذع الشجرة للحظات. راقب الخاطف وهو يطلق صيحات الاستنكار المصحوبة بإشارات التهديد والوعيد. نظر إلى الأسفل. لا يستطيع القفز إلى الأرض من مكانه. عليه نزول الشجرة متنقلاً بين أغصانها. نظر مجدداً إلى النافذة. كانت زوجة الخاطف تقف وحدها وتلوح له كي يبقى في مكانه.

فهم ما يجري. لقد خرج الخاطف في إثره. لم ينتظر أكثر وباشر بالنزول. تمسك جيداً بالجذع، وأنزل قدميه نحو الغصن التالي. ثم الذي يليه. نظر مجدداً إلى الأسفل. لم يبقَ المزيد من الأغصان. ما زال مرتفعاً عن الأرض. هل ينزل على الجذع ببطء أم يجرب حظه ويقفز من مكانه. أدرك أنها ثوانٍ ويجد الخاطف يقف أسفل الشجرة. ليس لديه وقت ليضيعه.

قفز نحو التربة بعيداً عن الإسفلت وعن اللبنات التي شكلت مربعاً يحيط بالشجرة. نزل بقوة على رجليه ثم ارتطمت يداه بالتربة لتخفف الضغط عن قدميه. أحس بألم في كاحليه. حاول الوقوف. لم يجد صعوبة بالغة في ذلك.

«مكانك. توقف» التفت خلفه ليرى الخاطف وقد خرج مسرعاً من مدخل البناية.

لم يتوقف، بل أطلق العنان لساقيه. نظر حوله مقيّماً الموقف. المنطقة

شبه معزولة. حوله الكثير من المباني قيد الإنشاء. أقرب بناية تبدو مأهولة تبعد عشرات الأمتار. أخذ قراره - وهو يجري - بالتوجه إليها. سيدخلها ثم يطرق أبواب الشقق عل أصحابها يستجيبون له وينجدونه.

ركض الخاطف خلفه. يفصله عنه بضعة أمتار. لم يكن معتاداً على الركض، كما أن العرج الطفيف في رجله اليمنى كان يعيقه، لكنه رغم ذلك لم يكن ليدع صبياً يفلت منه. ستكون سابقة خطيرة في سجله. صبي في التاسعة من عمره، استطاع الهرب من «القناص» ذائع الصيت. خبر كهذا، كفيل بالقضاء على سمعته. هذا ناهيك عن خطر افتضاح أمره.

«توقف. لماذا هربت؟ سأعيدك غداً إلى أهلك. ثق بي. أنت بأمان معنا».

لم يصدقه غسان، بل زاد من سرعته. إنها فرصته الوحيدة ولن تتكرر. وصل إلى مدخل البناية. التفت خلفه لحظة فوجد الخاطف على وشك اللحاق به رغم ما يظهر عليه من علامات التعب والإرهاق.

صعد الدرج. طرق الباب بشدة على أول شقة يصادفها. ثم انتقل إلى التي تليها. لم يتمكن من الوقوف طويلاً أمام كل شقة، فالخاطف دخل لتوه المبنى.

صاح بأعلى صوته: «يا ناس يا عالم. ساعدوني. هذا الرجل اختطفني» وأكمل صعوده على الدرج وطرقه أبواب الشقق.

«كفى. توقف. هذه البناية لم تُسكن بعد. لا تتعب نفسك وانزل. سأسامحك على اتهاماتك لي» كان صوته متقطعاً من شدة اللهاث.

لم يتوقف.

كان قد وصل إلى الطابق الخامس عندما سمع صوت قفل يدار وباب يفتح في أحد الطوابق السفلى. يفصله عن «القناص» طابقان. هل ينزل بحثاً عن الشقة التي فتح بابها، ويخاطر بالاقتراب من الخاطف؟ أم يبقى في مكانه ويصيح طلباً للنجدة؟

قرر النزول طابقاً واحداً واستمر في صراخه.

«ما هذا الإزعاج في هذا الوقت من الليل؟» أطلت سيدة في العقد الرابع برأسها من درج الطابق الثالث بحثاً عن مصدر الصوت.

نزل غسان نحوها مسرعاً بينما صعد خاطفه إليها.

«أرجوك ساعديني. هناك رجل يتبعني ويحاول اختطافي» وصل غسان إليها أولاً وأشار إلى خاطفه الذي اقترب منهما.

«نحن نعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت. هذا ابن أخي، صبيٌ شقيٌ

ذو خيال خصب. كله بسبب الأفلام الأجنبية التي أفسدت عقول الصغار والكبار».

قاطعه غسان: «لا تصدقيه. إنه كاذب. لست قريبه. لقد اختطفني عندما كنت في المخبز مع أمي».

أخذت المرأة تنتقل بنظراتها بين الاثنين. محتارة من تصدق.

اقترب الخاطف أكثر فتراجع الصبي.

«لقد أزعجنا السيدة وسكان العمارة بما يكفي. اعتذر للسيدة ودعنا نخرج من هنا بهدوء».

«أرجوك سيدتي. دعيني أدخل شقتك، وسأجري اتصالاً بعائلتي ليؤكدوا كلامي. اتصال واحد فقط».

«تعال يا بني. لا تجعلنا فرجة أمام الناس» فجأة انقض الخاطف على الصبي وأمسكه من يده وجره إليه ثم حمله على كتفه أمام المرأة.

«أنا أعتذر بشدة عن الإزعاج الذي سببناه لك. بإمكانك العودة إلى شقتك. أعدك أن ذلك لن يتكرر أبداً». ابتسم ابتسامة مصطنعة وأدار ظهره وبدأ نزول الدرج.

كانت المرأة تشعر بنعاس شديد وتتوق للعودة إلى النوم. لم تركز كثيراً فيما قالاه. استدارت وعادت إلى شقتها.

«ساعديني. لا تصدقيه. إنه كاذب. حتى اسمي لا يعرفه». أخذ يضرب بقبضتيه ظهر الخاطف.

التفتت المرأة، وسألت بصوت عالٍ: «ما اسم ابن أخيك الشقي هذا؟».

لحظات من الصمت خيمت. حتى الصبي توقف عن الصراخ.

«اسمه أحمد» قال بهدوء.

«لا. لا. إنه كاذب. أقسم بالله اسمي غسان وليس أحمد. أنا غسان أيهم وأمي اسمها لميس» انفجر مستنكراً.

تلاشى صوته عند خروجهما من باب البناية.

توقفت المرأة. فكرت قليلاً. «ماذا لو كان الصبي صادقاً وأنه مختطف بالفعل؟ ماذا سأفعل له إن كان كذلك. أنا امرأة ضعيفة ووحيدة. لن أتمكن من مساعدته وخاصة في هذه الظروف. لا أظنه مختطفاً. لقد بدى عمه صادقاً. ما علينا. الله يتولى عباده». دخلت شقتها وأحكمت إغلاق الباب.

10

طوال الطريق لم يتوقف الصبي عن الضرب بيديه والركل برجليه،

ولكن دون جدوى. لم ينطق «القناص» بكلمة واحدة. لقد تغيّرت الظروف وأصبح اللعب على المكشوف. الصبي بات يوقن أنه مختطف. ليست هذه المشكلة الوحيدة. ماذا سيقول لزوجته؟ ما السبب الذي دفع الصبي للهرب؟ ماذا سيفعل إن اتهمه الصبي مجدداً بالاختطاف أمام زوجته؟ لا بد له من إسكاته إلى أن يتم تسليمه للزبون.

وصل إلى منزله. فتح الباب. غيّر من طريقة حمله للصبي وكان الأخير قد بدأ يشعر بالتعب والإعياء من شدة الصراخ والمقاومة. رفعه من خصره بيد وكمم فمه بيده الأخرى. وجد زوجته تنتظره في الصالة على أحر من الجمر.

«ماذا حصل؟» سألته وهي تنظر إلى الطريقة التي كمم فيها فم الصبي.

«أحضري حقيبة العمل واتبعيني إلى الغرفة» أمرها بحزم.

نفذت أوامره بدون نقاش.

دخل الغرفة ووضع الصبي على السرير وثبته تحت قدميه. لم يتوقف عن الركل بيديه ورجليه.

أحضرت مرام الحقيبة. أمرها أن تضعها على السرير، وتغادر الغرفة، وتوصد الباب.

فعلت ما أمرها به.

أخرج من الحقيبة منديلاً ربط به فم الصبي، وعلبة مستطيلة فتحها وتناول منها حقنة. اتسعت عينا غسان بمجرد رؤيته للحقنة وأخذ ينتفض بشكل يائس.

«لا تخف. هذه حقنة تحتوي على محلول منوم. لا تقلق فتركيزها منخفض ولن تضرك. ستساعدك فقط على النوم بعمق لساعات طويلة».

أمسك بذراعه وثبته جيداً ثم غرز الإبرة بهدوء تحت الجلد وضغط عليها فتسلل المحلول إلى العروق واختلط بالدم. ما هي إلا لحظات معدودة وبدأت مقاومته تتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن همد بشكل كامل. أزال المنديل عن فمه ثم نهض عنه. نظر إلى وجهه وقد هدأ تماماً. الصبي جميل حقاً وشديد البراءة. لأول مرة أحس بألم في صدره. شيء ما في ملامح الصبي يجذبه. من دون أن يشعر وجد أنامله تتسلل إلى وجنتيه الناعمتين تداعبهما. انحنى على الصبي وقبّل جبينه. لم يعرف لماذا فعل ذلك. هل أحس بالشفقة على الصبي؟ لكنه سبق وأن اختطف وباع عشرات الأطفال. لماذا يشعر الآن بشعور مختلف؟ ما المميز في هذا الطفل؟ ربما

لكونه الصبي الوحيد الذي يدخل منزله وينام على سريره. ربما لأنه تمنى في يوم من الأيام أن يُرزق بصبي مثله.

طرقٌ خفيفٌ على باب الغرفة انتزعه من أفكاره. «هل أستطيع الدخول؟».

«انتظري. سأخرج أنا إليك». رفع غطاء السرير إلى منتصف صدر الصبي. مسد شعره بحنان. تنهد ثم قام وخرج من الغرفة بهدوء.

«نام الصبي؟».

«نعم. إنه مستغرق في النوم».

«ما الذي حدث؟ ولم قفز من النافذة؟ وإلى أين ذهب؟ ومن أين أحضرته؟» انهالت عليه بسيل من الأسئلة.

«اهدئي. الصبي شعر بالخوف. يبدو أنها المرة الأولى التي يبات فيها بعيداً عن ذويه. صوّر له خياله أنه في خطر، وأنه لن يعود إلى والديه. هذا كل ما في الأمر. لا تقلقي. غداً صباحاً سأعيده إلى أهله وننتهي من هذا الموضوع». قبل أن تلقي عليه المزيد من الأسئلة عاجلها: «هيا بنا لنذهب إلى غرفتنا، وننال قسطاً من الراحة. لقد كانت ليلة مرهقة». توجه إلى غرفته وهي تنظر إليه ولم تكن قد أشبعت فضولها. اضطرت مرغمة للحاق به عندما التفت، وأشار إليها لتتبعه.

11

ما زالت الكوابيس تطاردني. لا زلت أنفر من أي اتصال جسدي مع أيٍ كان. ذاكرتي كيف أمحوها؟ ألغي فصولاً منها. لا وقت لدي للتفكير في ذلك. أمامي مهمة أكبر وأهم. استرجاع ولدي. عليّ أن أدفن مخاوفي وذكرياتي المرعبة عميقاً. بعيداً عن مشاعري. قد أضطر للتمثيل. لا بأس بذلك. لا أستطيع أن أشارك آلامي أي شخص آخر. يجب أن أتعافى سريعاً حتى لو كان تعافياً مزيفاً.

عيناي، توقفي عن إفضاح أمري. لا تعبري عن آلامي وأحزاني.

لميس، اصبري. لن أعود بسهولة إلى سابق عهدي. قد لا أعود أبداً زوجك الذي أحببته، لكني سأبذل قصارى جهدي لأحسن تمثيل دوره. أنا أعرف أني لن أفلح في خداعك، ولكني كلي ثقة أنك ستغضين الطرف عن ذلك.

أفكار كثيرة تعصف بي كل ليلة عندما ينام الجميع. أغمض عيني لأبدو على الأقل شبيهاً بمن حولي.

يا ترى أين أنت يا غسان؟ أنت حي. لا أشك بذلك. ولكن هل

أنت بخير؟ ماذا يفعلون بك؟ هل آذوك؟ سأسترجعك يا ولدي قريباً. اصمد. لا تبكِ. أنا وأمك لن يهدأ لنا بال حتى تعود إلينا سالماً معافى.

لدي شعور قوي أن فكرتي ستوصلنا إليه بطريقة أو بأخرى، رغم المعاناة التي أصبحنا نواجهها ليل نهار مع كل اتصال. تلقينا عشرات المكالمات من أشخاص يزعمون أنهم رأوه أو لديهم معلومات عن مكان وجوده. جلهم يكذبون طمعاً في المال. لقد اشترطت على المتصلين أن يصفوا ولدي بدقة أو يقدموا تفاصيل قابلة للتصديق. أحدهم ادعى أنه رآه يركب حافلة المدرسة بعد يوم من اختفائه. اتصلنا بالمدرسة، وتأكدنا أن أحداً لم يرَ غسان منذ الحادثة. ادعى آخر أن غسان مختطف لديه، وأنه لن يطلق سراحه حتى يحصل على الفدية. طلبت منه أن يسمح لغسان بالحديث معنا على الهاتف. لم يستطع تلبية طلبي. سألته أن يصف ولدي بدقة ففشل في ذلك أيضاً. أيقنت حينها أنه كاذب.

بعض الاتصالات كانت من عائلات فقدت أولادها. اتصلوا ليواسونا وليستفسروا إن كانت فكرتنا قد أسهمت في وصولنا إلى ولدنا. أرعبتنا حقيقة أنهم جميعهم لم ينجحوا في استرداد أولادهم. لم يفت ذلك في عضدنا. فالأولاد لا يتبخرون. لا يختفون. لا بد أن شخصاً ما، في مكان ما، قد رأى ولدي. كل ما أطلبه أن يبادر ذلك الشخص بإبلاغنا. لقد نشرت الصور والإعلان على أوسع نطاق ممكن. لم أكتفِ بتوزيعها على المارة بل طرقت أبواب الشقق والبيوت والفلل، وسلمت أصحابها نسخاً من منشوري.

أحياناً، أشعر أني أبحث عن إبرة في كوم قش. قد يكون ذلك صحيحاً، ولكني مستعد لإزالة القش قشة بعد أخرى، حتى أصل إلى ولدي. لن أستسلم بسهولة.

كل أفراد عائلتي أبدوا استعدادهم للمساعدة. تحوّلت شقتهم إلى غرفة عمليات. نستقبل المكالمات. ندوّن أسماء المتصلين والمعلومات التي يودون الإدلاء بها، ثم نسعى بعدها للتحقق منها، وفرزها وفقاً لأهميتها.

شارك الجميع بطريقته الخاصة. أمجد قرر أن يستغل قدراته الإلكترونية. كان يجلس أمام شاشة الحاسوب ليل نهار. ينشر معلومات عن غسان في مواقع التواصل الاجتماعي، وعبر المنتديات، طالباً المساعدة من أي شخص يمكن أن يكون قد التقى صدفة به، أو لديه معلومات مفيدة عن مكان وجوده. لم يكتفِ بذلك، بل قام بالبحث عن معلومات حول عمليات الاختطاف، وخاصة تلك التي تنتشر في سوريا هذه الأيام.

الليلة، وقبل أن نخلد إلى النوم، طلب أن يختلي بي وبلميس ليطلعنا

على أمر غاية في الأهمية اكتشفه أثناء بحثه. أمرٌ أثار الرعب في نفوسنا. أخبرنا أن عمليات الاختطاف التي لا يطلب مرتكبوها فدية، لا بد أن تكون واحدة من ثلاث: إما عمليات اختطاف بدافع الانتقام، وتنتهي بالقتل، أو عمليات اختطاف بدافع الرغبة الجنسية، وتنتهي غالباً بالاعتداء بوحشية على المختطف حتى الموت، أو عمليات اختطاف بدافع المتاجرة. وهنا يباع المختطَف لأغراض جنسية أو للمتاجرة بأعضائه أو بغرض التبني غير المشروع.

أخبرنا أنه يستبعد النوع الأول، فنحن لم نفعل على حد علمه شيئاً يستدعي انتقاماً بهذا الشكل. حتى النوع الثاني بدا له بعيد الاحتمال، وخاصة في ضوء ما حدث في المخبز. أما النوع الثالث، فقد وجده منطقياً إلى حد بعيد، فإطلاق الأعيرة المخدرة على جمع من الناس، ثم اختفاء صبي من بينهم، يبدو أقرب إلى عمل عصابة. أقر أنه لم يستطع حصر أي نوع من المتاجرة نحن بصدده. فهمت، أنا ولميس، ضمنياً، أن عمليات المتاجرة هذه، تتطلب تهريب المختطَف خارج البلاد. أدركنا أن حدوث ذلك يعني اختفاءه إلى الأبد.

أفزعتنا هذه الحقيقة. نحن نتعامل إذاً مع عصابات دولية على الأغلب.

تصبب عرقي رغماً عني. ضاق نفسي. شعرتُ بضربات قلبها تتسارع. مدت يدها وشبكت أصابعها بأصابعي. قاومت الشعور بالنفور. ضغطت على أصابعها محاولاً منحها شيئاً من الأمان. أمان كاذب ولكنه أفضل من لا شيء.

لاحظ أمجد ما نعانيه. ليس لديه ما يواسينا به. أخبرنا أنه قرر أن يركز بحثه حول العصابات المختصة بخطف الأطفال، عله يعثر على خيط يوصلنا إلى غسان في أسرع وقت.

أومأنا شاكرين وممتنين.

خرج أمجد وارتمت لميس في أحضاني تبكي بكاءً مريراً. هي بكت بينما كنت أفكر بطريقة أدفعها بها بعيداً عني. جلدت نفسي بنفسي بسبب هذه الفكرة الشنيعة.

قبلتها على جبينها بهدوء.

«لنقم نصلي وندعو لغسان».. قلت لها لأتخلص من أحضانها. أومأت برأسها وابتعدت عني.

تنفستُ الصعداء.

صلينا ونامت. أغمضت عيني واستقبلت أفكاري.

12

رأسي تدور. يداي تؤلمانني. أشعر بحرقة في عيني. لا أستطيع فتحهما. صوتي لا يخرج من فمي. أين أنا؟ أين أنت يا أمي؟ لماذا لم تعثري علي بعد؟ لا أدري أين أصبحت. لا أقدر على تحريك يداي أو قدماي. عيناي مغلقتان بشدة وكذلك فمي. أنا جالس على كرسي ما، ولكني لا أستطيع النهوض. لا أستطيع كذلك الصراخ. يداي مثبتتان خلف الكرسي وتؤلمانني جداً. قدماي مربوطتان ببعضهما وربما برجلي الكرسي أيضاً. من فعل بي ذلك كله ولماذا؟ كيف جئت إلى هنا؟ آخر ما أتذكره هو أني كنت ممداً على سرير في شقة الرجل الذي اختطفني. كان جالساً فوقي، ويغرز شيئاً ما في ذراعي. بعدها لا أذكر شيئاً.

أين أنت يا أمي؟ لقد بللت دموعي وجهي. لماذا اختطفني ذلك الرجل؟ ماذا فعلت له؟ لم أوذي أحداً من قبل. هل سيبيعني حقاً؟ هل باعني وأنا نائم؟ يا ربي ساعدني. أنا خائف جداً. أعدك أن أصلي كل الصلوات. حتى صلاة الصبح سأصليها قبل أن أذهب إلى المدرسة. سأصوم في رمضان الأيام كلها. أعدك يا ربي. أنا صغير، ليس معي نقودٌ لأعطيها الفقراء. سأطلب من أبي أن يتبرع بكثير من الأموال للفقراء. أبي غني. ولكني لا أعرف أين هو. لم يعد بعد. أعدك يا ربي أن أسمع كلام أمي وأبي. أرجوك يا ربي سأغلق عيني بشدة وأعد إلى عشرة. عندما أنتهي أعدني إلى أمي. لن أعد إلى عشرة. سأقرأ الفاتحة وقل هو الله أحد؛ عشر مرات وبعدها ستعيدني إلى أمي.

إني أسمع أصوات خطوات.

ليتني أقدر على الصراخ.

أصوات أناسٍ تتحدث من بعيد. تقترب مني شيئاً فشيئاً. ربما رأوني وآتون لمساعدتي.

اقتربوا كثيراً. توقفوا. إنهم يتحدثون لغة لا أفهمها. ليست عربية ولا إنجليزية.

أحدهم وضع يده على شعري. ماذا ينتظرون؟ لماذا لا يزيلون الأربطة عني؟ مسح شخص ما دموعي. يبدو أنهم طيبون. ما زلت لا أفهم كلمة واحدة مما يقولون.

ماذا يجري الآن؟ أحدهم حرر يداي من الكرسي. هيا فكوا الرباط عن فمي لأخبركم برقم هاتف عمي لتتصلوا به فيأتي ليأخذني.

حرر الآن قدمي.

عادوا للحديث بلغتهم الغريبة. ماذا عن عيناي وفمي؟ لماذا لا أفك رباطهما بنفسي فيداي حرتان.

«هيي. خبيبي. ابعد إيدك عن وجهك».

صوته مخيف. يتكلّم العربية بلهجة غريبة. من يكون؟ أبعدت يداي.

قال صاحب الصوت المخيف شيئاً فصمتوا. أحدهم أمسكني من صدري ورفعني. وضعني على كتفه كما فعل الخاطف من قبل.

هؤلاء ليسوا طيبين إنهم أشرار. لقد باعني لهم. سأركله بشدة عله يسقطني فأهرب.

«اهدأ خبيبي. عنا سفر طويل».

سمعت صوت باب سيارة يفتح. أدخلني إليها الرجل الذي يحملني. جلس بقربي وأغلق الباب.

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.....».

13

وصلته رسالة مفادها أن نقوده أصبحت جاهزة، ويستطيع العودة لاستلامها. في الحقيقة هو لم يبتعد كثيراً عن المكان. لقد اتخذ موضعاً يسمح له بمراقبة الداخلين والخارجين من المستودع. لم يعتد فعل ذلك في المرات السابقة. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً. لقد خالف جميع البروتوكولات التي وضعها لنفسه. أهمها كان أن لا يسمح بنشوء علاقة بين الخاطف والمختطَف. المختطَف سلعة والخاطف تاجر. هكذا كان الأمر طوال السنوات السابقة. ماذا حدث هذه المرة؟ لماذا يشعر بانجذاب نحو هذا الصبي؟ لقد خطف العشرات ممن كانوا في سنه. هل كبر فجأة وأصبح غير ملائمٍ لممارسة هذه المهنة؟ لماذا شعر بغصة في صدره عندما كان يوثق قيده؟ لماذا أحس بألم شديد عندما تركه وحيداً ينتظر وصول المشتري؟ لم يجد إجابة شافية لأسئلته. كل ما يعرفه هو أنه عندما غادر المستودع وعاد إلى سيارته، أمرٌ ما كان يحثه على الرجوع وإنقاذ الصبي. أمرٌ ما دفعه إلى أن يخطو بضع خطوات مبتعداً عن سيارته. كان على وشك أن يهرول مسرعاً نحوه ليزيل عنه قيوده.

لكنه تأخر.

وصلت العصابة ودخلت المستودع قبل أن يتسنى له العودة. اضطر للرجوع إلى السيارة والتقدم بها قليلاً لمراقبة ما يحدث. رآهم وهم يحملون

الصبي ثم يدخلونه مركبتهم وينطلقون به. لقد انتهت العملية وتم التسليم على أكمل وجه. لكنه لم يكن سعيداً. لم يسر بالمبلغ الكبير الذي حصل عليه. حمل الحقيبة المثقلة بالأوراق النقدية ووضعها في مؤخرة السيارة. جلس في السيارة برهة من الزمن غير قادر على تحريكها من مكانها. صورة الصبي لا تفارق خياله. ملامحه الرقيقة ووجهه البريء علق في وجدانه. لقد بدأ هذا الشعور الغريب منذ الصباح، عندما تلقى اتصالاً من المشتري، يبلغه بمكان جديد للاستلام والتسليم. وقتها، كان الصغير لا يزال غارقاً في نومه. دخل عليه وأراد حمله. تعلّقت يده الصغيرة بمعصمه.

«بابا. نحنا وين رايحين؟» كان الصبي يهذي من تأثير المخدر. «بابا أنا بحبك كتير». ابتسم وعيونه مغلقة وقد ارتسمت علامات الراحة على وجهه.

خفق قلبه عندما حمله واختل توازنه. حركت كلمة بابا مشاعر قديمة، دُفنت منذ وقت طويل. إنها الكلمة التي تمنى سماعها طوال عمره.

لكنه تمالك نفسه بعدها، وأصر على الاستمرار في مخططه. عليه تسليم السلعة في الوقت ومن دون تأخير. هكذا عوّد زبائنه. حاول أن يقنع نفسه أن ذلك الشعور الذي خالج صدره نحو الصبي، ما هو إلا شعور لحظي، وأمرٌ مؤقت، سيختفي تماماً بمجرد حصوله على مكافأته المغرية.

يعرف الآن أنه كان على خطأ. لقد أحدث هذا الصبي - من دون أن يدري - زلزالاً في نفس خاطفه. لقد أيقظ بركاناً قديماً من المشاعر الدفينة.

خطرت بباله فكرة جنونية. فكرة كفيلة بإنهاء مستقبله وتدمير سمعته. فكرة قد تودي بحياته. نظر إلى ساعته، ومن ثم تناول الناظور من المقعد خلفي، ووضعه على عينيه. شغل السيارة. ضغط على دواسة البنزين. انطلق بأقصى سرعة.

14

«السلام عليكم».

«وعليكم السلام ورحمة الله».

«عذراً على الإزعاج. تفضلي».

«ما هذا؟».

«هذا إعلان عن مكافأة لمن يساعدنا في العثور على ولدنا المختفي منذ أسبوعين. منذ حادثة إطلاق الرصاصات المخدرة على مرتادي المخبز إن كنتِ تذكرين. نحن نشك أنه مختطف. انظري إلى الصورة. هل رأيتِ هذا

الصبي من قبل؟ اسمه غسان وعمره تسع سنوات».

نظرت أم رغد إلى الصورة التي توسطت الإعلان دون أن تقرأ التفاصيل: «آسفة لم أره من قبل. تفضل».

«لدي العشرات غيره. احتفظي به، فلعل أحد أقربائك أو معارفك قد رآه ولو بالصدفة».

«حسناً. كما تشاء».

«شكراً جزيلاً لك ومعذرة على الإزعاج».

أقفلت الباب.

«من الطارق يا أمي؟ ما هذه الورقة الملونة التي تحملينها؟» سألت رغد أمها.

«خذيها. لا شيء مهم. أحدهم أضاع ولده. تحدث كثيراً هذه الأيام بسبب الإهمال. لهذا أخبرك دوماً ألا تبتعدي عني عندما نكون في الشارع».

«واو. صورة جميلة. هل أستطيع الاحتفاظ بها؟».

«نعم ولكن بشرط ألا تمزقيها وتنثري قطعها في أرجاء الشقة». توجهت الأم إلى المطبخ.

«أعدك ألا أفعل يا أمي، فأنا أعرف صاحب الصورة».

«لم أسمع ما قلتيه. المهم ألا تنثري القطع».

«حسناً يا أمي. لا تقلقي». مشت الطفلة نحو غرفة المكتب، حيث كان والدها يعمل على حاسوبه المحمول.

«أبي. أبي. أنظر. إنه ذلك الصبي».

«أنا مشغول يا حبيبتي. سأفعل ما تشائين ولكن ليس الآن».

«أبي. أبي. لقد رأيناه معاً من الشرفة. هل تذكر؟».

«قلت لك سنتحدث فيما بعد».

«كنت محقة. كنت محقة. أبي كان مخطئاً. أبي كان مخطئاً». حاولت إغاظة والدها. «قلت لك. لم يكن أباه. لم يكن أباه. أنا ذكية أعرف كل شيء».

«رغد. اسمعي كلام أبيك. دعيه. إنه يعمل». قالت أمها وكانت مارة بالقرب منهما.

«أبي كان مخطئاً وكنت أنا على صواب. لقد عرفت الصبي. أخذه رجل غريب. قلت يومها لأبي ولم يصدقني».

«عم تتحدثين يا فتاة؟» بدأت الأم تنتبه لكلام صغيرتها.

«عن هذا الصبي الذي في الصورة. أنا أعرفه».

«دعكِ من هذا الكلام. ألم أخبركِ أن الكاذب يذهب إلى النار؟».

«لست كاذبة». قالت الفتاة بغضب. «لقد رأيت الصبي من قبل. وكذلك فعل والدي. لكنه لم يصدقني؟».

هات الورقة من يدك لأرى. «أين رأيته أنت وأبوك؟» سألت باهتمام متنامٍ بينما أخذت تقرأ تفاصيل الإعلان.

ذُهلت من قيمة المكافأة. كررت سؤالها، وقبل أن تسمح للطفلة بالإجابة نادت زوجها.

«أحمد. أترك ما في يدك وتعال فوراً. اسمع لابنتك وانظر ماذا لدي». رفعت صوتها وتكلّمت بنبرة جادة.

«ماذا يجري؟» رد من مكانه وكان لا يزال منهمكاً في عمله.

«تعال بسرعة».

تنهد ونهض من مكانه متأففاً: «ما الذي يجري؟ ماذا فعلت يا رغد؟ هل كسرت شيئاً؟».

«والله لم أفعل شيئاً».

«خذ. اقرأ هذا المنشور بتمعن. أحضره أحد الأشخاص قبل قليل. لقد فقدوا ولدهم في نفس اليوم الذي حدث فيه إطلاق النار في المخبز. تدعي رغد أنكما رأيتما الصبي الذي في الصورة. إن كانت صادقة، فقد نحصل على مبلغٍ جيدٍ من المال».

قرأه وتمعن في الصورة. «لست متأكداً. أين رأيناه يا رغد؟ ذكريني».

ابتسمت الفتاة: «هل تذكر يا أبي قبل أيام، عندما كنت ألعب في الشرفة، وسمعنا أصوات رصاص، فجئت مسرعاً تطلب مني الدخول وإغلاق الباب. رأيت يومها رجلاً يقترب من الأشخاص المغمى عليهم، ويحمل هذا الصبي ويمشي مبتعداً. قلت لك أنه ليس أباه. ألقيتَ أنتَ نظرة يومها وقلت لي ألا أتدخل في شؤون غيري، ثم دخلنا إلى الغرفة وأقفلت باب الشرفة. هل تذكر الآن؟».

أطرق أحمد محاولاً تذكر ملامح الصبي. لقد تذكر الواقعة، ولكنه غير متأكد إن كان الصبي نفسه، فقد لمحه للحظات فقط. فكر في نفسه أنه لا بد أن يكون هو، ما دام أهل الصبي يؤكدون أن ابنهم خطف في نفس اليوم، وبعد نفس الحادثة.

«هل ما تقوله رغد صحيح؟».

«أظن ذلك. على الأغلب هو نفس الصبي. بالفعل، لم أصدقها يومها، وظننتها تتخيّل كعادتها. يبدو أنها كانت على حق».

شعرت رغد بنشوة الانتصار: «ألم أقل لك؟ عليكما تصديقي في المرة القادمة».

لعب بشعرها: «حسناً. الآن ماذا نفعل؟».

ابتسمت أم رغد: «نسرع، فنتصل بالرقم المدون في الإعلان، ونطالب بمكافئتنا».

«هل تجدين من اللائق طلب النقود، مقابل معلومة صغيرة، قد لا تكون مفيدة أصلاً؟ ألا يكفيهم فقد ولدهم؟».. كان أحمد متردداً في اتخاذ قرار بخصوص طلب المال، أو ربما كان بحاجة إلى من يشجعه على ذلك، ويزيل عنه الحرج.

«نحن بحاجة إلى المال يا أحمد. لا تنسى أننا لم نطلب شيئاً. هم من عرضوا المال بأنفسهم. لابد أنهم أغنياء ساقهم الله لنا لنحسن من وضعنا، ولنساعدهم في المقابل في العثور على ابنهم. أعتقد أنك يجب أن تعصر ذهنك لتتذكر ملامح الخاطف. سيساعدهم ذلك كثيراً على ما أظن. استعن برغد فذاكرتها حديدية ما شاء الله».

أومأ أحمد برأسه، بينما شعرت رغد بمزيد من الغبطة. لقد أصبحت ذات دور فعال في القصة.

أخرج هاتفه المحمول من جيبه وطلب أحد الأرقام المدونة. بعد رنتين أجاب أحدهم.

«السلام عليكم».

«وعليكم السلام ورحمة الله».

«أنا أتصل بخصوص المنشور الذي سلمتموه لنا اليوم. أنا ورغد».. توقف لحظة «ابنتي الصغيرة. نجزم أننا رأينا ولدكم يختطف على يد رجل حمله عندما كان فاقد الوعي، وابتعد به بينما كان الجميع منهمك في إسعاف المصابين».

شعر أيهم على الطرف الآخر من الخط أن الأمر جدي، وأن المعلومة حقيقية «أعطني عنوانك من فضلك يا سيد...».

«أحمد. اسمي أحمد ناصر الدين».

«أعطني عنوانك يا سيد أحمد، وسنأتيك في الحال لتخبرنا بما شاهدتماه بالتفصيل».

«نعم. سأعطيك العنوان حالاً، ولكن ماذا عن...؟» منعه حياؤه من ذكر النقود صراحة رغم غمزات ولكزات زوجته المتكررة.

«لا تقلق بخصوص المكافأة. سأحضرها معي».

«شكراً. شكراً جزيلاً. سنبذل جهدنا في إعطائكم معلومات دقيقة، وندعو الله أن يسلّم ولدكم». أعطاه العنوان وأقفل الخط. طمأن زوجته بأن النقود في الطريق إليهم.

أمسك بيد ابنته. «أمامنا مهمة غاية في الأهمية. أنا أعتمد عليك في تذكيري بملامح الشخص الذي خطف الصبي. انتبهي، يجب أن يكون وصفك دقيقاً، ولا تعتمدي على خيالك. فقط تذكري ما رأيته ذلك اليوم. اتفقنا؟».

أومأت رغد برأسها: «اتفقنا». شعرت بسعادة غامرة.

15

عزم على اللحاق بهم بأي طريقة. سيبقي مسافة بينه وبينهم كي لا يكتشف أمره. هو يعرف أن لا جدوى من دخوله في مواجهة معهم. لا بد أنهم مسلحون. هو أيضاً مسلح ولكنهم يفوقونه عدداً، وقد يصاب الصبي أثناء تبادل إطلاق النار. ما الخطة إذاً؟ أن يراقبهم من بعيد. أن يعرف المكان الذي سينقلون الصبي إليه عله يتمكن من تحريره بأقل الخسائر. هو مدرك أن خطته تلك محفوفة بالمخاطر. لن يتراجع رغم ذلك. لقد أصبح قناصاً من نوع آخر.

خفف من سرعة سيارته عندما أصبحت المركبة التي يرصدها على مرمى البصر. اقترب أكثر. يفصله عنها سيارتان فقط. قرر الاقتراب أكثر. يريد الاطمئنان على الصبي. ما من ضرر من الاقتراب، فأفراد العصابة لا يعرفون شكله أو هويته. زاد من سرعته إلى أن أصبحت سيارته محاذية للسيارة التي يتبعها. التفت سريعاً نحوها. التفاتة كانت كافية لأخذ صورة مقربة للركاب. ثلاثة رجال وصبي. رجلان في المقدمة، والثالث إلى جانب الصبي في الكرسي الخلفي. لا يزال الصغير مكمم الفم ومعصوب العينين. يبدو عليه الهدوء. ألم يزل مفعول المخدر بعد؟ أم تراه قرر الاستسلام لمصيره؟

«لا تستسلم يا صغيري. فقد جئت لإنقاذك» قال في نفسه.

خفف من سرعته كي لا يجلب انتباه أفراد العصابة. إنهم يقتربون من الساحل. هل ينوون تهريبه عبر البحر؟ في السابق، كان يعتقد أن العصابة تهرب الأطفال عن طريق الحدود البرية مع تركيا. ربما كان مخطئاً.

رآها تنعطف نحو الميناء. تبعها بهدوء. بحث سائقها عن مكان شاغر ليركنها. توقفت السيارة. بدوره توقف في الناحية المحاذية.

عليه الآن أن يكتفي بالمراقبة.

خرج السائق أولاً، وتوجه بمفرده نحو السفن والمراكب الراسية في الميناء.

داخل السيارة، كان الرجل الذي يجلس إلى جانب الصبي يخبره شيئاً. يحذره ربما. كان يشير بسبابته بما يشبه التهديد. «رجل غبي» فكر «القناص». الصبي معصوب العينين، ولا يرى إشاراته التحذيرية، لكنه بالتأكيد يسمعها. رآه يومئ برأسه. أزال الرجل العصابة عن وجهه والمنديل عن فمه. فرك عينيه وتلفت يمنة ويسرة.

بعد دقائق، عاد السائق، وأشار لمن بداخل السيارة بالخروج. أصبحوا جميعاً خارج السيارة مع الصبي الذي بدا هادئاً. مشوا نحو المرفأ.

كان عليه استخدام الناظور الآن كي لا يضيع أياً من التفاصيل. رآهم يقتربون من أحد اليخوت الفارهة ويدخلونه. عليه أن يحفظ الآن شكل اليخت الخارجي.

لونه لؤلؤي لامع. طوله يتعدى العشرين متراً. يرفع علم قبرص. مكتوب على جانبه Shark Sea .

فكر «القناص» «لماذا علم قبرص؟ هل يعني هذا أن المحطة التالية ستكون قبرص؟ أم أنها المحطة الأخيرة؟» بكل الأحوال عليه تحديد خطوته هو التالية.

بقي في مكانه مترقباً. بعد قليل، عاد رجلان من الثلاثة وركبوا السيارة وانطلقوا بها. هذا يعني أن الصبي بقي مع رجل واحد في اليخت، إضافة إلى من كان موجوداً أصلاً هناك.

فكر قليلاً ثم قرر الخروج من سيارته والتوجه إلى المرفأ ليراقب اليخت بشكل أفضل، ويحاول معرفة عدد من فيه.

تجوّل بهدوء. أصبح محاذياً لليخت القبرصي، ولكنه بعيد بمسافة كافية كي لا يجلب الأنظار. تظاهر بأنه يراقب طيور النورس التي ملأ ضجيجها المكان. كان الجو ملائماً في الحقيقة للنزهة. فالسماء صافية تتخللها بعض السحب العابرة. نسيم البحر رقيق ويشفي العليل. خيوط الشمس الذهبية تحمل الدفء للمتجولين في هذا الصباح الجميل. للحظات تخيّل «القناص» نفسه وقد خرج للنزهة مع زوجتيه وابنه الجميل. هو يمشي في المقدمة ويمسك يد ولده المحبوب، بينما تتبعانهما زوجتيه وقد ظهرتا كشقيقتين مقربتين.

«علمني الصيد يا أبي».. قال «القناص» لنفسه.

«عندما تكبر يا غسان سأعلمك. ستكون صياداً ماهراً كأبيك». رد عليه.

فجأة أصدرت إحدى السفن نفيراً عالياً أيقظه من أحلامه. بينه وبين نفسه، لم يجد تفسيراً لقيامه بتخيّل غسان على أنه ولده.

صرف هذه الأفكار عن ذهنه وعاد ليراقب اليخت.

استطاع أن يلمح ثلاث فتيات في الداخل. أشكالهن توحي بأن أعمارهن لا تتجاوز الثالثة والعشرين. كن حسناوات، ما جعله يخمن أنهن يعملن على ترفيه صاحب اليخت. في زاوية أخرى، استطاع رؤية الرجل الذي كان جالساً إلى جانب الصبي في السيارة. رآه واقفاً يتسامر مع شخص آخر. لم يكن الصبي بصحبته.

أمعن النظر وفتش بعينيه أرجاء اليخت بحثاً عن الصغير من دون جدوى. «ربما كان في الطابق العلوي».. فكر «القناص». من مكانه، لم يكن باستطاعته رؤية ما يجري هناك.

إلى جانب اليخت، كانت ترسو سفينة صيد صغيرة. اقترب منها. استأذن أحد بحارتها بالصعود إليها لالتقاط بعض الصور. لم يوافق. حاول مجدداً. لم يفلح. فكر للحظات. تنبه لسبب الرفض. دس يده في جيبه وأخرج بعض النقود. كرر المحاولة. تذللت الصعاب وقوبل بالترحاب.

صعد إلى السفينة. جال حولها والتقط بعض الصور بكاميرا هاتفه المحمول. التقط صوراً جيدة لليخت كذلك. اقترب من حافة السفينة. أصبح بنفس مستوى الطابق الثاني من اليخت. دقق النظر. استطاع رؤية غسان جالساً مطأطئ الرأس كالحمل الوديع إلى جانب رجل منتفخ البطن. كان الرجل يمسد شعر الصبي ويتحدث إليه مبتسماً.

استغل الفرصة، فوجه الكاميرا نحو اليخت وأخذ صورة للرجل مع الصبي. من حسن حظه، لم ينطلق الفلاش نظراً لسطوع الشمس، وهكذا لم ينتبه الرجل إلى أنه قد تم تصويره.

فكر بالخطوة التالية. عليه متابعة المراقبة. ولكن ماذا سيفعل إن تحرك اليخت؟ لن يكون بحوزته وسيلة للحاق به. لو لم تكن البلاد مقلوبة رأساً على عقب لاتصل بالشرطة وطلب منهم تحرير الصبي.

ما هي إلا دقائق ورأى الرجل يترك الصبي وينزل إلى الطابق السفلي. أسرع هو فغادر السفينة، ووقف مجدداً بمحاذاة اليخت لمراقبته. خرج الرجل الذي كان يجلس في السيارة. بقي صاحب اليخت وأحد موظفيه، إضافة للفتيات الثلاث وغسان. صعدت إحدى الفتيات إلى الطابق العلوي، حيث يجلس الصبي، بينما توجه الموظف نحو قمرة القيادة. بقى الرجل السمين بصحبة الفتاتين يوزع عليهما القُبل.

ما هي إلا لحظات وسمع صوت محرك اليخت، وقد بدأ بالعمل، استعداداً للانطلاق. عليه التصرف بسرعة لإيجاد طريقة لإيقاف اليخت، وإلا

فقد الصبي إلى الأبد.

من دون تفكير أو سابق إنذار وجد نفسه يقتحم اليخت.

«أرجو المعذرة. إلى أين يتوجه هذا اليخت؟» وجه كلامه إلى صاحب اليخت.

«هذا يخت خاص. مو شغلك وين رايحين».. قالها بلكنة غريبة فضحت أصله غير العربي. ربما كان قبرصياً أو من تركيا. خمّن القناص.

«معك حق. أرجو المعذرة. لكني أعمل في إدارة الجوازات التابعة للميناء، وقد طُلب منا اليوم التحقق بشكل مكثف من هويات وجنسيات المغادرين من البلاد».

«لقد مر بنا المفتش قبل قليل ومنحنا الإذن بالانطلاق».

عرف أنه يكذب، فعلى الأغلب تمت رشوة المفتش كي لا يقوم بأي تفتيش. «نعم أعرف. لقد تلقينا هذا الأمر اليوم فقط. إدارة الميناء مهتمة بعمل إحصاء لجنسيات الذين يغادرون البلاد انطلاقاً من هذا الميناء يومياً. أنا بحاجة فقط إلى رؤية جوازات سفر جميع المتواجدين في اليخت، وسأترككم في أسرع وقت لتتابعوا رحلتكم. أعتذر مجدداً عن الإزعاج الذي سببته لكم. والآن يرجى أن تجهزوا جوازات السفر، وسأمر عليكم واحداً واحداً لتفقدها. أنتم متوجهون إلى لارنكا.. أليس كذلك؟».

«نعم إلى لارنكا، ولكن لا داعي لقيامك بذلك بنفسك. اجلس هنا وسنأتيك بالجوازات لتتفقدها، ولكن قبل ذلك أود رؤية بطاقتك الشخصية لأتحقق من هويتك».

لم يحضر جواباً لمثل هذا الطلب. «بالطبع هذا حقك ولكني من العجلة نسيت إحضار بطاقتي معي. سأضطر للعودة إلى مكتبي لأحضرها والرجوع إليكم. سأكون سريعاً. أرجو أن لا تغادروا قبل عودتي، وإلا تسبب ذلك لكم بإزعاج غير مرغوب في زيارتكم المقبلة للبلاد. انتظروني. سأعود فوراً».

خطى بضع خطوات نحو الخلف وغادر اليخت، وبمجرد أن أصبح بعيداً عن ناظرهم حتى أطلق العنان لساقيه، قافلاً إلى سيارته. لقد توقع أن يرسل صاحب اليخت أحد رجاله ليتعقبه وقد صدق حدسه. فما إن دخل السيارة، حتى رأى الرجل الذي كان في قمرة القيادة، وقد خرج من اليخت، وهو يتلفت يمنة ويسرة، كمن يبحث عن شخص ما.

بعد دقائق، عاد الرجل من حيث أتى، وما هي إلا لحظات وبدأ اليخت بالتحرك مبتعداً عن اليابسة.

شعر «القناص» بالضيق، فقد تعقد الأمر، وها هو الصبي يبحر مع العصابة بعيداً إلى قبرص. فكر قليلاً. قرر ألا يستسلم. خرج من السيارة. فتح صندوقها الخلفي وأخرج حقيبة النقود وعاد إلى الميناء.

لم تمر نصف ساعة حتى كان على متن يخت آخر يمخر عباب البحر منطلقاً بأقصى سرعة.

16

لم تستطع لميس إخفاء سعادتها وهي ترى النشاط الذي دب في زوجها. فبعد أن كان لا يترك غرفته إلا نادراً، أصبح الآن لا يكاد يجلس في البيت. منهمك طوال اليوم في تلقي الاتصالات، وتوزيع المنشورات، وزيارة العائلات التي سبق وعانت من حوادث اختطاف. سعادتها تلك كانت منقوصة. فمرور الأيام من دون بصيص أمل في عودة غسان، كان يؤرقها، ويسلب من عينيها النوم. المعلومات التي كان يجمعها أمجد عن عمليات الاختطاف والعصابات التي تقف وراءها، كانت مرعبة. كثيراً ما كانت تستيقظ في جوف الليل فزعة من رؤية ولدها الوحيد، وقد شُق بطنه، واستخرجت أعضاؤه لبيعها. تارة أخرى كانت تراه وقد تكالب عليه رجال أشرار يودون الاعتداء عليه جنسياً وهو يصيح مستغيثاً بها. في تلك الليالي، لم تكن تجرؤ على العودة إلى النوم. كانت تبكي لساعات ولكن من غير صوت كي لا توقظ أيهم. كانت مدركة لحجم المعاناة التي يشعر بها. كانت تعرف تمام المعرفة أنه لم يتعافى بشكل كامل. ما زال غير قادر على تحمل لمساتها. كانت تراقب ملامح وجهه عندما تحاول التقرب إليه أو معانقته. كان وجهه وقبضتاه المشدودتان تفشيان ما يشعر به من ضيق كلما مست جسده. كانت تتغاضى عن ذلك، وتحاول ألا تشعره بأنها على علم بما يحس به من نفور. هي تعرف أن هذا الأمر خارج عن إرادته، وأن عودته إلى طبيعته ستستغرق وقتاً ليس بالقصير. ما يهم الآن حقاً هو استعادة غسان بأي طريقة.

في اليوم السابق، ذهبت مع زوجها وأخيه في زيارة لعائلة زعمت أن لديها معلومات حول غسان وطريقة اختطافه. تبيّن أن طفلة وأبيها قد شاهدا بالفعل رجلاً يقترب من غسان بعد أن فقد الوعي ويقوم بحمله والابتعاد به. نجحت تلك الطفلة بوصف الملابس التي كان يرتديها غسان في ذلك اليوم، ما أكد روايتها. استطاعت كذلك - وبمساعدة أبيها - وصف الرجل الذي قام بعملية الاختطاف.

بعد أن ظهر أن المعلومات التي لدى هذه العائلة تبدو حقيقية،

اقترحت لميس الاستعانة بأحد الرسامين للحصول على صورة تقريبية للخاطف. أقرت أنه لولا الأوضاع الأمنية المزرية، لكانت الشرطة أولى بتنفيذ هذه المهمة. لم يضيع أمجد الفرصة، فقد اتصل بأحد رفاقه، وكان موهوباً برسم الأشخاص، وطلب منه الحضور فوراً إلى منزل العائلة التي هم في ضيافتها. لم يمانع صاحب المنزل ولا زوجته، وخاصة أن أيهم طمأنهما ووعدهما بإعطائهما المكافأة كما ذكر في الإعلان.

حضر الرسام واستمع بإنصات إلى وصف الطفلة وأبيها. كانت بعض الصفات مبهمة مثل حجم الخاطف. هل كان سميناً أم نحيفاً؟ طويلاً أم قصيراً؟ بالنسبة لطفلة، كل البالغين طوال وضخام الجثة. أبوها لم يكن واثقاً من ذلك. على الأقل استطاعا وصف هيئته الخارجية وملابسه وبعض ملامح وجهه.

اضطر الفنان إلى إعادة رسم بعد التفاصيل مراراً وتكراراً إلى أن وصل إلى صورة أقنعت الطفلة أنها تشبه الخاطف إلى حد بعيد. كان من الواضح أن ذاكرتها أفضل بكثير من ذاكرة أبيها. لكنه، وبعد أن اكتملت الصورة، أقر هو الآخر أن الرجل الذي رآه في ذلك اليوم يحمل طفلاً فاقد الوعي، يشبه بالفعل الرسم أمامه.

شكرت لميس الفتاة الصغيرة وقبلتها، بينما سلّم زوجها المكافأة إلى ذويها. لم تستطع الأم كتم فرحتها فأخذت تدعو لهم بعودة ولدهم سالماً معافى في أقرب وقت.

فُتح الباب وهموا بالخروج. في اللحظة الأخيرة وقبل أن يغلق الباب خلفهم، صاحت رغد: «لقد نسيت أمراً مهماً».

سمعها من في الخارج. فتحت أمها الباب على مصراعيه.

«ماذا نسيت يا حبيبتي؟» سألت لميس باهتمام.

اقتربت الطفلة من الباب وقالت لهم: «نسيت أن أخبركم أن الخاطف لم يكن يمشي بشكل مستوٍ. أظن أن رجله اليمنى تؤلمه أو ربما يكون أعرجاً».

نظرت لميس وزوجها إلى أبي الطفلة ليؤكد كلامها. ملامحه كانت تشي بأنه غير متأكد من ذلك، وأن ذاكرته لم تسعفه. سأل ابنته: «هل أنت واثقة مما تقولين يا رغد؟».

«نعم. أنا متأكدة». قالتها بنبرة الواثق.

«هذا يعني أنه أصبح لدينا علامة فارقة» ابتسم أمجد. «هذه معلومة غاية في الأهمية».

«هل تذكرت أي شيء آخر تودين إعلامنا به قبل أن نغادر؟» سألت لميس الطفلة برفق.

«هذا كل ما لدي الآن. إن تذكرت أي شيء آخر فيما بعد سأتصل بكم وأخبركم».

ابتسمت لميس وكادت تضحك. لقد ذكرتها طريقة رغد في الكلام بالمسلسل الكرتوني «كونان». يبدو أنها من متابعيه. فكرت في نفسها. شكرتها وذويها وودعتهم.

17

خوفه كان يزداد يوماً بعد آخر. أمله في عودته إلى والديه كان يتلاشى تدريجياً. بكاؤه كل ليلة لم يجد. استغاثاته لم تلقَ أذناً صاغية. جرب كل الطرق. حاول الهرب. توسل إلى خاطفيه. قرأ ما يحفظ من القرآن. دعا الله في الصباح وفي المساء.

لم يتغيّر شيء. لم يعد إلى والديه، وها هو مع مرور كل دقيقة يصبح عنهما أبعد. وصل إلى حالة من اليأس جعلته يستسلم تماماً. أصبح همه الوحيد أن يبقى بخير وألا يتعرض للأذى. يسمع الكلام. يطيع وينفذ الأوامر. أصبح يساق كالحمل الوديع. يأكل ويشرب وينام.

كوابيسه ازدادت شراسة. استسلم حتى في أحلامه. ما إن عرف أن خاطفيه يأخذونه إلى بلد آخر حتى فقد كل رغبة بالمقاومة. أخبروه أنهم سيحسنون معاملته ما دام مطيعاً ولا يتسبب لهم بالمشكلات. أقنعوه أن عودته إلى أهله أصبحت مستحيلة لأن المنطقة التي يسكنون فيها قد قُصفت بالصواريخ، ولم ينج أحد. تمنى أن يكونوا كاذبين أو مخطئين. بكل الأحوال أدرك أنه لن يراهم مرة أخرى.

طريقة كلام ذلك الرجل السمين الذي استقبله باليخت كانت غريبة ولكنها مؤثرة. لم يخدعه بل أخبره الحقيقة. ببطء وهدوء. بابتسامة رقيقة ولكنها مرعبة.

«أنت منذ اليوم أصبحت ملكاً لي. هل تعرف معنى أن تكون مملوكاً؟ سأخبرك. لقد اشتريتك بثمن باهظ وسأبيعك قريباً. هل سبق أن أخذك أبوك إلى سوق الماشية؟ هل رأيته وهو يشتري خروفاً أو دجاجة؟ لقد أصبحت مثلها. تباع وتشترى».. توقف برهة وضحك فبانت أسنانه الصفراء المخيفة. تحسس بطن الصبي وصدره وذراعه «جيد. أنت ممتلئ. أحسنت أمك تسمينك». ضحك ضحكة مدوية أعقبها سعال شديد. أحس بالرعشة التي سرت في جسد الصغير: «لا تخف. لن آكلك كما تؤكل

الماشية. سأبيعك فقط يا نعجتي الصغيرة. لا تغضب لأني سميتك نعجة ولكن جسمك رخو كالنعجة الصغيرة». ضحك مجدداً.

«اسمعني جيداً. ستكون بخير. سأبيعك إلى أسرة ألمانية ثرية جداً. سيعاملونك كأمير. ستنسى حياة البؤس التي عشتها مع والديك في هذا البلد الذي أصبح خراباً. عليك فقط أن تطيعني وتسمع كلامي. موافق؟».

فكر قليلاً. ثم أومأ برأسه مستسلماً لقدره.

«عليك الاعتياد على اسم جديد. سنناديك منذ اليوم توماس. اسم جميل. أليس كذلك؟» ابتسم للصبي.

«توماس. توماس» ردد الصبي محاولاً الاعتياد على الاسم.

«لقد أعجبك. أليس كذلك؟» غمزه وربت على رأسه ثم أضاف: «ستتعلّم اللغة الألمانية كي تتمكن من التخاطب مع عائلتك الجديدة. أنصحك ألا تتحدث أمامهم عن حياتك السابقة. إن أصروا أخبرهم أنك فقدت والديك في الحرب. لا داعي للتفاصيل. إياك أن تخبرهم عن قصة البيع والشراء، وإلا تعرضت لغضبي. لن يعجبك غضبي أبداً» أصبحت عيناه تقدحان شرراً. استمتع للحظات بنظرة الرعب في عيني الصبي قبل أن يستدرك: «لكني أرى أنك ولد مطيع ولن تعرض نفسك للخطر. أليس كذلك؟».

أومأ برأسه مجدداً.

«لا بد أن تسمعني إجابتك».

رفع رأسه ولكن أبقى نظره منخفضاً: «نعم. سأسمع الكلام وأنفذ أوامرك».

«أحسنت يا توماس. ولد مطيع».

في ذلك اليوم، حدث أمر غريب لم يستطع تفسيره. كان غسان في الطابق العلوي عندما سمع شخصاً يدخل اليخت ويتحدث إلى سيده. كان صوته مألوفاً. قرر التوجه إلى الطابق السفلي واستطلاع الأمر. نزل بضع درجات على السلم بما يكفي لاستراق السمع ورؤية الزائر صاحب الصوت المألوف. أصيب بالدهشة عندما اكتشف أنه لم يكن سوى خاطفه الأول. ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟ ولماذا يدعي أنه موظف في الميناء؟ أليس هو من باعه لهم؟ لماذا لَم يتعرفوا هم عليه أيضاً؟ من الواضح أنهم لم يلتقوا به من قبل. لم يستطع فهم أي شيءٍ مما جرى. عاد أدراجه إلى الأعلى. هل يسأل مالكه الجديد عن سر ما حدث؟ خشي أن يغضبه ذلك. تذكر أن عليه أن يسمع ويطيع فقط. قرر أن لا يخبر أحداً بما يعرفه.

اضطر لدفع مبلغ كبير ليتسنى له الانطلاق في هذا اليخت الخاص. طلب من صاحبه اليوناني أن يوصله إلى ميناء لارنكا، وينتظره بضع ساعات، ثم يعود به مع صبي صغير إلى ميناء طرطوس، من دون توجيه أي أسئلة. طوال الطريق كان يحاول وضع خطة لما هو مقدم عليه. هدفه الرئيسي هو إعادة اختطاف الصبي من بين أيدي العصابة والعودة به إلى سوريا. تحقيق ذلك سيكون غاية في الصعوبة، وخاصة إذا لم يستطع اللحاق بهم قبل مغادرتهم للميناء القبرصي. لم يكن لديه أي فكرة عن وجهتهم النهائية. عليه أن يصل مبكراً ليتمكن من مراقبة العصابة، واغتنام أي فرصة سانحة للاختلاء بالصبي، وجره بعيداً عن براثنهم. طلب من الربان أن ينطلق بأقصى سرعة.

كانت الشمس قد بدأت بالغروب عندما اقترب من الشواطئ القبرصية. غادر اليختَ مسرعاً بمجرد رسوه في المرفأ. في البداية، أخذ يتفقد السفن والمراكب بحثاً عن يخته المنشود. بدا وكأنه يبحث في غابة من السفن، فالميناء كبير للغاية، وعدد السفن التي ترسو به كان أكبر مما توقع. عدل عن ذلك وتوجه إلى إدارة الميناء. أخبرهم أنه يبحث عن يخت وصل قبل قليل من سوريا ويحمل اسم Shark Sea . فوجئ عندما أخبره الموظف أن هذا اليخت سيصل في غضون دقائق معدودة. هذا يعني أنه وصل قبلهم. شكره كثيراً عندما حدد له المكان الذي سيرسو فيه بعد قليل.

لم يكذب خبراً بل أسرع لاتخاذ مكان مناسب للمراقبة. ولم تمضِ سوى لحظات حتى لمح اليخت وهو يقترب من المرفأ ويستعد للرسو. استعان بناظوره للبحث بين النوافذ عن الصبي. وجده في مكانه في الطابق العلوي، وقد تكوّر على نفسه وغط في نوم عميق. خرجت الفتيات الثلاث أولاً وتبعهن صاحب البطن الكبير. مشوا على الرصيف مشية متثاقلة مبتعدين عن اليخت. بدا الرجل السمين وكأنه يودعهن. بعد قليل، خرج قائد اليخت وأشعل سيجارة، ومشى بالاتجاه المعاكس نحو صخرة بارزة اعتلاها.

أصبح اليخت خالياً إلا من الصبي. باتت الفرصة سانحة للتحرّك. خرج من مخبئه وتوجه بهدوء نحو هدفه. تعمد رفع ياقة ردائه والنظر في الاتجاه المعاكس عندما مر بالسمين وفتياته. اقترب من اليخت. تلفت يمنة ويسرة. دخل إليه مسرعاً وصعد مباشرة إلى الطابق العلوي. كان الصبي لا يزال نائماً. هزه بلطف وناداه باسمه «غسان. غسان. هيا قم بسرعة. لقد

جئت إلى قبرص خصيصاً لأعيدك إلى أهلك».

تململ الصبي. هزه بقوة أكبر. فتح عينيه فزعاً، وعندما رأى خاطفه الأول صرخ بأعلى صوته. من حسن الحظ لم يكن أحد في الجوار ليسمعه. أسرع منقذه فوضع يده على فمه. «لا تصرخ. سيفتضح أمرنا. لقد جئت لأنقذك وأعيدك إلى أهلك».

هدأ الصبي قليلاً، ولكن كانت الحيرة بادية على وجهه.

«هيا بنا. اتبعني وإياك أن تصرخ» ورفع يده عن فمه.

«أين نحن؟ وأين ذهب الجميع؟ ماذا فعلت بهم؟ هل قتلتهم؟ هل ستعيد بيعي لأناس آخرين؟».

«توقف عن كيل هذه الأسئلة. أعدك بأني سأخبرك الحقيقة، ولكن بعد أن نخرج من هنا. اتبعني فقط».

نزل من الطابق العلوي وتبعه الصبي. أمسك بيده بلطف: «دعنا نخرج بسرعة قبل عودة أفراد العصابة».

خرجا سوياً من اليخت إلى الرصيف. مشيا باتجاه بالميناء ولكن بحذر شديد.

فجأة، أفلت الصبي يده وانطلق بأقصى سرعة.

«اللعنة. توقف أيها الغبي» صاح خلفه ولكن من دون جدوى. تلفت حوله وأخذ يلحق به بهدوء كي لا يلفت الأنظار.

ما هي إلا لحظات، ولمح الرجل السمين وهو يجر الصبي. لقد أمسك به.

«سيدي أنظر. لقد فررت من هذا الشخص الذي أراد اختطافي مجدداً» وأشار إلى منقذه.

انطلق الأخير مهرولاً وقد نسي ما تعانيه رجله من عرج. واختفى بين جموع المسافرين.

هز السيد رأسه: «قلت أراد اختطافك مجدداً؟» لم يكن ينتظر جواباً. كان شهيراً بفراسته.

«هذا هو القناص إذاً!».

19

«وماذا بعد؟» تساءل أيهم مخاطباً زوجته. «أصبح لدينا صورة للمختطِف. عرفنا أنه يعاني من عرج أو إصابة في رجله اليمنى. ماذا نستطيع أن نفعل بهذه المعلومات ما دام جهاز الشرطة معطل؟».

كان أمجد قد استطاع تمرير الصورة إلى أحد أصدقائه، وكان ضابطاً

تقاعد بمجرد قيام الثورة. أخبره أنه حاول مقارنة صورة المختطِف بصور المشتبه بهم المخزّنة في أرشيف الشرطة. لم يعثر على صور مطابقة أو قريبة الشبه بالرسم.

«نستطيع طباعة صورة المختطف إلى جانب صورة غسان، ونضع إعلاناً جديداً للإبلاغ عن رؤية أي منهما» حاولت لميس المساعدة.

«أمجد يقوم بذلك الآن، ولكن ماذا لو كان من مدينة أخرى أو حتى بلد آخر، كيف سنصل إليه؟ نحن نوزع منشوراتنا في الأحياء القريبة منا فقط. الأحياء التي لم يندلع فيها القتال بعد. فرص نجاحنا محدودة. نحتاج إلى طريقة لنشر الإعلان على نطاق أوسع».

«ألم ينشر أمجد الإعلان على صفحات الفيسبوك؟».

«بلى قد فعل، ولكن كثير من المناطق تعاني صعوبة الاتصال بشبكة الإنترنت. كما أن أغلب الناس في مثل هذه الظروف لن يكون باستطاعتهم تسديد فواتير الاشتراك بالإنترنت».

أومأت برأسها. لم تشأ أن ترى زوجها وقد أصابه اليأس أو الإحباط. عصرت ذهنها بحثاً عن أفكار جديدة. كانت مستلقية وقتها على سريرها إلى جانب أيهم. ينظر كل منهما إلى السقف ويخاطب الآخر من دون أن ينظر إليه. بين حين وآخر كانت تطلق أناملها بحثاً عن يده. تداعبها عندما تتعثر بها ثم تعود أدراجها عندما يسحب يده لتحاول من جديد بعد قليل.

«نعلن في القنوات التلفزيونية المحلية. تحديداً قنوات المسلسلات. يمكن استقبالها من أي مكان في سوريا. إنها لا تزال تعمل وتنشر إعلانات تجارية رغم الظروف التي تمر بها البلاد. نستطيع أيضاً نشر الإعلان على القنوات الفضائية السورية الخاصة الداعمة للثورة، وبهذا نصل إلى أكبر عدد من المشاهدين. ما رأيك؟» التفتت إليه.

وجدته مبتسماً ينظر إليها.

«فكرة رائعة. أتمنى أن يكون ما تبقى لدينا من أموال كافٍ لذلك. لا تنسِ أن علينا أن نحتفظ بالجزء الأكبر من أجل المكافأة التي نعد بها».

تسللت يدها مجدداً نحوه. مررتها هذه المرة على ناصيته ووجنته. لم يجفل منها كعادته. بقي مبتسماً. تشجعت فداعبت تضاريس وجهه. فوجئت عندما شعرت بقبلة تستقر في راحتها. قبلة صغيرة، لم تدم أكثر من لحظة، لكنها كانت كافية ليدب فيها الأمل. إنه يتعافى تدريجياً.

في ذلك اليوم، عرضا الفكرة على أمجد. تحمس لها كثيراً وأخذ على

عاتقه الاتصال بالقنوات المحلية والفضائية للتنسيق معها لنشر الإعلان.

كان قد انتهى لتوه من وضع تصور لعملية الاختطاف التي تعرّض لها غسان، وتوصل إلى بعض الاستنتاجات التي قرر أن يعرضها على أخيه وزوجته.

«نحن متفقون على أن غسان قد تعرض لعملية اختطاف. كما وقد استنتجنا من قبل أنها لم تكن بغرض الانتقام أو طلب الفدية. وقلنا أن الاختطاف سيكون بدافع المتاجرة. متاجرة بالأعضاء، أو بالرقيق الأبيض أو بغرض التبني. أليس كذلك؟» سألهما ليتأكد من اتفاقهما معه على استنتاجاته الأولية.

أومآ برأسيهما.

«حسناً فكرا الآن معي. نحن نعرف أن عملية الاختطاف تمت عن طريق استهداف الواقفين في طابور الخبز بطلقات تخديرية، انتهت باختفاء غسان، على يد الرجل الذي رأته الطفلة رغد. هذا الحدث يوحي بأن العملية كان مخططاً لها، وأن ولدكما ربما كان مستهدفاً لذاته. ما أقصده أنه ومن واقع البحث الذي أجريته، فإن الاختطاف بغرض المتاجرة بالأعضاء يستهدف عادة المشردين وأطفال الشوارع. فالوصول إليهم سهل، واختفاؤهم لن يسبب قلقاً لأحد. بقي لدينا المتاجرة بالرقيق الأبيض أو بغرض التبني. كلاهما وارد. فغسان صبي جميل يصلح استهدافه لذلك. لكني ما زلت أجد أن عملية الاختطاف التي تعرض لها تبدو أنها قد نفذت من قبل محترف، خطط لها بشكل جيد. لم يكن اختطافه عشوائياً. الملاجئ تعج بالأطفال من كل شكل ولون. لماذا يتكبد الخاطف كل هذا العناء؟ أعتقد أنه تعمد اختطاف ولدكما دون غيره. ما زلت لا أعرف السبب ولكني متأكد أن أحداً ما يود الحصول عليه».

تبادل أيهم ولميس النظرات. لم يعرفا وقتها كيف لهذه المعلومات أن تكون مفيدة لهما في بحثهما عن غسان.

فكر أيهم ملياً في كلام أخيه وحاول تلخيص ما توصل إليه: «أفهم من كلامك أن غسان لديه بعض الصفات التي جذبت الخاطف إليه دون غيره، وأن هذه الصفات إما تكون صفات مطلوبة من زبون مهتم بالرقيق الأبيض، ويبحث عن صبي بمواصفات محددة، تشبه تلك التي لدى غسان، أو لزبون يريد تبني صبي لديه صفات موجودة عند غسان. أليس كذلك؟».

«بالضبط».. أومأ أمجد برأسه مبتسماً. لقد استطاع إيصال فكرته.

«ما أهمية معرفة ذلك؟ كيف سيفيدنا ذلك في استعادة غسان؟»..

سألت لميس، وكانت غير واثقة من جدوى الخوض في هذا النقاش.

«إذا استطعنا حصر الهدف من الاختطاف، نستطيع تركيز جهودنا على البحث في المكان المناسب. ربما قمنا بالاستعانة بمحقق أجنبي لديه الخبرة في هذه الأمور ليبحث عن غسان من خلال اتصالاته بعصابات التبني أو الاتجار بالرقيق. جمع المعلومات مهم جداً يا لميس». استطاع أمجد إقناعها بجدوى ما يفعله.

أما أيهم فقد أعجبته فكرة الاستعانة بمحقق أجنبي. كان يدرك مع ذلك أنه ربما لا يكون قادراً على دفع مستحقاته. قرر تأجيل التفكير في ذلك الخيار ريثما يتبين إن كانت الإعلانات التلفزيونية ستؤتي ثمارها أم لا.

20

لم يستسلم بسهولة. ابتعد قليلاً، ولكنه كان لا يزال قادراً على مراقبتهم عن بعد. مرت نصف ساعة غادروا بعدها المرفأ. سيارة فارهة كانت بانتظارهم. نوافذها سوداء. ركبوها وانطلقت بهم. أزعجه رؤية الصبي وقد أصبح خاتماً في إصبع خاطفه. أين ذهب حماسه واندفاعه للعودة إلى أهله؟ كيف نجحوا في السيطرة عليه وترويضه بهذا الشكل؟

جنونه لم يتوقف. استقل سيارة أجرة، وبصعوبة أقنع سائقها باللحاق بهم بعد أن لوح له برزمة من النقود.

شوارعها وأزقتها المزدحمة لا تختلف كثيراً عن شوارع دمشق أو بيروت. فكر «القناص»، وكانت المرة الأولى التي يزور فيها قبرص.

«لا تقترب من السيارة كثيراً. لا أريد أن يعرفوا أني أتبعهم» قالها بإنجليزية ركيكة.

أومأ السائق برأسه، وكان هو الآخر لا يعرف إلا كلمات قليلة، ثم أشار أمامه وتحدث بكلام غير مفهوم.

«لا أفهم ما تقوله. اتبعهم فقط».

تحدث السائق بعصبية بالمزيد من الكلام غير المفهوم، ثم توقف لحظة - وكأنه يبحث عن الكلمة المناسبة: «إيربورت».

فكر «القناص» «تقصد هذا طريق المطار؟».

«نعم. نعم. مطار».

«إذاً سيسافرون فوراً إلى وجهة أخرى. ولكن كيف سيغادرون قبرص والصبي لا يملك جواز سفر. ظننتهم سيهربونه عبر البحر إن لم تكن قبرص الوجهة النهائية. لم يخطر ببالي أنهم ينوون السفر به بالطائرة. هذا يعني أنهم لا بد وأعدوا جواز سفر مزور، بعد أن التقطوا صورة شخصية له في

مكان ما».. فكر «القناص». «الأمر يزداد تعقيداً. لن أتمكن من السفر خلفهم. أملي الوحيد أن أستعيده قبل دخول بوابة المغادرة».

صدَق السائق، إذ بدت معالم المطار تبدو من بعيد، وما هي إلا دقائق وتوقفت السيارة الفارهة أمام أبواب المطار في منطقة المغادرين. نزل منها الرجل السمين ومعه الصبي، ثم تبعهما شخص ثالث مفتول العضلات.

شاهدهم وهم يدخلون المطار. أعطى السائق أجرته المضاعفة، وتوجه مسرعاً نحو الباب الذي دخل منه الصبي وخاطفاه.

فُتح الباب الأوتوماتيكي ودخل منه «القناص». خطى خطوتين اثنتين قبل أن يهوي على الأرض مترنحاً من شدة اللكمة التي أصابته في رأسه. وقبل أن يتمكن من التفكير بالنهوض أو معرفة مصدر اللكمة، جره أحدهم من قدميه خارج أبواب المطار، وهناك استطاع رؤية وجهه. إنه الشخص مفتول العضلات الذي لمحه قبل قليل يخرج من السيارة الفارهة، ويتبع الصبي وسيده السمين. أوقفه على قدميه واقترب منهما رجل آخر ساعد الأول في دفعه نحو السيارة، وكانت لم تغادر بعد. أحس «القناص» بنصل سكين يُغرز طرفه في جنبه من باب التهديد. مشى معهما ودخل السيارة من دون مقاومة.

«ماذا تريد أيها القناص؟ ألم تستلم نقودك كاملة؟» بلهجة شامية سأله رجل لم يره من قبل يلبس بزة أنيقة.

نزل سؤاله كالصاعقة. من أين عرف أنه القناص؟

«لا تستغرب. في عملنا هذا خطأ بسيط كفيل بكشف المستور. أخبرني الآن بهدوء. ما الذي دفعك على اللحاق بالسلعة؟ ليس هذا من شيمك. ظننتك تعمل باحترافية. ما الذي جرى هذه المرة؟».

لم يدرِ بماذا يجيبه. هو نفسه لا يملك إجابة على هذه الأسئلة. «ربما قررت الاعتزال» اعتدل في جلسته وحاول الظهور بمظهر المتماسك.

«اعتزل. ما شأننا نحن بذلك؟».

«ربما قررت التكفير عن ذنوبي» ابتسم ثم أضاف: «أريد استعادة الصبي. سأدفع لكم ضعف ما دفعتموه لي» بدا جاداً في كلامه.

قطب الرجل الأنيق جبينه: «لكنك تعرف أن ذلك مستحيل. لا تجري الأمور بهذا الشكل. لقد أصبحت السلعة ملكاً لأشخاص آخرين. لا نملك الرجوع في صفقتنا معهم حتى لو أردنا ذلك».

«لن أتراجع حتى أستعيد الصبي».

ضحك الرجل الأنيق ثم نظر إلى ساعته: «بعد قليل ستغادر الطائرة.

لن تعرف أبداً أين سيستقر الأمر بالسلعة. أنصحك بالعودة إلى بلدك واعتزال الأمر حقيقة، وإلا ستعرض نفسك للقتل، وخاصة بعد أن افتضحت أمرك بنفسك».

لم يجادله «القناص». إنه يقول الحقيقة.

لن يستسلم رغم ذلك، ولكنه سيتظاهر بذلك. «حسناً هل بإمكاني الذهاب الآن؟».

«ليس الآن. عد بنا إلى الميناء» أشار للسائق. «أود رؤيتك بنفسي وأنت تغادر المرفأ. لن نؤذيك كرامة لتعاملنا الطويل معك».

لم يتفوه بعدها بكلمة واحدة. كان يحاول الإعداد لخطوته التالية.

21

كانت تتنقل بين القنوات بحثاً عن مسلسل جديد أو فيلم عربي كوميدي، عندما لفت نظرها إعلان غريب ظهر في قناة محلية.

«مكافأة كبيرة لمن يدلي بمعلومات عن هذا الصبي الذي اختطف منذ أسابيع، أو عن خاطفه صاحب الصورة التالية».. قرأت الإعلان بانتباه، ودققت النظر في صورة الصبي الفوتوغرافية، وفي الصورة الأخرى المرسومة باليد لخاطفه.

«يا إلهي. هل يعقل أن يكونا هما نفس الشخصين الذين أيقظاني في الليل قبل أسابيع؟ هو الصبي عينه. وحتى الرسم يشبه ذلك الرجل الذي ادعى أن الصبي ابن أخيه. لقد كان الصبي المسكين صادقاً إذاً» حدثت نفسها.

انتهى الإعلان وانتقلت إلى قناة أخرى.

توقفت. «ذكر الاعلان أن مكافأة كبيرة تنتظر من يدلي بمعلومات» فكرت ثم استدركت: «أخشى أن يلوموني لأني لم أساعد الصبي يومها. ولكن كيف أساعده وأنا امرأة وحيدة؟ حتى الشرطة ما كانت لتستجيب لي في هذه الظروف» أقنعت نفسها.

انتقلت مجدداً إلى القناة التي أذاعت الإعلان. بقيت متسمرة أمام التلفاز، ريثما يعاد بثه. جهزت قلماً وورقة لتسجل رقم هاتف واضع الإعلان. اضطرت للانتظار ساعة كاملة. ظهر الإعلان من جديد، فدونت أرقام الهواتف.

شجعت نفسها وذكرتها بحاجتها إلى المال. طلبت أحد الأرقام.

بعد رنات قليلة: «مرحباً».

«مرحباً. من معي؟» صوت نسائي

«أنا ميساء. أنتِ لا تعرفينني. أتصل بخصوص الإعلان في التلفاز حول الصبي المفقود» تحدثت بنبرة مترددة.

«نعم. نعم. تفضلي. أخبريني ماذا لديك من معلومات عن ولدي» قالتها بلهفة شديدة.

«في إحدى الليالي، قبل أسابيع، طرق أحدهم بابي. كان الوقت متأخراً. كان الطارق هو ولدك، وكان هارباً من رجل يشبه ذلك الذي في الرسم. ادعى الرجل أن الصبي ابن أخيه، وأنه فتىً شقي. أمسك به وخرجا من بنايتنا. قال الصبي يومها أن اسمه حسان أو غسان على ما أذكر» حاولت أن تكون مختصرة في الحديث.

«نعم. صحيح. ولدي اسمه غسان» فرحت لأن هذه علامة على صدق المتصلة فالإعلان لم يذكر اسم الصبي. «شكراً جزيلاً على اتصالك. هل تستطيعين إعطائي عنوانك كي نزورك ونسألك بعض الأسئلة؟» توقفت برهة ثم أردفت: «سنأتيك بالمكافأة بالطبع».

سرت كثيراً: «نعم بالتأكيد»، وأعطتها العنوان كاملاً مع رقم الهاتف.

«شكراً لك سيدة ميساء. سنتصل بك قبل حضورنا إليكِ».

أنهت المكالمة وكلها رجاء أن تكون الزيارة قريبة.

22

أعادوه إلى المرفأ، وشاهدوه وهو يغادر باليخت الذي أتى به. أما هو فقد طلب من سائق اليخت أن لا يبتعد كثيراً، وأن يرجع إلى الميناء بعد نصف ساعة.

اطمأن عندما لم يجد أحداً يتربص به عند عودته. أخبر صاحب اليخت أن باستطاعته العودة إلى طرطوس إن شاء. استقل سيارة أجرة وتوجه إلى المطار مجدداً. حاول هذه المرة أن يكون أكثر حذراً، فاندس بين مجموعة من المسافرين الأوروبيين ودخل إلى المطار. وقف أمام شاشة كبيرة تعرض مواعيد الرحلات المغادرة. نظر إلى الساعة المعلّقة فوق الشاشة. كانت تشير إلى الثامنة مساءً.

أخذ يجري بعض الحسابات.. «وصل الصبي مع خاطفه إلى المطار قبل ساعتين تقريباً. مذكور هنا أن بوابة المغادرة تغلق قبل خمس وأربعين دقيقة من موعد الانطلاق، ما يعني أن أول طائرة كان بإمكانهم اللحاق بها كانت ستغادر في الساعة السابعة مساءً أو قبلها قليلاً. سأفترض أن أكبر مدة يمكن للخاطف انتظارها في المطار هي ثلاث ساعات. في هذه الحالة، فإن آخر رحلة يمكن لهم الذهاب بها ستكون في تمام الساعة التاسعة

مساءً». نظر إلى مواعيد رحلات المغادرة بين الساعة السابعة إلا ربعاً والتاسعة وربع مساءً. توقع أن تكون الوجهة النهائية للخاطف إلى أوروبا الغربية أو شمال أمريكا، فأغلب طلبات التبني تأتي من هناك. وهكذا، استبعد الرحلات المتوجهة إلى الشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا. بقيت رحلات معدودة: الرحلة الأولى في تمام الساعة السابعة إلى فرانكفورت. الرحلة الثانية في تمام الساعة الثامنة إلى أمستردام. الرحلة الثالثة إلى باريس في تمام الساعة الثامنة والربع. الرحلة الرابعة في تمام الساعة الثامنة وخمسين دقيقة إلى لندن. وأخيراً رحلة إلى بروكسل في تمام الساعة التاسعة وعشر دقائق.

تمنى لو استطاع معرفة اسم غسان الكامل ليستفسر من قسم المعلومات العامة على متن أي من هذه الرحلات كان سفره. كان يعرف بالطبع أن العصابة لا بد وأنها منحت الصبي اسماً جديداً.

شعر أنه وصل إلى نهاية مسدودة. بدأ اليأس يتسلل إلى نفسه. فالصبي ربما توجه إلى أمستردام أو فرانكفورت أو باريس أو لندن أو بروكسل. وقد تكون إحدى هذه الوجهات ليست إلا وجهة مؤقتة، سينطلق بعدها إلى بلد آخر، مثل كندا أو الولايات المتحدة. وحتى لو عرف الوجهة النهائية بشكل مؤكد، لن يستطيع اللحاق به، فجميع هذه الدول لا تعطي تأشيرة زيارة لحاملي جواز السفر العراقي.

فجأة خطرت له فكرة مجنونة أخرى قد تودي بحياته أو تودعه السجن.

تحسس جانب رأسه. كان قد تورم قليلاً بسبب اللكمة التي تلقاها قبل ساعتين. توجه إلى أمن المطار. حاول أن يظهر في هيئة يرثى لها. أخبرهم أنه شهد على عملية اختطاف صبي في التاسعة من عمره، وأنه حاول إنقاذه فتعرض للضرب من قبل خاطفيه. أشار إلى التورم في رأسه. بذل مجهوداً كبيراً في شرح الأمر لهم نظراً لضعف لغته الإنجليزية. طلب منهم مراجعة كاميرات المراقبة التي لا بد وسجلت حادثة الاعتداء عليه قرب بوابة الدخول. أخبرهم أن الأمر تم بسرعة، لهذا ربما لم ينتبه له رجال شرطة المطار.

من حسن الحظ، أخذوا كلامه بمحمل الجد، وسارعوا لتفقد تسجيل الفيديو الخاص بالكاميرا الموجهة نحو الباب الأوتوماتيكي في قسم المغادرين. أخبرهم أن الحادثة تمت قبل ساعتين وقليل من الآن. بقليل من الجهد استطاعوا رؤية الصبي وبصحبته رجل سمين وآخر رياضي وهم يدخلون

البوابة. شاهدوا كيف وقف الرجل مفتول العضلات يترصد وبمجرد دخول صاحب الشكوى انهال عليه بلكمة أسقطته أرضاً. أخذوا بعدها ينتقلون بين تسجيلات باقي الكاميرات بحثاً عن الصبي والرجل السمين. توصلوا إلى رقم البوابة التي عبروا خلالها نحو الطائرة. تبين لهم أنهما كانا متوجهين إلى فرانكفورت، وقد أقلعت الطائرة بالفعل في تمام الساعة السابعة مساءً. استطاع أن يعرف منهم معلومة إضافية زل بها لسان أحدهم. الصبي سافر باسم توماس، وفرانكفورت هي وجهتهما الأخيرة. لم يكن لديهما تذاكر إضافية إلى أي مكان آخر.

نظراً لوقوع حادثة اعتداء وشكوى باشتباه في عملية خطف، تم استدعاء الشرطة المركزية للتحقيق في الأمر.

شعر «القناص» بالغيظ، فقد أفلتت العصابة بالصبي، بينما تورط هو في حادثة سيضطر إلى اختراع قصة يكون فيها فاعل خير لا أكثر. ازداد حنقه عندما علم من رجال الشرطة أنهم لا يستطيعون إبلاغ مطار فرانكفورت بأن الصبي تعرض للاختطاف، لأنهم لا يملكون أي دليل على ذلك، إضافة إلى أن التصوير أظهر أن الصبي كان يتحرك وفقاً لإرادته، ولم يكن تحت أي تهديد.

قضى «القناص» ليلته في قسم الشرطة، حيث تم التحقيق معه حول طريقة وسبب دخوله إلى البلاد، وعن علاقته بالرجل الذي اعتدى عليه بالضرب، وعن سبب اقتناعه بأن الصبي قد تعرض للاختطاف.

حاول إقناعهم بأنه سائح عراقي جاء عن طريق البحر لقضاء بضعة أيام في قبرص. وأنه شاهد الصبي في الميناء وهو يستغيث باللغة العربية طالباً المساعدة لتخليصه من مختطفيه. قص عليهم كيف قرر مساعدته، فاستقل سيارة أجرة، وتبعهم إلى المطار، وهناك تعرّض للضرب، ومن ثم الاختطاف لمدة ساعتين قبل أن يطلق الرجل المفتول العضلات سراحه، فما كان منه إلا أن عاد إلى المطار وأبلغ عن الحادث.

احتجزت الشرطة جواز سفره، وأمروه بعدم مغادرة البلاد ريثما ينتهي التحقيق في القضية.

لم يعرف أين يذهب، فاستقل سيارة أجرة، وطلب من سائقها أن يوصله إلى أحد الفنادق الفاخرة في المدينة، حيث قضى ليلته بعد أن اضطر لدفع أجرة الغرفة لمدة أسبوع مقدماً، لأنه لم يكن يحمل جواز سفره، وإنما صورة عنه أخذها من مركز الشرطة.

لم يستطع النوم ليلتها، فصورة الصبي لم تفارق خياله. «لقد أصبحت

توماس الآن يا غسان. يا لك من صبي مسكين. ماذا باستطاعتي أن أفعل أكثر من ذلك؟ كيف لي أن أكفر عن ذنبي؟ ألا يكفيك يا غسان أن كنت سبباً في تغييري. ما عدت قناصاً وما عاد باستطاعتي الخطف بعد اليوم» عاهد نفسه في تلك الليلة أن يقوم بأمر ما بمجرد أن يسمح له بالسفر والعودة إلى سوريا.

لقد قرر البحث عن عائلة غسان.

23

كانت هذه الزيارة غاية في الأهمية من وجهة نظر لميس. فالمعلومات التي أدلت بها المتصلة تشير إلى أحداث تلت عملية الاختطاف، وهو تحديداً ما يهم، لأنه يساعد في معرفة ما حدث لغسان بعد اختطافه.

استقبلتهم السيدة بوجهٍ بشوش، وأجلستهم في غرفة الضيوف. كان بيتها مرتباً، ويدل أثاثه المتواضع على ذوقٍ رفيعٍ رغم بساطته.

قصت من جديد على مسامع أيهم وزوجته وأخيه ما حصل تلك الليلة، ولكن بالتفصيل هذه المرة. استنتجوا من كلامها أن تلك الأحداث ربما جرت في نفس يوم الاختطاف أو بعده بيوم أو يومين. اهتمت لميس بالسؤال عن حال غسان، وهل كان يبدو مصاباً أو متعرّضاً لأي أذى. نفت المرأة ذلك، ولكنها لم تُخف أنها شعرت أنه ربما كان يشعر بالخوف. حاولت جهدها كي لا تبدو وقد تخلّت عن الصبي عندما استنجد بها. أعادت التأكيد على أنها امرأة وحيدة تخشى المخاطرة.

اهتم أيهم وأخيه أكثر بالسؤال عن الخاطف، وهل يبدو فعلاً كالرسم المنشور. ساعدتهم قليلاً في وصف ملامح وجهه التي كانت مبهمة فيما سبق. لم تستطع أن تؤكد أمر العرج. لم تستطع كذلك أن تخبرهم من أين جاء الصبي وخاطفه ولا إلى أين ذهبوا.

طلب منها أمجد أن تعصر ذهنها بحثاً عن أي معلومة مهما كانت تافهة أو تظنها غير مؤثرة.

أغلقت عينيها وفكرت ملياً في محاولة لاستعادة أحداث تلك الليلة. كل ما تذكرته أنها وقتها كانت تشعر بنعاسٍ شديد، لهذا لم يكن من السهل عليها الآن تذكر كل التفاصيل. فتحت عينيها فجأة: «تذكرت أمراً ما، ولكني غير متأكدة إن كان ذا أهمية تذكر».

«لا عليك. أخبرينا بكل ما يجول في خاطرك».. شجعتها لميس.

«الخاطف لم يكن يتحدث بلهجة سورية. كان يحاول تقليد اللهجة الشامية، ولكنه لم يفلح في ذلك».

«هذه معلومة مهمة للغاية. قد يعني ذلك أن الخاطف من جنسية أخرى» شكرها أمجد.

سألها أيهم سؤالاً لم يبدو مهماً في البداية: «ماذا كان يرتدي الخاطف عندما رأيته مع غسان؟».

فكرت ملياً في السؤال، واستغربت أن هذا الأمر لم يخطر ببالها من قبل: «كان يرتدي بيجاما».. قالت بصوت منخفض.

انتبه أمجد لأهمية الجواب: «بيجاما؟ بيجاما مخصصة للنوم؟».

أومأت برأسها، واكتشفت كم كانت غبية، إذ فاتتها مثل هذه المعلومة.

تبادل أمجد وأخيه نظرات معبرة وابتسما في نفس الوقت.

«ما أهمية أن يرتدي بيجاما أو جينزاً أو أي شيء آخر؟».. استفسرت لميس وكانت لم تفهم بعد المغزى.

نظر إليها زوجها: «هل سبق لي أن خرجت من البيت بالبيجاما؟».

أجابت بدون تفكير: «لا. بالتأكيد لم تفعل!».. توقفت لحظة ثم أردفت: «إلا عندما تكون ذاهباً إلى البقالة أسفل البناية».. فهمت الآن مدى أهمية الأمر: «تقصد أن الخاطف نزل إلى الشارع بالبيجاما لأنه ربما لم يبتعد عن منزله».

«بالضبط. منزل الخاطف قد يكون قريباً جداً من هنا. ليس ذلك وحسب، وإنما أتوقع أن غسان حاول الهرب في تلك الليلة، وجاء إلى هذه البناية طلباً للمساعدة قبل أن يلحق به الخاطف، والذي لم يكن لديه الوقت الكافي لتغيير ملابسه فخرج بالبيجاما». كان الجميع يشعر بالحماسة نتيجة لهذا الاكتشاف.

«أنتِ متأكدة أن الخاطف لا يسكن في هذه البناية، وأنه خرج تلك الليلة منها بعد أن أمسك بغسان؟ أليس كذلك؟».. سألها أيهم محاولاً إقصاء ذلك الاحتمال.

«نعم. هذا صحيح».

«هل هناك الكثير من البنايات في هذه المنطقة؟ بدا لي أنها منطقة معزولة ومقفرة نوعاً ما».

«هناك بناية واحدة مكتملة ومأهولة تبعد مئة متر تقريباً. أما باقي البنايات فهي قيد الإنشاء. هذه منطقة حديثة يجري تطويرها. لقد تأخر إكمال المشروع بسبب سوء الأوضاع الأمنية» كانت تحاول الدفاع عن فكرة استثمارها في هذا المكان البعيد عن المدينة.

أخذ قلب لميس ينبض بشدة: «أين هي تلك البناية؟».

نهضت المرأة وفتحت الستائر وأشارت بسبابتها إلى الخارج نحو بنايةٍ وحيدةٍ مكونة من أربعة طوابق: «هذه هي البناية الوحيدة المكتملة. لم تُسكن جميع شققها بعد. أظن أن كل طابق به شقة واحدة مأهولة فقط».

«هذا يعني أننا ننظر الآن إلى منزل الخاطف» قال أيهم.

«ماذا ننتظر؟ لنشكر السيدة على استقبالنا في بيتها وإمدادنا بهذه المعلومات المهمة، ولنتوجه فوراً إلى تلك البناية بحثاً عن غسان». لم تستطع لميس مقاومة ما تشعر به من حماسٍ ممزوجٍ بخوف.

شكروا صاحبة المنزل وسلمها أيهم المكافأة. خرجوا بعدها وقد عزموا على زيارة الخاطف في عُقر داره.

«ماذا سنفعل؟ هل سنطرق أبواب الشقق نسأل أصحابها إن كانوا مجرمين أم لا؟» سأل أمجد بسخرية ثم أضاف: «قد يكون الخاطف مسلحاً».

لم تفكر لميس بهذا الاحتمال. كان كل اهتمامها منصباً على فكرة تفتيش الشقق بحثاً عن ابنها.

«علينا التروي والتفكير بخطة» قال أيهم محاولاً كبح حماسه واندفاعه هو الآخر.

فكر أمجد: «في البداية، علينا تحديد الشقق المأهولة، والتعرّف على سكانها. أقترح أن نطرق الأبواب، ولكن ليس للسؤال عن غسان وخاطفه، وإنما بغرض التسوّل».

تبادل أيهم وزوجته نظرات الاستغراب والاستهجان.

أكمل أمجد: «أقترح أن تتظاهر لميس بأنها متسوّلة فقدت عائلتها في الحرب، ولم يتبقى لها سوى طفل وحيد تعيله. وأنها بحاجة ماسة إلى النقود. عليكِ جمع أكبر قدر من المعلومات. استخدمي ذكاءكِ».

«ولماذا لا نذهب سويا؟» سألت السؤال وتراجعت عنه، لأنه ليس من المنطقي أن يطلب رجلان وامرأة المساعدة بهذا الشكل.

فكر أيهم في اقتراح أخيه. كان اقتراحاً جيداً ولكنه لا يخلو من مخاطرة. «أظنها فكرة جيدة. أقصد تظاهر لميس بأنها متسوّلة. فالنساء يمكن تصديقهن بسهولة على عكس الرجال، ولكن بكل الأحوال يجب اتخاذ الحيطة والحذر، وإعلامنا فور حصولك على معلومات عن الخاطف أو عن غسان. سننتظرك في السيارة أسفل البناية. إياك والتهور. لا تنسي أن

الخاطف ربما يعرف شكلك» نبهها مجدداً.

وافقت على الذهاب بمفردها، وعزمت على بذل جهدها في جمع المعلومات والعودة في أسرع وقت. تغلّب شوقها لابنها على ما تشعر به من خوف. نظرت إلى ملابسها. وجدت نفسها أنيقة زيادة عن اللزوم. فكرت قليلاً. ربما كان ذلك أدعى للتعاطف معها. فثيابها توحي أنها كانت من أسرة موسرة الحال فيما مضى. كثيرون يتعاطفون مع الغني إن أصبح فقيراً فجأة. والبعض قد يشمت به.

توجهت نحو مدخل البناية. ترددت لحظات ثم عزمت أمرها ودخلت. طرقت باب إحدى الشقق في الطابق الأول. لم يجب أحد. وجدت أن كل طابق يحتوي على شقق ثلاث. طرقت باب شقة أخرى. فتح الباب طفل صغير. طلبت منه أن ينادي أمه أو أي أحد بالغ تكلّمه.

جاءت الأم. بدأت لميس تروي قصتها الملفقة. لم تمهلها الأم: «الله يعطيك»، وأقفلت الباب قبل أن يتسنى لها طلب أي شيء.

طرقت باب الشقة الأخيرة في ذلك الطابق. لم يجب أحد. انتقلت إلى الطابق الثاني. طرقت باب الشقة الأولى ثم الثانية. لم يجب أحد. فتاة في السابعة عشر من عمرها فتحت باب الشقة الثالثة. استمعت إلى قصة لميس كاملة. غابت قليلاً وعادت وفي يدها بعض الأوراق النقدية: «هذه من والدي. لقد أصيب بالشلل قبل أشهر. يطلب منك الدعاء له».

استغلت لميس الفرصة: «هل بإمكانك يا عزيزتي أن تخبريني أي الشقق مسكونة في بنايتكم هذه كي أتوجه إليها مباشرة، ولا أطرق الباب على شقق خاوية. سأكون شاكرة جداً أيضاً إن أخبرتني القليل عن سكان هذه الشقق كي أعرف على من أطرق الباب، فأنا كما ترين لست معتادة على هذا الأمر، فقد كنت من عائلة ثرية قبل أن يُقصف بيتنا، وأفقد كل أفراد عائلتي. أنا خجولة جداً وأخشى أن أنفجر باكية إن أساء أحدهم معاملتي».

كان ذلك كافياً للفتاة لتقدم لها تقريراً تفصيلياً عن سكان البناية.

«في الطابق الأول؛ شقة رقم 2 مسكونة. تقطنها عائلة مكونة من خمسة أفراد. الأم متعجرفة لا أنصحك بطرق بابهم».

أومأت لميس متفهمة.

«في طابقنا هذا؛ شقتنا الوحيدة مسكونة. أعيش أنا وأبي وأمي فقط. أمي تعمل طوال النهار لتعيلنا. في الطابق الثالث؛ شقة رقم 7 مسكونة. يعيش فيها رجل عراقي مع زوجته السورية. الزوجة طيبة للغاية. زوجها

يغيب كثيراً عن المنزل. لم أره في الحقيقة منذ أسابيع. أما الطابق الرابع فهو غير مسكون».

شكرت لميس الفتاة ودعت لأبيها بالشفاء العاجل. انتظرت حتى أقفلت الباب ونزلت مسرعة. لقد أصبح لديها ما يكفي من المعلومات. يستطيعون الآن زيارة الشقة رقم 7 سوياً.

24

طرقت لميس الباب. لم يفتح أحد. أشار أيهم لها للمحاولة مجدداً. كررت طرق الباب بقوة أكبر. سمعوا امرأة بالداخل تطلب منهم التريّث ريثما تصل إلى الباب.

انتظروا لحظات ثم فتح الباب. «أرجو المعذرة، فقد كنت نائمة. بماذا أستطيع مساعدتكم؟».

كانوا قد قرروا قول الحقيقة، بعد أن عرفوا أن زوجة الخاطف امرأة طيبة. أخرجت لميس من حقيبتها صورة واضحة لغسان. «هل تعرفين الصبي صاحب هذه الصورة؟ هل رأيتهِ من قبل؟».

تناولت الصورة وتمعنت فيها. ظهرت علامات السرور على وجهها: «إنه غسان. عزيزي غسان. أنتم عائلته. أليس كذلك؟».

أومأت لميس بعد أن تبادلت نظرات الاستغراب مع زوجها وأخيه: «أنا أمه، وهذا أبوه، وذلك عمه».. أشارت إلى أيهم وأمجد.

«تفضلوا. أهلاً وسهلاً. شرفتمونا» فتحت الباب على مصراعيه فدخلوا. أجلستهم في الصالون.

«أنا سعيدة جداً بزيارتكم. ولكن لِم لَم تحضروه معكم؟ أقصد غسان. أين هو؟ لقد اشتقت إليه. لقد كان صبياً جميلاً وهادئاً. ربما ليس هادئاً كثيراً، وخاصة بعد أن هرب من نافذة غرفته» ضحكت ثم أكملت: «لابد أنه أخبركم بذلك. كانت ليلة متعبة. لقد أحببته كثيراً. لماذا لَم يأتِ معكم؟ أخبروه أني حزنت لأنه لم يأتِ لزيارتي». فجأة أدركت أنها كانت تتكلّم طوال الوقت، ولم تفسح للزوار مجالاً للحديث. «أرجو المعذرة. لا تؤاخذوني. فأنا كثيرة الكلام» ضحكت مجدداً ثم أردفت: «يا لي من امرأة قليلة الذوق. لم أقم بعد بواجبات الضيافة. ماذا تشربون؟ شاياً أم عصيراً؟ لن أعرض عليكم القهوة لأنها تقدم في نهاية الزيارة وقد تظنون أني أود منكم الرحيل. الأمر ليس كذلك أبداً. أنا سعيدة بزيارتكم، لكني عاتبة على غسان لأنه لم يأتِ معكم....».

«شاي من فضلك. لنا جميعاً. شكراً لك».. قاطعها أيهم بعد أن فقد

الأمل في أن تتوقف بمفردها.

«اختيار موفق. شاي أحمر أم أخضر. وكم ملعقة السكر؟ السكر ضار جداً. لكن لا. لا تسيئوا فهمي. لست بخيلة. تستطيعون طلب ما تشاؤون من السكر...».

قاطعها مجدداً: «شاي أحمر. ملعقة سكر واحدة لكل منا». أراد أن يشكرها مجدداً، ولكنه خشي أن يكون ذلك سبباً للبدء بجولة جديدة من الحديث المتواصل الأحادي.

أومأت برأسها وتوجهت إلى المطبخ.

تبادلوا النظرات. تساءلوا عن سبب سؤالها المتكرر عن غسان. «من الواضح أنها تظن أنه عاد إلى عائلته» استنتج أمجد.

«لابد أن الخاطف قد أوحى لها بذلك» أضافت لميس.

«إذاً فقد حاول غسان الهرب من النافذة، وركض إلى أقرب بناية وجدها، وأخذ يطرق الأبواب بحثاً عن مغيث» حاول أيهم ربط الخيوط، ثم أردف: «لقد اتضحت الصورة الآن».

عادت مرام بعد قليل، وهي تحمل أكواب الشاي على صينية. وزعتها على زوارها. عاجلتها لميس بالسؤال قبل أن تفتح موضوعاً جديداً لا يستطيعون إغلاقه. «متى رأيت غسان آخر مرة؟».

«ألم يخبركم؟ لقد بات عندي ليلة واحدة، وفي اليوم التالي غادر مع زوجي في الصباح الباكر. لقد اتصلت به فيما بعد، وأكد لي أنه أعاده إليكم».

تبادلوا النظرات. «غسان لم يعد لنا منذ أن اختطفه زوجكِ قبل أسابيع. لقد جئنا نبحث عنه بعد أن عرفنا أن خاطفه يسكن هنا» توقفت لحظة لتسمح للزوجة لتستوعب ما فعله شريك حياتها: «نتمنى أن تساعدينا بأي معلومة لديك عن ولدنا، أو عن المكان الذي يحتمل أن يكون زوجك قد أخذه إليه. أين زوجكِ الآن؟» سألت لميس بجدية.

ضحكت مرام: «أنت تمزحين. أليس كذلك؟ عن أي اختطاف تتحدثين؟ لقد أنقذ زوجي ولدكم من القتل واستضفناه لدينا. لقد أحسنت معاملته. في اليوم التالي، أعاده زوجي إليكم». قصت عليها ما حدث في ذلك اليوم وفقاً لرواية زوجها.

للحظة ظنت لميس أنها ربما تكون مخطئة، وأن الخاطف رجلاً آخر وليس زوج هذه المرأة. أخرجت صورة الخاطف المرسومة باليد ودفعتها إليها. «أنظري إلى هذه الصورة. هل تشبه أحداً تعرفيه؟».

أمعنت مرام النظر بالصورة. «هذا يشبه زوجي سعيد، ولكني غير واثقة إن كان هو».

«هل يعاني زوجك من ألم في رجله اليمنى أو عرج خفيف؟».. سألتها لميس لتتوثق من المعلومة.

أومأت مرام موافقة. «كيف عرفت ذلك؟».

ناولتها لميس الإعلان الذي يحمل صورة غسان وخاطفه.

قرأت الإعلان وعلامات الدهشة بادية على وجهها. «غير معقول. أنتم مخطئون. زوجي ليس بخاطف. إنه رجل أعمال. لقد أنقذ ولدكم. لماذا تشوهون سمعته بهذه الطريقة؟» أخذ صوتها يرتعش، وكانت على وشك البكاء.

«ألم يخبرك أنه أعاد غسان إلينا؟ ذلك غير صحيح. نحن لم نرَ ولدنا منذ أن اختطف». قصت عليها تفاصيل عملية الاختطاف. أكدت لها أن شخصين اثنين قد تعرفا على شكل الخاطف وملامح وجهه، وأن كليهما ذكر أنه كان يعاني من عرج طفيف في رجله اليمنى.

انفجرت مرام بالبكاء. لم تستطع تصديق أو تحمّل فكرة أن يكون زوجها خاطفاً كما يدّعون.

واستها لميس وربتت على كتفيها: «نحن ندرك أن لا علاقة لك بالأمر، ونقدر اهتمامك بغسان ورعايته عندما بات في شقتك» ثم سألتها فجأة: «أين هو زوجك الآن؟».

«لم أره منذ أسابيع» تذكرت شيئاً: «في الحقيقة؛ لم يعد زوجي إلى المنزل منذ أن غادره قبل أسابيع مع غسان ليعيده إليكم. يومها، اتصلت به لأطمئن، فأخبرني أنه عاد إلى أهله. منذ ذلك اليوم، وأنا غير قادرة على الاتصال به. ينقطع الخط كلما حاولت».

تبيّن لهم أن زوجة الخاطف لا تعرف عن زوجها إلا القليل. فهي لا تعرف أين يعمل، وماذا يعمل بالضبط، ومن أي مدينة عراقية هو. لقد بدت متفاجئة فعلاً عندما علمت أنه قام باختطاف غسان. لم تستطع مساعدتهم في معرفة الدافع من وراء الاختطاف. سألوها إن كانت تشك في أن لزوجها أي ميول جنسية شاذة نحو الأطفال، فنفت ذلك بشدة. سألوها إن كان لزوجها أي أصدقاء أو أقارب أو معارف هو على اتصال بهم. فنفت علمها بذلك. أخبرتهم أن زوجها قليل الكلام، ولم يسبق له أن دعا أحداً إلى منزلهما، وأنها لا تعرف شيئاً عن حياته السابقة قبل زواجه بها. كل ما أخبرها به أنه متزوج من امرأة أخرى في العراق، وأنه لم يتبقَ له

أحد من أقاربه بعد أن قتلوا جميعاً في الحرب.

لقد سُدت جميع الأبواب في وجوههم. تأكدوا أن غسان مر من هنا، وأنه اختفى بصحبة مختطفه سعيد العراقي. عرفوا أن اسمه الكامل سعيد أحمد الدوري. ولكن ماذا بعد ذلك؟ ما هي الخطوة التالية؟ كيف سيستطيعون تعقب سعيد هذا، وقد انقطعت أخباره منذ أسابيع؟ أخذوا رقم هاتفه. حاولوا الاتصال بأنفسهم. كان الاتصال يفشل في كل مرة، وكأن صاحب الرقم خارج البلاد. هل يعني ذلك أن غسان هو الآخر قد أصبح خارج البلاد؟

أعطوها أرقام هواتفهم وطلبوا منها الاتصال بهم فور عودة سعيد. لم يكونوا متأكدين أنها ستفعل ذلك. لقد بدت متعاطفة معهم، ولكن هذا لا يعني أنها ستكون مستعدة للتعاون معهم ضد زوجها. على العكس، فربما ترسل له رسالة الآن بمجرد خروجهم من منزلها، تحذره من العودة وتخبره بزيارتهم.

خرجوا من عندها بخفي حنين تقريباً، فلا هم وجدوا غسان، ولا هم أمسكوا خاطفه، ولا هم حتى عرفوا مكانهما. لأول مرة شعروا أنهم قد وصلوا إلى نهاية مسدودة. اقترح أمجد البحث عن الخاطف في بلده العراق، ولكن ذلك لم يكن واقعياً، فالعراق بلدٌ كبير، والبحث فيه عن شخصٍ واحدٍ لن يكون سهلاً، كما أنهم لا يعرفون إن كان قد غادر البلاد إلى العراق أو إلى بلد آخر. عاد أمجد نفسه واستبعد هذا الاقتراح لأنه تذكر أن المتاجرة بالأطفال ستكون في الأغلب موجهة إلى أوروبا وأمريكا وليس العراق.

أثناء عودتهم أخبرهم أمجد أن باستطاعته مراسلة المنظمات الحقوقية المهتمة بالطفل، والتي تأخذ على عاتقها نشر معلومات وصور عن الأطفال المخطوفين حول العالم، وتبذل الكثير من الجهد والمال في سبيل استعادتهم. لم يكن واثقاً إن كان ذلك سيساعد في العثور على غسان.

طلبت لميس من زوجها أن يشغل راديو السيارة لتسمع آخر الأخبار. كانت جميع المدن تقريباً مشتعلة. هالهم خبر جديد أذيع للتو مفاده أن قوات الجيش ستتوجه نحو مدينة طرطوس لتطهيرها من الإرهابيين.

وقع هذا الخبر عليهم كالصاعقة. عليهم مغادرة المدينة في أسرع وقت قبل أن يقتحمها الجيش. في حيّهم، كانوا هم الأسرة السنية الوحيدة وسط عشرات الأسر العلوية. سيُضحى بهم كالخراف كما فُعل بغيرهم من قبل.

أخذ يراقب السيارات الصغيرة وهي تنطلق مسرعة على مضمار السباق. كان سعيداً جداً باللعبة التي حصل عليها بمناسبة عيد ميلاده. تذكر أنه لم يشكر صاحب الهدية. لقد بدأ باللعب بها مباشرة بمجرد رؤيتها بالقرب من سريره. أوقف اللعبة ومشى بهدوء إلى خارج غرفته التي ولد وترعرع فيها. ذهب إلى الصالة فوجدها فارغة. انتقل إلى غرفة والديه فلم يجدهما فيها. تفقد المطبخ بحثاً عنهما، ولكن من دون جدوى. لقد كان وحيداً في الشقة. أخذ ينادي بصوت مرتفع: «أمي. أبي» لم يجب أحد. كرر النداء.

فجأة رد عليه عمه أمجد. التفت إليه فوجد أنه قد أصبح في شقة جده. «تريد أن ترى والديك؟» سأله عمه.

«نعم. نعم. أود أن أشكرهما على هدية عيد ميلادي» أجاب بحماس ولهفة.

«أدخل تلك الغرفة. ستجدهما هناك».

أسرع غسان ففتح باب الغرفة ودخل. وجدهما مستلقين على ظهريهما كلاً على سريره. اقترب منهما. استغرب عندما وجد عيونهما مفتوحة. ظنهما مستيقظين. ناداهما فلم يجيبا. اقترب من أمه وأخذ يهزها بيده برفق لينبهها إلى وجوده. لم تستجب. استغرب من برودة جسدها. اقترب أكثر من وجهها. شعر بالقلق عندما وجده شاحباً للغاية. انتقل إلى أبيه. كانت حالته شبيهة بحال أمه. تملّكه خوف شديد. ماذا حل بوالديه؟ صاح بأعلى صوته طالباً النجدة.

هب من سريره فزعاً. لقد كان حلماً مزعجاً آخر.

مضى على وصوله إلى ألمانيا ثلاثة أسابيع. يسكن الآن في بيت كبير مع الرجل السمين الذي سافر معه. عرف عن نفسه بالسيد سليم. من الجلي أنه لم يكن بيته الوحيد، لأنه كثيراً ما كان يبات خارج المنزل. يعامله معاملة حسنة. أحضر مدرّسة خاصة لتعلمه اللغة الألمانية. كانت تدرسه ليل نهار ليتقن مخارج الحروف، ويحفظ أكبر قدر من الكلمات. استطاع أن يحرز تقدماً سريعاً خلال وقت محدود.

قبل يومين، أقر السيد سليم لتوماس بأنه يعده للذهاب قريباً إلى الأسرة التي سيصبح فرداً من أفرادها. أخبره أنه يُفترض به أن يتقن اللغة الألمانية في أقرب وقت، كي يتمكن من التواصل مع عائلته الجديدة.

طلب منه كذلك أمراً بدا غريباً للغاية. طلب منه أن يقلّد شخصاً ما في حركاته وطريقة كلامه عن طريق مشاهدة مقاطع فيديوية لذلك

الشخص. ذُهل توماس عندما رآه. لقد كان شديد الشبه به. لولا أنه واثق أنه الولد الوحيد لدى أمه وأبيه لأقسم أن هذا الصبي أخوه التوأم. عرف من سليم أنه توفي في حادثة سير. شرح له الهدف من العملية برمتها. لقد فقدت عائلة هذا الصبي ولدها، وهي بحاجة إلى التعويض. ستتبناه هذه العائلة وتحسن معاملته كأنه ولدها الوحيد. عليه في المقابل أن يبذل مجهوداً كبيراً لينجح الأمر. لا بد أن يقنعهم أنه يصلح أن يكون ولدهم.

أدرك توماس أنه مقبلٌ على حياة جديدة مختلفة تماماً. بلد جديد، لغة جديدة وعائلة جديدة. كان عليه أن يتعامل مع ماضيه. أن يتقبّل فكرة وفاة والديه. لم يكن ذلك سهلاً عليه. أخبره سيده أنه لا يزال صغيراً، وسيستطيع مع الأيام نسيان حياته السابقة. نبهه مع ذلك إلى ضرورة عدم ذكر أي شيءٍ عن ماضيه أمام أفراد عائلته الجديدة. المعلومة الوحيدة التي يحتاجون معرفتها هي أن والديه قتلا في الحرب، وأنه ليس لديه أي أقارب آخرين. هدده كذلك بالتعرض للقتل إن ذكر كلمة واحدة بخصوص الاختطاف.

فهم توماس الدرس جيداً. باختصار عليه أن يتحوّل إلى توماس الألماني، وينسى غسان السوري كلياً. في يقظته، كان قادراً على تحقيق ذلك، ولكن ما أن يغمض عينيه حتى يعود إلى منزله الذي تربى فيه، ويرجع غسان ليطارده في أحلامه وكوابيسه.

مع الأيام، أخذ يتقن دوره. فقد تحسنت لغته كثيراً. استطاع كذلك أن يقلّد توماس الأصلي بشكل أفضل بمساعدة مدربة متخصصة كانت تعرفه جيداً.

بمرور شهر ونصف على وجوده في ألمانيا، قرر سليم أن توماس أصبح جاهزاً لزيارة السيد فلوريان في مكتبه.

لم يأخذ موعداً مسبقاً. أراد أن يشاهد بنفسه ردة فعله عندما يلتقي بتوماس للمرة الأولى.

عندما وصلا إلى المكتب أخبرتهما السكرتيرة أن السيد فلوريان في اجتماع سينتهي منه قريباً. كان سليم قد طلب من توماس أن يلبس قبعة تخفي رأسه وقسماً من وجهه، كي لا تتمكن السكرتيرة من التعرّف عليه.

بعد انتهاء فلوريان من اجتماعه، دخلت عليه مديرة مكتبه وأخبرته بوجود رجل بصحبته صبي يودان لقاءه لأمر غاية في الأهمية. سألها عن اسم الرجل. فأخبرته أنه فضل عدم البوح به لأنه يعد له مفاجأة. أعطاها الإذن للسماح لهما بالدخول.

دخل سليم وخلفه توماس مخفياً وجهه وفقاً للتعليمات.

«مرحباً سيد فلوريان. أعتذر عن القدوم إلى مكتبك من غير موعد مسبق. أنا سليم ألماظ هل تذكرني؟».

تأمله ملياً. «لقد زرتني قبل أشهر، ولكني لا أذكر الآن سبب زيارتك».

التفت سليم إلى الصبي وطلب منه أن يتقدم وينزع القبعة عن رأسه. نفذ توماس الأمر.

كان فلوريان في هذه اللحظة يتفقد هاتفه المحمول بعد أن وصلته رسالة.

«سيد فلوريان. هل باستطاعتك النظر إلينا قليلاً من بعد إذنك؟».

رفع فلوريان رأسه فوقع نظره على الصبي. سقط هاتفه المحمول. نهض من مكتبه. اقترب منه «غير معقول. ما اسمك يا عزيزي؟».

«اسمي توماس يا سيدي». تحدث الألمانية بلهجة سليمة ثم نظر إلى سليم ليستمد منه القوة.

«أنت تشبه توماس ابني بشكل كبير. يا الله» أخذ يتحسس معالم وجهه.

التفت إلى سليم: «لقد تذكرتك الآن. أنت من اقترح علي موضوع التبني.. أليس كذلك؟».

أومأ برأسه. «ما رأيك بالصبي؟» ابتسم.

«لولا أني قمت بدفن ولدي بنفسي، وليس له أخ توأم، لقلت أن توماس قد خرج من القبر». تمعن في الصبي مجدداً: «أنت رجلٌ خطير يا سيد ألماظ. من أين جئت به؟».

«الأهم من ذلك، أن يحوز على رضاك ورضا زوجتك».

«نعم، صدقت. حالة زوجتي تزداد سوءاً. أتمنى أن ينجح تومسك وتعود هي إلى رشدها». أخذ يتحدث إلى توماس في مواضيع مختلفة. كان يختبر قدرته على تكوين جمل صحيحة. في نفس الوقت كان يقدّر فيما إذا كانت كارولين ستكشفه مباشرة أم لا. أعجبه أداء الصبي بشكل عام. كان بحاجة إلى بعض التوجيهات فقط ليتقن دوره. طلب من سليم أن يتركه عنده بضعة أيام ليدربه بنفسه. لم يعترض سليم. كان مدركاً أهمية أن تتقبله كارولين. سأله مجدداً من أين أتى به. أخبره أنه صبي يتيم من الشرق الأوسط صرف مبلغاً كبيراً لإحضاره إلى هنا، ثم تدريسه اللغة الألمانية في وقت قياسي.

أما توماس فقد شعر أنه سلعة بحق. لا أحد يستشيره أو يسأله عن رأيه. نعجة صغيرة كما سماه سيده. نعجة تنتقل من مالك إلى آخر. ربما عليه أن يكون ممتناً لأن مالكيه طيبان.

كان فلوريان لا يزال يدور حول توماس يتفقده. توقف فجأة عندما خطر له ما خطر لتوماس. اعتذر منه. أخبره أنه لم يقصد التعامل معه على أنه مملوك. طمأنه أنه سيعيش حياة رغيدة هنا، وسيكون له مطلق الحرية في فعل ما يشاء. أخبره أنه مع ذلك فإنه من المهم أن توافق كارولين على فكرة التبني، وليتحقق ذلك يجب أن يسعى ليكسب قلبها. شرح له أنه في البداية قد تظنه ولدها الذي ترفض أن تتقبل فقدانه. وأن لا بأس بذلك، فمع الوقت ستتفهم الأمر.

أومأ توماس برأسه: «سأنفذ كل ما تأمرني به» قالها بخنوع أزعج فلوريان. لف يده حول كتفه ورفع رأسه: «أنظر إليّ. لا أريدك أن تكون ذليلاً أو خاضعاً. لم يكن توماس ولدي هكذا، بل كان على النقيض من ذلك. أريدك أن ترفع رأسك وأن تناقش وتجادل وتقول رأيك بمنتهى الحرية». نظر توماس إلى سليم وكأنه يخشى أن يكون هذا الكلام مخالفاً لما يريده منه. رأى فلوريان ذلك: «دعك من سليم. لن يحصل مني على بنس واحد ما لم تنجح في دورك».

«لا تنظر إليّ يا توماس. من اليوم ستقيم مع السيد فلوريان. احرص على الاستفادة من توجيهاته وركز في المستقبل. المستقبل فقط». كان بذلك يرسل تهديداً مبطناً لئلا يتجرأ توماس على الحديث عن اختطافه. ربما كان توماس أصغر من أن يفهم رسائل مبطنة، ولكنه كان ذكياً بما يكفي لئلا يعرض نفسه للخطر.

خرج سليم تاركاً توماس في عهدة فلوريان، على أن يتصل به الأخير عندما يتخذ قراره بشأن التبني.

26

كان عليهم اتخاذ القرار بأسرع وقت ممكن. ولكن إلى أين؟ لبنان، الأردن، تركيا أم أبعد من ذلك؟ أوضاع اللاجئين السوريين مُزرية في أغلب هذه الدول. إلا لمن يملك المال. من حسن حظهم كان لا يزال معهم مبلغاً لا بأس به. القسم الأعظم من تلك الأموال كانت لأيهم. خصصها للإنفاق على البحث عن ولده المختطف. سيضطر الآن مشاركتها مع أفراد عائلته للنجاة من أتون الحرب وذل اللجوء.

بعد مشاورات؛ استقر رأيهم على اللجوء إلى لبنان، فقد كانت الأقرب

جغرافياً من مدينة طرطوس التي يقيمون فيها. هذا إضافة إلى وجود عدد من أقاربهم هناك، بمن فيهم بعض أعمام لميس، والذين نزحوا إلى طرابلس في وقت سابق.

كانت قلقة جداً. ليس خوفاً من السفر أو اللجوء، ولكن خشية أن تكون هذه الخطوة بمثابة إسدال للستار على أي بصيص أمل كان لديها في استرجاع غسان. لقد أخذه الخاطف إلى مكان بعيد. ربما إلى بلد آخر، وها هم الآن يرتحلون بدورهم إلى لبنان. لقد شعرت أن رحيلهم هو إعلان بالاستسلام والقبول بفكرة فقدانه إلى الأبد. حاولت ثني زوجها عن السفر مع عائلته. كانت تعرف مسبقاً أنها تطلب منه المستحيل. بقاؤهم في طرطوس كان يعني تعرّضهم للقتل. لم يبقَ لديهم مكان آخر آمن في سوريا لينتقلوا إليه. حاولت أن تواسي نفسها وتقنعها أن رحيلهم إلى لبنان سيكون مؤقتاً، وأنهم يستطيعون العودة إلى طرطوس حالما تنتهي العملية العسكرية. تمنت أن يكون ذلك ممكناً بالفعل. حدسها كان ينبئها بعكس ذلك. ستُقتحم شقتهم، وتُنهب بمجرد خروجهم، وربما تسكنها عائلة أخرى وتستولي عليها.

أيهم شعر بالهواجس التي أخذت تلتهم زوجته. تمنى لو كان باستطاعته المساعدة. هو الآخر كان بحاجة ماسة للتمسك بالأمل. كان يحاول أن يظهر متماسكاً وقادراً على التعامل مع كل هذه المحن. في قرارة نفسه، كان يعرف كم هو هشٌ وضعيف. كانت الكوابيس لا تزال تلاحقه، تذكّره برجولته المسلوبة. اسم منال كان لا يزال يتردد في أعماقه ممتزجاً بقهقهات مغتصبيه. غضبٌ عارمٌ يشعر به ولكن من دون أن يقدر على تنفيسه.

في مثل هذه الظروف، عندما يشعر الإنسان بعجزه، يتحوّل بصره نحو السماء.

أعدوا العدة وجهزوا متاعهم مما خف حمله وغلى ثمنه. شعر أمجد بغصة في صدره من نظرات جيرانهم المتربصة، كضباع تنتظر الانقضاض على فريسة ضعيفة. لقد عاش وعائلته هنا عشرات السنين. كيف تحوّلوا فجأة إلى كائن غريب يجب اجتثاثه والتخلّص منه. كيف تحوّلت الأغلبية في وطن، إلى أقلية تُطرد وتُستأصل.

في اللحظة الأخيرة، وقبل انطلاقهم بدقائق، اتخذ أمجد قراره. لن يغادر المنزل. لن يسمح للكلاب المسعورة بدخوله. لن يكون لقمة سائغة لهم. سيرد كيدهم إلى نحورهم. وقع هذا الخبر كالصاعقة على أمه وأبيه.

حاولا ثنيه بشتى الطرق. لم تفلح دموعهما في حمله على العدول عن قراره. حاول أيهم هو الآخر أن يقنعه بضرورة أن يصحبهم لحاجتهم الماسة إليه، ولأن بقاءه هنا فيه خطر على حياته. باءت كل محاولاته بالفشل. توقف عن الإلحاح عليه عندما أيقن أنه قد عزم أمره ولن يتراجع أبداً. قبّل أيدي والديه، وطلب منهما السماح والدعاء له.

راقب من الشرفة قافلتهم الصغيرة وهي تنطلق مع صوت أول مدفع يدك المدينة. أحكم إقفال الباب. وجلس في غرفته يترقب مصيره.

غادروا مع الفجر متوجهين إلى الحدود اللبنانية. قابلتهم في الطريق عدة نقاط تفتيش. كانوا يضطرون للتوقف في كل منها ساعات طويلة. كان بعضها للجيش السوري ومليشيات حزب الله، وبعضها الآخر للجيش الحر.

أثناء التوقف في نقاط التفتيش، كانت لميس تخرج من السيارة تتمشى لتحريك الدم في عروق ساقيها. كانت تقترب من السيارات الأخرى التي تنتظر دورها للتفتيش. تنصت إلى قصص راكبيها ومعاناتهم.

هذه، عائلة أصيب بكرها بعيار ناري في رأسه. لم يمت ولكنه بحاجة إلى عملية جراحية عاجلة، وها هم يتوجهون إلى لبنان لإجرائها.

وذلك، رجل يسافر مع أخته وابنتها الوحيدة. أخته تبدو وكأنها تعاني من مرض نفسي أو عصبي. لم تكن متزنة أو تعي تصرفاتها. تفاجأت لميس عندما عرفت من ابنتها أن أمها كانت تعمل مدرسة في الجامعة، وأنها فقدت عقلها بعد تعرض العائلة لفاجعة أليمة. إذ اقتحم الجيش مدينتهم، وقام بإعدام أبنائها الذكور الأربعة وأبيهم أمام عينيها. من حسن حظ البنت أنها كانت يومها عند خالها.

وتلك، أمٌ مع أطفالها الخمسة فقدت زوجها، ولم يبقَ لها من معيل، تركب الحافلة متوجهة إلى بيروت. عندما سألتها لميس عما ستفعله هناك، أخفضت رأسها وأجابت بصوت بالكاد مسموع: «أعمل خادمة، فإن لم أستطع، تسوّلت مع أطفالي». تألمت لميس لحالها. حزنت من أجلها، ومن أجل أولئك الصغار ذوي النظرات البريئة.

قصص كثيرة كلها مؤلمة.

لم يبقَ في سوريا إلا القصص الحزينة.

جفلت لميس عندما سقطت إحدى القذائف بالقرب من نقطة تفتيش للجيش الحر. أصيب بعض الرجال وتناثرت دماؤهم على نوافذ السيارة. ذعرت أم أيهم وأخذت بالصراخ والعويل. حاولت لميس تهدئتها. طلبت من زوجها أن ينطلق مسرعاً.

لاحظ أيهم في حواجز النظام أن السيارات التي تخرج من طرطوس يتم تسهيل أمرها، بعكس المركبات الداخلة إليها. اذ يتم تفتيشها بشكل مكثف، وخاصة عندما يكون السائق ومن معه، من الطائفة السنية. عندها لا يسمح لهم بالعبور، ويتم توجيههم إلى مكان آخر. كان المغزى من وراء ذلك مخيفاً. بدا وكأنهم يقومون بعملية تهجير وتصفية.

تمنى أيهم أن يكون أمجد بخير، وأن تُكتب له النجاة.

وصلوا أخيراً إلى الحدود اللبنانية مع مغيب الشمس. تأخروا كثيراً بسبب الازدحام والحواجز العديدة التي مروا بها. سُمح لهم بالعبور بعد أن تم تسجيل أسمائهم والمنطقة التي سيتوجهون إليها. كانوا قد عزموا على الذهاب إلى طرابلس عاصمة الشمال. استأجروا شقة هناك بمساعدة أحد الأقارب.

بدت الشوارع الخارجية شبه فارغة وهادئة بشكل غريب. تمنى أيهم أن لا يكون الهدوء الذي يسبق العاصفة. كان الإنهاك قد أصابهم عندما وصلوا إلى مشارف المدينة المزدحمة. أول ما لفت أنظارهم، كان العدد الكبير من المتسولين. متسولون في كل مكان. يفترشون الأرض. يتوزعون حول الإشارات المرورية. يضايقون المارة والمتسوقين. من لهجتهم عرف أيهم أنهم سوريون. آلمه المنظر. أحس بخنجرٍ يُغرز في خاصرته، عندما رأى كيف يُعاملون، وكأنهم كلاب ضالة أو حشرات ضارة. رأى نظرات الاشمئزاز في عيون أصحاب البلد، وكأن لسان حالهم يقول: «قرفتمونا. عودوا من حيث أتيتم. لقد لوثتم البلد».

دمعت عيناه، ولم يجد ما يقوله سوى ترديد: «حسبي الله ونعم الوكيل في من كان السبب في تحويل شعب سوريا العظيم إلى متسولين في الدول المجاورة».

أوقف السيارة في المكان المتفق عليه، إذ وجد أحد أقربائهم بانتظارهم. ركب معهم وأرشدهم إلى الحي الذي سيسكنون فيه. ساعدهم على حمل الأمتعة، وصعد معهم إلى الدور الثالث في بناية حديثة الإنشاء.

الشقة الجديدة مفروشة. إيجارها مرتفع لأنها تقع في وسط المدينة. هي ضيقة قليلاً ولكنها تفي بالغرض.

كانوا جميعاً بحاجة إلى الراحة. راحة من إنهاك السفر. راحة من أصوات القذائف ولون الدم. راحة من قصص العذاب. راحة من مشاهد الذل. راحة مؤقتة من التفكير في مصير الأحبة.

ذهب كلٌ إلى غرفته. أغلق بابها. إنه دور العيون، معصرة القلب،

لتنفس عن الغضب، عن الحزن، عن الألم. دورها لتصرخ بطريقتها.

البكاء نعمة لا يدركها أصحاب القلوب المتحجرة.

27

عومل توماس أحسن معاملة. لم يتوقع أن يكون السيد فوريان بهذه الرقة. كان صبوراً في تعليمه. لم يضغط عليه أو يتعجل تدريسه. كثيراً ما كان يأخذه بين أحضانه، فتدمع عينيه ويبكي بحرقة. كان يذكره بولده. لقد اتضح أنه الآخر لم يتعافى بعد من أثر فقدانه.

حتى الخدم والعاملين في القصر أحبوه. في البداية ذُهلوا من الشبه الكبير. بعضهم ظنه توماس الحقيقي. سارعوا فنسجوا قصصاً من خيالهم: «ربما اختلط الأمر على الشرطة عندما عثروا على الجثث في موقع الحادث. توماس لم يمت. ها هو حي يرزق. ربما أصيب بالحادث فقط وفقد النطق مؤقتاً، أو ربما فقد الذاكرة، وعندما استعادها، رجع إلى منزله».

جمعهم فلوريان وأخبرهم أن الصبي الذي جاء به اسمه توماس، ولكنه ليس توماس ولده الذي قضى في الحادث. عرفوا أنه صبي متبنى، وأنه سيعيش في القصر ويعامل كما كان توماس يعامل. فهموا كذلك أن السيدة كارولين قد تخاله ولدها، وأنهم ممنوعون من قول الحقيقة لها ريثما تتماثل للشفاء.

كان لدى توماس الكثير ليتعلمه. خلال أسابيع، أصبح يتحدث بطلاقة. يأكل ويشرب ويتصرف وفقاً لقواعد الإتيكيت. شاهد عشرات التسجيلات المصورة لتوماس قبل وفاته. أتقن تقليد حركاته وطريقته في الحديث وحتى نبرة صوته. أخبره فلوريان أنه لن يكون بحاجة إلى الاستمرار في انتحال شخصية ولده مدة طويلة. ما إن تتعافى كارولين، سيكون باستطاعته العودة ليكون على سجيته، ويستطيع الاحتفاظ باسمه الأصلي إن رغب بذلك. خشي الصبي أن يعني ذلك أن وجوده هنا سيكون مؤقتاً، ريثما تستعيد سيدة البيت عافيتها، وأنه سيباع بعدها إلى عائلة أخرى أو ربما يتم التخلّص منه. وجد صعوبة كبيرة في استجماع شجاعته، ليبوح إلى سيده الجديد بمخاوفه. تعجب فلوريان عندما علم بهذه المخاوف. لم يستطع أن يفهم من أين أتى توماس بهذه الأفكار المرعبة. طمأنه إلى أنه قد جاء إلى هنا ليبقى. وحتى لو لم تتقبل كارولين فكرة تبنيه، فإنه لن يستغني عنه، ولن يعيده إلى سليم مرة أخرى.

تعلّق فلوريان بالصبي. أدرك أن له شخصية مختلفة عن ولده. أحبه رغم ذلك. وجد نفسه مستعداً لتقبله كابن له. في البداية، عندما أتى به

إلى القصر، لم يكن واثقاً أن إحضار صبي مجهول فكرة سديدة. أما الآن، فقد أصبح تواقاً لعرض الأمر على زوجته لإتمام إجراءات التبني. تمنى من كل أعماقه أن يفلح الصبي في مساعدة كارولين على العودة إلى سابق عهدها.

غسان لم يختفِ بعد. إنه لا يزال يسكن في أعماق توماس متوارياً. يظهر فقط عندما يغمض الأخير عينيه. غسان الصبي الخائف من المجهول مشتاق لعناق أمه. تواق للعودة إلى بيته واللعب مع أبيه وعمه. لم يكن قادراً على فعل شيء سوى البكاء. نادى أمه كل ليلة، ولكنها لم تجبه ولم تسمع نداءه. لم يعرف إن كانت قد ماتت حقاً كما يدعي خاطفه، أم نسيته. لا يقدر هو على نسيانها. ما زال يتذكر حضنها الدافئ، وصوتها الحنون، ولمساتها الرقيقة. لم يمح من ذاكرته بعدُ ذلك اليوم المشؤوم. لا يزال يحس بنعومة يد أمه وهي تمسك به لاجتياز الشارع. كلماتها الأخيرة قبل فقدانه الوعي ترن في أذنيه: «غسان، ولدي. ماذا أصابك؟». كم تمنى لو كانت الآن بقربه. في قرارة نفسه، كان يخشى أن يأتي يومٌ ينسى ملامحها أو نبرة صوتها. غسان كله قد يختفي تدريجياً ليحل توماس محله. لن يحصل ذلك. لقد ترك لتوماس حياة اليقظة على أن يحتفظ هو بحياة الأحلام.

اقترب موعد لقائه بكارولين. عليه أن يتقمّص الدور بإتقان. مهم جداً أن ينجح. سيُفرح ذلك قلب فلوريان. سيبذل قصارى جهده. لقد أعد نفسه جيداً لهذا اليوم. حفظ الجمل التي اعتاد توماس ترديدها. أخبره فوريان بالعلاقة الخاصة التي كانت تجمع بينهما. حذره بأنه قد لا يكون من السهل أبداً خداعها، فهي أم. ولكن لا بد من المحاولة.

تجهز في اليوم الموعود ولبس ملابس توماس، وانطلق مع فلوريان نحو المستشفى، بعد أن أخطر الأخير الإدارة برغبته في زيارة زوجته. شعر توماس بالتوتر والقلق. كان يخشى أن يفتضح أمره سريعاً، وأن تزداد حالة المريضة سوءاً.

وقف خارج غرفتها. استجمع قوته. شجعه فلوريان. طرق عليها الباب.

«من في الخارج؟».. سألت باستغراب. فزوارها عادة يدخلون من غير استئذان.

«هذا أنا» لم يجبها بأكثر من ذلك، بل فتح الباب ودخل إليها بمفرده.

وجدها مستلقية على ظهرها. سمعت صوت الباب يُفتح ثم يُغلق.

اعتدلت في جلستها لتتمكن من رؤية الزائر. اقترب هو بهدوء منها.

«ماما. هذا أنا».

رأته. فركت عينيها. لم تنطق بكلمة. أشارت له بكلتي يديها ليقترب منها أكثر. وصل إلى حافة السرير. أخذته بين أحضانها. دمعت عيناها. «اشتقت لك يا ولدي. لماذا غبتَ عني كل هذه المدة؟ لماذا توقفت عن زيارتي؟» مسدت شعره وانهالت على وجهه بالقبلات. لم يقاومها. استسلم لها تماماً. دمعت عيناه. بالأحرى دمعت عينا غسان. لقد استيقظ للحظة وتذكر لميس أمه. تخيلها أمامه بشحمها ولحمها تناديه وتضمه إلى صدرها. كاد أن يفسد الأمر، لولا توماس الذي تمالك نفسه وكبح عواطفه وعاد لتأدية دوره.

«هل أنت بخير يا أمي؟» سألها عندما شاهدها تغمض عينيها طويلاً.

فتحتهما. «أنت لا تزال هنا. لم تختفي كعادتك. كم أنا محظوظة اليوم».

«لن أتركَكِ مجدداً يا أمي. لقد عدت إليكِ».

أجلسته على السرير بجانبها. تأملته طويلاً. «لقد تغيرت قليلاً يا توماس. يبدو أنك غبت فترة طويلة».

«نعم يا أمي. كنت مشغولاً في المدرسة. متى ستعودين معي إلى البيت؟». أخبره فلوريان والطبيب أن طرح هذا السؤال مهم، لمعرفة مدى استعدادها للخروج من المستشفى، ومزاولة حياتها الطبيعية.

فكرت قليلاً. «ماذا أفعل أنا في المستشفى؟ أنا بصحة جيدة. أنا أكره المستشفى».. توقفت برهة ثم استدركت: «ولكني أخشى أن أفقدك إن غادرتها» بدا عليها القلق. جذبته مجدداً إلى صدرها. اصطدم مرفقه بإناء معدني فأسقطه أرضاً محدثاً جلبة كبيرة. جفلت كارولين. أبعدته عنها: «من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟».

ارتبك توماس. لم يخبره فلوريان أن مزاجها قد يتغيّر في لحظة، فتنسى ما كانت تفعله.

«أنا توماس. جئت لزيارتكِ».

«توماس! نعم أنت توماس. ولدي الحبيب. لقد عدت إليّ. أخبرتهم أنك ستفعل. لم يصدقني أحد. حسبوني مجنونة. احتجزوني في هذا المستشفى. أرادوا تفريقنا. لن أسمح لهم بذلك. لن أدعهم يأخذوك مني. أبلغ فلوريان بذلك. لن أتركك له أبداً».

«لا تقلقي يا أمي. لن يأخذني أحدٌ منكِ. ستغادرين المستشفى قريباً، وستجدينني بانتظارك في المنزل». قبّل رأسها ويديها.

جفلت منه. في ألمانيا لا يقبلون الرأس واليدين.

«ماذا تفعل؟ من أنت؟ لست ولدي. توماس لا يقبلني بهذه الطريقة».

«أرجو المعذرة يا أمي. هذه حركة تعلمانها في المدرسة في حصة عادات الشعوب. أعجبتني فجربتها معك. لم أقصد إزعاجك». استطاع الخروج من المأزق بذكاء.

أومأت برأسها. لم يستطع توماس أن يتأكد فيما إذا كانت تشك به، أم أنها باتت مقتنعة أنه ولدها.

بدون مقدمات سألته سؤالاً أربكه تماماً: «أنت لم تمت يا توماس. أليس كذلك؟ أنا لا أتخيّل الآن. أنت لست وهماً. لن تتبخر فجأة إلى غير عودة. عدني بذلك».

تردد في الرد في البداية، قبل أن يجيبها بثقة: «أنا بخير يا أمي. سأكون بجوارك على الدوام. ثقي بي».

أعجبها رده. بدا الارتياح على وجهها.

«اعتنِ بنفسك يا أمي. سأعود غداً لزيارتك. تأهبي فلربما عدنا سوياً إلى المنزل». ابتسم لها فبادلته الابتسامة.

نهض وتوجه نحو الباب. لوّح لها، مرسلاً قبلة في الهواء.

«توماس. سأكون في انتظارك. لا تتأخر».

28

بمجرد وصولهم إلى لبنان، أصبحوا معزولين عن سوريا تماماً. ما عادوا قادرين على التواصل مع أمجد. لم يعرفوا إن كان بخير أم لا. انقطعت جميع أخبار غسان. ما عاد أحدٌ يتصل للإدلاء بمعلومة أو طمعاً بالمكافأة، فهواتفهم أصبحت خارج التغطية أغلب الوقت.

أقلقهم ذلك. لم يبقَ لديهم أي خيوط لتتبعها. سافر الخاطف ومعه غسان على الأغلب. خشيا أن تنتهي قصة ولدهما عند هذا الحد.

أم أيهم بدأت تتذمر. تريد من ابنها أن يتزوج بأخرى، تنجب له أطفالاً يعوضوه عن فقدانه لغسان. كانت دوماً تختار الوقت الأسوأ لافتعال المشكلات. لم تبالِ لميس بها. هي واثقة أن زوجها ما كان ليفعل ذلك. «إنها لا تعرف أن أيهم ما عاد أيهم الذي ربته. لقد غيّرته الحرب كثيراً. لن يخطر ببالها أنه ما عاد قادراً على الاقتراب من النساء. ستموت كمداً إن علمت أن فلذة كبدها قد اغتُصب كما تُغتصب الفتيات». ندمت لميس على هذه الفكرة التي مرت في ذهنها مرور الكرام. في أعماقها، كانت

تشعر بأن هذه هي الحقيقة. أيهم لن يعود إلى سابق عهده أبداً.

هو أيضاً كان مدركاً لذلك. حبه للميس لم يتغيّر، ولن يتأثر، ولكنه لن يتمكن من منحها حقوقها الزوجية الكاملة. ما زال يستيقظ فزعاً في جوف الليل. مجرد عناقه لها كان يشعره بالاشمئزاز. تمنى أن لا تشعر بما يحس به.

ببقاء أمجد في سوريا، أصبح أيهم هو المعيل الوحيد. عليه أن يجد عملاً يدر مالاً كافياً. لكنه لم يكن جاهزاً لذلك بعد. حاول أن يستثمر ما بقي معه من مال. لم تكن حالته النفسية تساعده على ذلك. فقد كان كثير الشرود. اقترح على لميس أن تعينه. وافقت من غير تردد رغم رفض أمه. فتحا سوياً محلاً صغيراً لبيع الأقمشة. ترك لها إدارته بعد أن نقل لها ما استطاع من خبرته.

كانت بحاجة إلى العمل. تفكيرها بغسان ليل نهار كان سيقضي عليها. «هل هو حي أم ميت؟ هل هو بخير أم يتعرض للإيذاء؟ هل هو حرٌ طليق أم حبيس؟ هل يتذكرني؟ هل يشتاق لأضمه إلى صدري؟ هل يبكي ليل نهار لابتعاده عني؟».. كانت هذه الأسئلة وغيرها تنغص عليها عيشتها. كانت بحاجة إلى الراحة. إلى وقت مستقطع. ربما ساعدها العمل على الإلتهاء قليلاً عن التفكير المتواصل بولدها.

مرت أسابيع لم يسمعوا فيها خبراً واحداً عن غسان أو أمجد. كانت الأوضاع في سوريا تزداد سوءاً. أراد أيهم أن يذهب إلى طرطوس للاطمئنان على أخيه. اتفقت أمه وزوجته على رفض الفكرة. لم يكونا مستعدين لفقد المزيد من أفراد العائلة.

في يوم من الأيام، وبينما كانت لميس منهمكة في إقناع زبونة بشراء أحد الأقمشة؛ سمعت رنة مألوفة. تفقدت هاتفها المحمول. لم تجد أي علامة تشير إلى اتصال. تكرر الرنين. نظرت مجدداً إلى هاتفها. إنه لا يصدر أي صوت. الرنين من جهاز آخر. تفقدت جيوبها وأخرجته. لقد كان الصوت ناتجاً عن هاتفها الآخر الذي يحمل شريحة اتصال سورية. هذا يعني أن الاتصال من داخل سوريا على الأغلب.

نظرت إلى رقم المتصل. لم يكن مألوفاً. لم تضع المزيد من الوقت. فتحت الخط «ألو، من المتصل؟».

«مرحباً. هل أستطيع التحدث إلى السيدة لميس. أم غسان؟».. كان صوتها منخفضاً ونبرتها مترددة.

«نعم أنا لميس. من معي؟».

«أنا مرام. هل تذكريني؟».

«امممم. مرام. مرام. نعم. نعم. تذكرتك أنت زوجة الخاطف». لم تحسن اختيار كلماتها. خشيت أن تقفل مرام الخط: «أنا آسفة، لم أقصد».

«لا عليكِ. لن أضيع وقتكِ. أحببت أن أخبركِ أن زوجي اتصل وأخبرني أنه سيعود إلى سوريا بعد يومين. أحببت إبلاغكِ بالأمر».

«شكراً. شكراً جزيلاً لكِ. ولكن هل أخبرته بزيارتنا لكِ؟» سألتها بقلق.

«لا. اطمئني. لم أخبره بأي شيء. سأحاول الاتصال بك مجدداً عندما يصل إلى البيت».

شكرتها لميس كثيراً وأقفلت الخط. «إذاً سيعود الخاطف. ما زال هناك أمل بالوصول إلى غسان. يا الله احفظ ولدي، واجمعني به قريباً. لقد سئمت الحياة من دونه. لم يبقَ لها لون أو طعم».

سارعت فأخبرت أيهم بالأمر. سر كثيراً. كان بحاجة إلى سبب يجعل لحياته قيمة. عزم على العودة إلى سوريا بمجرد وصول الخاطف. هذه المرة، لن يتمكن أحد من ثنيه. لا بد أن يجد غسان بأي طريقة.

29

وجوده إلى جانبها أسهم في تحسن حالتها واستجابتها للعلاج بشكل كبير. رأى طبيبها النفسي أن حالة نكران الواقع التي تعيشها لن تستمر طويلاً. عقلها الباطن مدرك أن هذا الصبي ليس ولدها. كان من الواضح أنها أحبته وستكون مستعدة لتقبل فكرة تبنيه، بمجرد أن تعترف لنفسها أن ولدها توماس قد مات.

سر زوجها كثيراً عندما رآها وقد بدأت تهتم بصحتها وهندامها. أصبحت قادرة على الدخول في نقاشات، وإبداء رأيها في كثير من الأمور. لم يتكلما أبداً عن الحادث. كأنه لم يكن. كأن وجودها في المشفى هو فقط للاستجمام.

أما توماس، فمع الأيام أصبح قليل الكلام. عائلته الجديدة تحبه كثيراً. لكنه لم يقدر على نسيان والديه الحقيقين. في بداية الأمر، حاول التأقلم مع حياته الجديدة. حاول أن يتقمص دور الصبي الألماني. حاول أن يمحو من ذاكرته كل ما له علاقة بسوريا. كوابيسه اليومية حالت دون ذلك. أصبح يعيش بشخصيتين. ولد ثري من عائلة أجنبية عريقة في الصباح. وصبي عربي مفجوع بفقدان والديه في الليل بعد أن يغمض عينيه. ملامح أمه وأبيه لم تغادر مخيلته. شعوره بالضيق أخذ في الازدياد. كبحه المتواصل لدموعه جعله أشبه ببركان على وشك الانفجار.

مؤخراً، بدأ توماس يضعف في مواجهته مع غسان. لم يكتفِ الأخير بدوره الليلي. أصبح يزاحم بهمومه المثقلة غريمه الثري.

بعد عصر ذلك اليوم، وكما اعتاد طيلة ذلك الشهر، ذهب مع أبيه لزيارة أمه. أخبرهما الطبيب أنهما يستطيعان اصطحابها إلى المنزل.

استقبلته كالعادة بوجهها البشوش ونظراتها الحانية. أخذته بين أحضانها وقبّلت وجنتيه. مسدت شعره وأفسحت له ليجلس إلى جانبها. سألته عن حاله، وعن استعداده للذهاب إلى المدرسة بعد انتهاء الإجازة. كان يبتسم لها ويومئ برأسه. يجيب عن أسئلتها بأقصر الجمل.

انتقلت للحديث مع زوجها عن ترتيبات خروجها من المشفى. لم يشعرا به عندما نهض من جانبها، ومشى نحو ركنٍ بعيدٍ في غرفتها. قعد على الأرض وتكوّم على نفسه. دفن رأسه بين رجليه. استسلم توماس. اختفى بعيداً خلف غسان. بكى الأخير. في البداية، كانت دموعه صامتة. تسيل بهدوء شديد كينبوع صغير. أخذ يأن بصوت منخفض. حزن شديد، وهم ثقيل، كان على وشك الاندفاع خارجاً. تحوّلت الدموع إلى حمم. البركان على وشك الثوران.

سمعت صوته المكبوت. تلفتت حولها وفطنت لابتعاده عنها. أوقفت حديثها. فتشت بعينيها أرجاء الغرفة. في إحدى الزوايا رأت كائناً صغيراً ينتفض وقد أخفى رأسه.

أشارت إلى زوجها لينظر خلفه. نهضت من سريرها وتوجهت إلى مصدر الصوت.

جلست القرفصاء ووضعت يدها على رأسه. اقترب زوجها. طلبت منه الابتعاد قليلاً.

اشتد بكاؤه وارتفع صوت نحيبه.

«ما بكِ يا حبيبي؟ لماذا أنتَ حزين؟ لماذا كل هذا البكاء؟».

«دعيني وشأني. لن تفهمي أبداً ما أعانيه».. تحدث بعصبية بلغة لم تفهمها.

«ماذا تقول يا صغيري؟ لم أفهم كلمة واحدة مما قلت يا توماس».

« أنا لست توماس. توماس مات. اسمي غسان». تحدث مجدداً بالعربية.

فطن فلوريان إلى أن الصبي يعاني، ولم يعد قادراً على التحمل. استنتج أنه يتحدث بلغته الأم. اقترب منه وحاول تهدئته.

رفع رأسه. وجهه مخضب بالدموع. «أخرجني من هنا. أعدني إلى أمي

وأبي». تكلّم هذه المرة بالألمانية.

أدرك فلوريان أن الأمر على وشك أن يخرج عن السيطرة. أخذ بيد زوجته يحثها على النهوض والابتعاد عن الصبي. رفضت الاستجابة له. أصرت على البقاء.

أعاد غسان طلبه: «أعدني إلى أمي وأبي. لم أعد قادراً على الابتعاد عنهما».

«عم تتحدث يا توماس؟ نحن والداك الآن». حاول تدارك الموقف.

«أنا لست توماس. اسمي غسان. أنا من سوريا. أبي اسمه أيهم وأمي اسمها لميس». تكلّم بنبرة مرتفعة وبإصرار شديد.

تربعت كارولين بقربه وقد هالها ما سمعت. لم تنطق بكلمة واحدة واكتفت بمراقبة ما يجري.

غضب فلوريان. خشي أن تسوء حالة زوجته. التفت إليها فوجدها هادئة. لم يعرف كيف يتصرّف. ولكنه كان مضطراً لوضع حدٍ لما يحدث. «توماس. أنت تعرف أن والديك الحقيقين قد...» توقف برهة وراقب زوجته: «قد ماتا. لقد جئت إلينا بإرادتك. ما الذي حصل الآن؟ هل أسأنا معاملتك؟ هل آذيناك؟ كيف تطلب أن أعيدك إلى والديك وقد فارقا الحياة».

انفجر غسان بالبكاء: «لم يموتا. هذا كذب. لم آتِ إلى هنا بإرادتي. رجل أخذني من بين يدي أمي، وباعني لرجال آخرين سافروا بي إلى هنا. لم يأخذ أحد رأيي. جئت رغماً عني».. أراد أن يقول أنه قد اختطف، ولكنه لم يعرف كيف يقولها باللغة الألمانية.

صُدم فلوريان مما سمع. لم يخطر بباله من قبل، أن يكون الصبي مختطفاً. نظر إلى زوجته. كانت هي الأخرى لا تزال تحت تأثير الصدمة. مفاجآت كثيرة لم تكن مستعدة لتلقيها. توماس لم يكن توماس ولدها. اسمه غسان، وهو صبي عربي اختطف من حضن والديه. ذلك كثير لاستيعابه دفعة واحدة.

فتحت كارولين ذراعيها: «تعال يا بني. لا تخف. سنساعدك. سنعيدك إلى والديك. لا تقلق يا حبيبي». بدت واعية جداً لما تقول.

استجاب غسان لها. ارتمى في أحضانها. بكى بحُرقة: «شكراً لكِ سيدتي. أنتِ أفضل امرأة في الدنيا».

«نادني أمي. مؤقتاً فقط. إلى أن تعود إلى أمك الحقيقية. أنت تذكرني بولدي توماس. توماس قد مات. أنت تشبهه كثيراً». أسندت رأسها إلى رأسه.

نظر إليها زوجها. دمعت عيناه. لقد تعافت. شفيت. كله بفضل الصبي.

«نعم. سنساعدك. ستعود إلى والديك سالماً يا... قلت ما اسمك الحقيقي؟ هسان؟».

«غساااان» صحح له مبتسماً.

نهضوا سوياً. لم يبقَ لهم ما يفعلوه في ذلك المكان. أمامهم الآن مهمة ليست سهلة. غسان يجب أن يعود إلى أهله.

29

بضعة أسابيع قضاها منتظراً إقفال التحقيق. لم تتمكن الشرطة من القبض على أي من أفراد العصابة. لم تجد أي خيط يوصلها إلى أيٍ منهم. أُغلقت القضية بتوجيه تهمة الاعتداء بالضرب إلى مجهول. أصبح سعيد «القناص» حراً ليعود إلى سوريا أو إلى حيث شاء. اتصل بزوجتيه وطمأنهما. عقد العزم على العودة إلى سوريا أولاً. لن يذهب مباشرة إلى زوجته. لديه ما هو أهم من ذلك. سيزور عائلة غسان أولاً. سيعترف لهم بكل شيء. كان مدركاً خطورة ما عزم عليه. قد يؤدي اعترافه إلى مقتله. لم يعد يبالي. ما يهمه هو التخفيف من شدة الضغط النفسي الهائل الذي بات يشعر به منذ اللحظة التي حمل فيها غسان، وابتعد به عن أمه. لقد تعلّق بذلك الصبي بشكل غريب. لقد اختطف العشرات قبله، وباعهم دون أن تطرف له عين. لم يستطع أن يمحو من ذاكرته ذلك المشهد عندما ناداه غسان «أبي» وهو مستغرق في النوم.

رجع إلى سوريا كما خرج منها عن طريق البحر. عندما وصلها، كانت الأمور على الأرض قد ازدادت تعقيداً. اقتحم الجيش طرطوس وما جاورها. أصبح الدمار في كل مكان. حتى الميناء أصبح غير الميناء. آثار المعارك والقصف كانت لا تزال حاضرة. دمرت أغلب المراكب والسفن واليخوت.

توجه مباشرة إلى الحي الذي تقطنه عائلة غسان. كانت صور الرئيس تملأ المكان. لم يكن في الصورة مبتسماً بل ضاحكاً. مقهقهاً. تعبيرٌ لا يتسق بتاتاً مع فظاعة المشهد.

هو يعرف البناية تحديداً ولكنه لا يعرف الشقة. تذكر أن الصبي قد ذكر اسم عمه أمجد. لم يتذكر اسم الأب.

شابان يتسامران بالقرب من مدخل البناية. مشى نحوهما. سألهما عن الشقة التي يسكن فيها أمجد مع عائلته. أخبرهما أن العائلة لديها صبي اسمه غسان.

تبادلا الشابان نظرات لم تخلو من اضطراب وتردد.

«تقصد العائلة التي خُطف ولدها الصغير؟».. استفسر أحد الشابين وكان أصغر عمراً من رفيقه.

«نعم. تماماً. صبي في التاسعة من عمره».

تبادلا النظرات مرة أخرى. «لقد سافروا وتركوا المكان منذ عدة أسابيع».. قال الشاب الآخر وقد ظهر التوتر في صوته.

أصيب «القناص» بإحباط: «سافروا؟ إلى أين؟ هل تعرف عنوانهم الجديد؟».

«ربما إلى الأردن».. قال الشاب الأكبر سناً.

«لا. لقد سافروا إلى لبنان. إلى طرابلس تحديداً».. قال الشاب الآخر، وبدا واثقاً مما يقول.

قاطعه صديقه: «وما أدراك أنت؟ لم يخبرونا بوجهتهم» وبدا عليه الضيق.

«أنا متأكد. بعد أن سافر الجميع أخبرني أمجد في تلك الليلة قبل أن.....»، أدرك أنه باح بمعلومات أكثر مما ينبغي.

«لم يسافر أمجد معهم؟ هل هو موجود في الشقة؟».. سأل بلهفة.

قضب الشاب الأكبر سناً جبينه وأجاب بحزم: «لا. هو غير موجود. الشقة تسكنها عائلة أخرى الآن».

«وأمجد، أين ذهب؟ هل سافر هو الآخر ولحق بعائلته؟». بدأ القلق يتسرّب إلى نفسه، فملامح الشابين المضطربة لا تنبئ بخير.

«وأنت لماذا تسأل؟ هل أنت من العائلة؟».

«لا، ولكني بحاجة للتحدث إليهم في أمر مهم».

«لم يبقَ منهم أحد هنا».. أجاب باقتضاب، ورفيقه الأصغر مطرق رأسه.

سمع سعيد الشاب الآخر يتمتم في سره فسأله: «هل لديكما أي معلومات أخرى تفيدوني فيها حول كيفية الاتصال بأمجد أو باقي أفراد العائلة؟».

«لا، نحن آسفان. ليس لدينا أي معلومات إضافية»، أجاب الأكبر سناً.

قاطعه رفيقه غاضباً وقال بعصبية: «يا سيد، لن تتمكن من الاتصال بأمجد أبداً. أمجد مات. قُتل. قتله جيرانه ليستولوا على شقته. أنا ورفيقي هذا كنا أعز أصحابه. لكنا لم نفعل أي شيءٍ لإنقاذه. استنجد بنا، فاكتفينا بمشاهدته وهو يُذبح كالشاة».

نزل الخبر على سعيد كالصاعقة. ما يحصل في سوريا لا يصدقه عقل. لم يجد ما يقوله. لم يستطع التعليق ولا بكلمة واحدة. اكتفى بطلب أسماء أفراد العائلة الذين سافروا إلى لبنان وقام بتدوينها.

طرابلس ستكون محطته المقبلة.

31

مر يومان. لم تتصل مرام. مر أسبوع. لم تتصل مرام. حاولوا هم الاتصال بها. كان هاتفها خارج التغطية طوال الوقت. ماذا حدث؟ هل عاد الخاطف إلى منزله أم لم يعد؟ هل أخبرته مرام بالزوار الذين جاءوا يبحثون عنه وعن غسان؟ هل انتقم منها؟ هل اختفى مجدداً؟

أسئلة كثيرة كانت تدور في خُلد لميس وأيهم. كانا قد تعلّقا ببصيص الأمل تعلّق الغريق بالقشة. أياماً طوالاً قضياها أمام الهاتف المحمول الصغير انتظاراً للخبر الذي سيزفه إليهما. تفقدا مراراً وتكراراً قوة الإشارة ومستوى الشحن. كم مرة كادا يفقدا صوابهما عندما تختفي إشارة الشبكة، ويصبح الهاتف خارج التغطية. شبكات الاتصال في لبنان سيئة، وفي طرابلس تحديداً الأكثر سوءاً. كان عليهما اتخاذ قرار عاجل. هل يستمرا في الانتظار؟ أم يسافرا إلى سوريا ويذهبا إلى شقة الخاطف مجدداً؟ أيهم كان مصراً على السفر بمفرده. أقنع زوجته أن تنتظر اتصال مرام. كان يدرك خطورة العودة إلى سوريا. لم يشأ أن تتعرض لسوء. ذهابه وحيداً أقل خطراً. في حقيقة الأمر كان بحاجة إلى السفر. كان بحاجة للقيام بشيء ذي قيمة بمفرده. لا بد له من مواجهة أسوأ مخاوفه. كان يدرك أن سفره وتعرضه للمخاطر، ربما يكون الترياق لما يعانيه من فقد لثقته في نفسه وفي رجولته.

سافر أيهم رغم رفض والديه وتردد زوجته. أخبرهم أنه سيذهب إلى طرطوس أولاً ليعرج على منزلهم هناك، ويطمئن على أخيه، ومن ثم يصحبه في زيارته للخاطف. أما ما عزم عليه فقد كان مختلفاً قليلاً، إذ كان مصراً على القيام بالمهمة كاملة بمفرده. لن يزور أخاه إلا بعد أن يلتقي بالخاطف، ويعرف مكان ابنه ويعود به سالماً.

في ذلك اليوم، وبعد انطلاق زوجها في الصباح الباكر، لم تستطع لميس المكوث في المنزل. كانت تعرف أنها ستشعر بضيق شديد. لن تتركها حماتها لتنعم بخلوة مع دموعها. فضلت الذهاب إلى المحل. لم يكن بعيداً عن المنزل. ضيق وفي شارع جانبي. لكنها كانت تشعر فيه بالراحة. كانت تستمتع بكوب الشاي الذي يعده صاحب المقهى على الطرف الآخر من الشارع. الباعة جيرانها طيبون. ربما كانوا متضايقين قليلاً لمزاحمتها لهم في

أعمالهم وهي السورية. ربما كانوا ينظرون إليها شزراً في بداية الأمر. لكنهم وبمرور الوقت تقبلوا وجودها. الأرزاق في نهاية الأمر على الله. كانوا جميعاً يرددون هذه الجملة، وإن تفاوت إيمانهم بها حقيقة. ربما نجحت في كسب ودهم لما لمسوه من أدبها وحُسن تصرفها. أحياناً كثيرة كانت تتعمد بذكاء تحويل بعض زبائنها إلى منافسيها. كانت تخبرهم أن القماش في المحل الفلاني أجود، أو أن تشكيلة الألوان في المحل العلاني أكبر. «أخبروا صاحب المحل أنكم من طرف أم غسان، وستحصلون على معاملة خاصة، وسعر مناسب» بهذه الجملة استطاعت لميس أن تكسب الكثير من الأصدقاء في السوق. لم تعد تلك الغريبة التي جاءت لتقاسمهم أرزاقهم.

كان يوماً هادئاً قليل الزبائن. استطاعت سرقة بعض اللحظات لتتأمل في حياتها. ولدها الوحيد مختطف. زوجها تعرض لصدمة نفسية مزلزلة عزلته عنها تماماً، وها هو قد ذهب برجليه إلى حيث القتل على الهوية. ذهب ليلتقي بخاطف ابنه. ما هذه السذاجة؟ هل يعقل أن يعترف الخاطف أو يعيد ولدهما بهذه السهولة؟ لا بد أنه قد باعه لأناس آخرين، ولا يعرف شيئاً عن مكان وجوده. ماذا لو اعتدى على أيهم وأرداه قتيلا؟ من سيمنعه ومن سيبالي ليحاسبه؟

أزعجتها هذه الفكرة. أزعجها أكثر أنها لم تملك الجرأة لتناقشها مع زوجها قبل سفره. شعرت بالغضب من نفسها إذ سمحت له بالذهاب إلى حتفه بهذه الطريقة.

«السلام عليكم. هذا محل أم غسان؟».

نفضت ما بعقلها من أفكار والتفتت إلى الزبون المحتمل.

«وعليكم السلام. نعم... أنا... أم.... غسان»، خرجت الكلمات من فمها بصعوبة. ملامح الرجل مألوفة. ليست مألوفة فقط. لقد طُبعت في مخيلتها طوال الشهور السابقة. شعور بالخوف ممزوج باللهفة والقلق. أيهم قد سافر. «عد يا أيهم. أنا بحاجة إليكَ الآن. لا داعي لسفرك».. تداخلت الأفكار في عقلها. تسمرت في مكانها. أطالت النظر إليه وهي عاجزة عن التعبير.

استغرب الرجل دهشتها. لا يفترض بها أن تتفاجأ برؤيته وهي لا تعرفه. «هل أستطيع التحدث إليك وإلى زوجك بخصوص أمر مهم؟».

لم تجب، واكتفت بأن أومأت برأسها، وأشارت إليه بيدها ليجلس. بحثت عن هاتفها المحمول وسارعت بالاتصال بزوجها ليعود أدراجه فوراً. الهاتف خارج التغطية. لعنت في سرها شبكات الهاتف في سوريا ولبنان

معاً. «زوجي قد سافر في الصباح إلى سوريا، هاتفه خارج التغطية. تستطيع التحدث إليّ. ماذا تشرب يا سيد سعيد؟» ابتسمت نصف ابتسامة وحاولت أن تبدو قوية ومتماسكة.

نزل سؤالها عليه كالصاعقة. كأن أحدهم قد أفرغ دلواً من الماء البارد على رأسه. هل سمع جيداً؟ ربما تخيّل ما ظن أنه قد سمعه. لا يعقل لهذه المرأة أن تعرف اسمه الحقيقي. لا أحد يعرف اسمه الحقيقي.

لاحظت الدهشة التي بدت في ملامحه. «سأطلب كوباً من الشاي». مشت نحو المقهى المجاور. التفتت لتتأكد أنه لم يغادر مكانه. كان لا يزال ينظر نحوها باستغراب.

عادت أدراجها.

«كيف عرفت اسمي؟» سألها والحيرة لم تفارق وجهه.

جلست بمقابله. دخل زبون إلى المحل فاعتذرت منه وأخبرته أن المحل مغلق.

نظرت إلى الخاطف وهي تتمنى أن تغرز أظافرها في وجهه: «أين غسان؟ هل هو بخير؟» كانت تخفي مشاعرها بصعوبة بالغة.

ازداد حيرة. إنها تعرف كل شيء. ولكن كيف؟ لم يخطئ خطأً واحداً. «كيف عرفتِ كل ذلك؟».

«سأخبرك بكل ما تريد، ولكن بالله عليك، قل لي أولاً أين غسان وكيف حاله. سأعطيك ما تريد. ستحصل على الفدية كاملة أياً كان مقدارها. فقط أعد لي غسان». بدأت تضعف ويخف تماسكها. غريزة الأمومة طغت على كل شيء.

تنهد «القناص». أخذ يبحث عن كلمات تصلح ليعبر بها عن أسفه. لم يقوَ على النظر في عينيها: «لم آتي طلباً لفدية. لا أريد أخذ أموالكم. لست هنا من أجل ذلك. لقد جبت طرابلس كلها بحثاً عنكم. لم أدع أحداً لم أسأله. كنت محظوظاً أن حصلت على أسمائكم الكاملة من جيرانكم في طرطوس. وكنت محظوظاً أكثر عندما اكتشفت أن أحد أعمامك قد سجل اسمه الكامل في دليل الهاتف هنا في لبنان. لولا تكرمه بإعطائي عنوانك هنا، لما تمكنت من الوصول إليكم أبداً. لقد جئت من سوريا إلى لبنان خصيصاً لألتقي بكم. لقد جئت ببساطة لأطلب السماح. أنا أعرف أن ذنبي لا يُغتفر، وأدرك أن قدومي إليكم ووقوفي بين يديكم فيه خطر على حياتي».. توقف عن الحديث عندما اقترب صبي المقهى ووضع كوب الشاي أمامه وانصرف. «نعم، لقد اختطفت ولدك غسان طمعاً في بيعه إلى عصابة

مختصة في المتاجرة بأطفال التبني. فعلت ذلك عشرات المرات مع أطفال من كل الأعمار ولم أبالي أو أتأثر. لست فخوراً بذلك الآن. شيءٌ ما في غسان جعلني أندم. شيءٌ ما في صدري منذ أن وقعت عيناي عليه، أخبرني أنها ستكون المرة الأخيرة». توقف برهة، ورفع رأسه لينظر إليها مباشرة والألم بادٍ في عينيه. وجدها تنصت إليه وعلى وجهها شبح ابتسامة. أدرك أنها ابتسامة الأمل. لا بد أنها ظنت أنه قد جاء ليعيد إليها ولدها. ربما كانت تنتظر أن يخبرها أن ابنها قد سبقها إلى المنزل، أو أنه يقف على ناصية الشارع، بانتظار إشارة منه ليسرع إليها فيفاجئها. أطرق مجدداً. لم يشأ أن يكون شاهداً على طمس النور الذي تلألأ في عينيها: «يؤسفني أن ندمي جاء متأخراً. شاء القدر أن يستيقظ ضميري بعد فوات الأوان». توقف لحظة ليستجمع قواه.

شعرت لميس بنغصة في صدرها. تعاظم خوفها عند سماعها لجملته الأخيرة. ماذا يقصد؟ ماذا حل بغسان؟ «متأخراً كيف؟ فوات الأوان على ماذا؟ بالله عليك لا تقتلني خوفاً عليه».

«لقد حاولت جهدي إنقاذه من براثن العصابة. راقبتهم. لحقت بهم. سافرت إلى قبرص في أثرهم. تعرضت للضرب من قبلهم. خاطرت بنفسي. لجأت للشرطة. بكل أسف لم أستطع تخليصه من بين أيديهم في الوقت المناسب. كل ما أعرفه الآن أنه سافر مع العصابة إلى فرانكفورت باسم مستعار هو توماس». دمعت عيناه للمرة الأولى في حياته. كان يتكلّم كمن فقد فلذة كبده.

«ماذا تقول؟ قبرص؟ فرانكفورت؟ توماس؟ ولدي غسان أصبح توماس؟ ولدي غسان في ألمانيا؟ أنت كاذب. بالطبع أنت كاذب. لا بد أنك تخطط لجريمة جديدة. ألا تخاف الله؟ ألا يكفيك ما فعلته بنا؟» بدأت تتلعثم وتتكلّم جُملاً غير مترابطة.

دخل أبو أيهم المحل. رآها وقد خضبت الدموع وجنتيها. نظرت إليه. هبت من مكانها. «أبو أيهم. غسان في ألمانيا. هل تصدق ذلك؟ هذا الرجل يقول أن غسان قد أصبح توماس. لقد أصبح بعيداً. بعيداً جداً. كيف سنستعيده الآن؟ أبوه وعمه في سوريا. يجب أن ألحق بهما. لا بد أن نسافر إلى ألمانيا».

رفع سعيد رأسه. أدرك أنهم لا يعرفون مصير أمجد. لم يبح بما يعرفه. لم يشأ أن ينقل إليهم المزيد من الأخبار السيئة.

لم يفهم أبو أيهم كلمة واحدة مما قالته. طلب منها أن تهدأ وتعيد

على مسامعه ما قالت ولكن بالتفصيل. نظر إلى الرجل الذي يجلس أمامها وقد دمعت عيناه: «لم أتشرف بمعرفتك».

سارعت لميس لتجيب عنه: «لن تصدق يا عمي. لو دققت النظر ربما تتعرف عليه بمفردك. إنه الرجل الذي سلبنا الفرحة. هذا الرجل الذي نشرنا صوره في كل مكان. هذا الرجل الذي قلبنا سوريا بحثاً عنه، وصلنا إلى منزله وجلسنا مع زوجته. إنه الخاطف يا عمي. لقد جاء ليعتذر. هل تصدق ذلك؟ خاطف ولدي الوحيد جاء ليطلب السماح بعد أن باعه إلى عصابة دولية. هل رأيت وقاحة أكبر من ذلك؟ ولكن قل لي بالله عليك. لماذا اخترتَ ولدي تحديداً؟ هل كان اختياراً عشوائياً؟ هل أعجبتكَ وسامته؟».

تفاجأ «القناص». لقد تعرّفت عليه إذاً عن طريق زوجته مرام. سيحاسبها حساباً مريراً إن كُتبت له الحياة بعد هذه الزيارة. أراد أن يرد. لم يمهله الجد. انهال عليه بلكمات لم تكن موجعة. لم يقاوم. انتظر حتى هدأ وخارت قواه. فتش في جيوبه. أخرج محفظته وسحب منها صورة ملونة أعطاها للميس.

تناولتها وأخذت تنظر إليها بتمعن. «من أين لك هذه الصورة؟ لا أذكر أنها التقطت لغسان. هل صورته بعد اختطافه؟ يبدو مختلفاً ولكنه سعيد ويبتسم».

«هذا ليس غسان. لقد طُلب مني أن أعثر على صبي يشبه صاحب الصورة، بحثت طويلاً إلى أن أوقعكم القدر في طريقي».

بدأت الأمور تتضح للميس. لقد اختطف ولدها لأنه يشبه صبياً ما في بلد آخر. اختطف بغرض التبني. ربما مات صاحب الصورة إذاً، وقرر ذووه تبني صبي يشبهه ليذكرهم به. سألته إن كان يعرف أسماء أفراد العائلة التي تبنته. أكد لها أنه لا يُعرف أي شيء سوى ما باح به.

شيء ما خطر ببال لميس عندما أمعنت النظر في الصورة. معلومة ما في أعماقها كانت بحاجة للخروج إلى السطح. حيلة تقنية تعلّمتها من أمجد. حيلة قد تساعدها الآن في الوصول إلى ولدها. كانت بحاجة إلى ماسح ضوئي. عليها تحويل الصورة إلى صيغة رقمية.

بدون مقدمات طلبت من حماها أن يجلس مع خاطف ولدها وينتظرها ريثما تعود. أخبرته أنها لن تتأخر. «لا تحاول قتله. أنا مازلت بحاجة إليه». انطلقت بحماسة كبيرة.

لأول مرة منذ أشهر، شعر غسان بسرور حقيقي. دب فيه النشاط. أصبح وكأنه شخص آخر. لاحظ فلوريان هذا التغيير وأدرك أسبابه. الصبي سعيد باستعادة حريته وتواقٌ للسفر إلى والديه. كارولين عادت إلى طبيعتها. أحبت غسان وتعلّقت به، مع علمها أنه سيتركها قريباً. مهمة إعادته لوالديه كانت كفيلة بإشغالها عن التفكير في ولدها. حضت زوجها على تسخير كل نفوذه وإمكانياته لضمان رجوع الصبي إلى أهله سالماً، ومن دون التعرض لأي أخطار.

أراد في البداية إبلاغ الشرطة للقبض على سليم ألماظ وعصابته. تراجع بعد أن أقنعته زوجته بأن ذلك قد يتسبب في إقدام العصابة على الانتقام من الصبي أو أهله. كان الخيار الآخر المتاح هو محاولة الاتصال بوالدي غسان، ثم إيجاد طريقة للسفر به وتسليمه لهما بعيداً عن أعين المجرمين. من سوء الحظ، كانت جميع الهواتف التي يحفظ غسان أرقامها مقفلة أو خارج نطاق التغطية. كان لا بد من التفكير في طريقة أخرى للوصول إلى ذويه. اقترح غسان أن يسافر مع مجموعة من رجال فلوريان إلى سوريا لإعادته إلى منزله. رفضت كارولين هذه الفكرة أيضاً لما فيها من مخاطر محتملة. بدلاً من ذلك، ألحت على زوجها ليرسل أحد رجاله إلى سوريا، وتحديداً إلى منزل عائلة غسان. العنوان يحفظه الصبي بشكل جيد. حاولت إقناعه بأن المهمة ليست صعبة، فكل ما على الرجل فعله دخول سوريا كصحفي، إما بالحصول على تأشيرة من السفارة في ألمانيا، أو بالتسلل عن طريق الأراضي التركية، ثم التوجه إلى بيت العائلة، والاتصال بألمانيا من هناك ليتحدث غسان إلى والديه ويطمئنهما عليه، ثم يتم الاتفاق معهما على الالتقاء بهما في تركيا لاستلام ولدهما بشكل آمن. ابتسم فلوريان عندما علم بخطة زوجته. لم تكن صعبة التطبيق على الإطلاق، ولكنها قد تتسبب فقط في قتل الرسول أو اختطافه وطلب فدية للإفراج عنه. كان مدركاً أن المهمة محفوفة بالمخاطر، لهذا فقد اختار لها ثلاثة من أفضل رجاله ممن يعملون في فريق حراسته، بعد أن شرح لهم أبعادها ومدى سريتها. وافق الثلاثة واستعدوا للمغادرة. اهتم فريق آخر في استخراج التأشيرات وإعداد الهويات وشراء الهواتف الفضائية اللازمة لتنفيذ المهمة. لم يمر سوى أسبوع وأصبحت الخطة جاهزة للتطبيق.

اجتاز الحدود بصعوبة بالغة. مر بنقاط تفتيش متعددة، لبنانية رسمية، لبنانية تابعة لحزب الله، سورية تابعة للنظام، وأخيراً مر بنقطة

تفتيش تابعة للجيش الحر. من سوء حظه، كان دخوله متزامناً مع حملة عسكرية كبيرة يشنها النظام بالاستعانة بميليشيات حزب الله.

ما أن اجتاز النقطة التابعة للجيش الحر حتى تعرّضت لقصف عنيف. رأى بأم عينيه القذائف وهي تتساقط من السماء لتدك الأرض قريباً منه. كان في ذهول جعله لا ينتبه إلى أن سيارته تتحرك بسرعة منخفضة جداً. لم يبتعد عن نقطة التفتيش إلا أمتاراً معدودة.

أفاق من ذهوله عندما اقتحم السيارة فجأة ثلاثة شبان مسلحين. جلس أحدهم بقربه بينما جلس الآخران في المقعد الخلفي.

«مشان الله تحرك بسرعة. سيارتنا أصيبت بقذيفة. نحن بحاجة إلى مساعدتك». تكلّم الشاب الذي بجانبه بلهجة رجاء خالية من أي تهديد.

تلعثم أيهم: «أساعدكم؟ نعم. حسناً. لكن كيف؟ أين نذهب؟».

«انطلق. انطلق بسرعة قبل أن نصبح هدفاً سهلاً للطائرة فوقنا».. ربت أحد الشابين في المقعد الخلفي على كتفه ليحثه على الإسراع.

ضغط على دواسة البنزين بأقصى قوة، فأصدرت العجلات صفيراً عالياً، ثم استجابت للأمر وانطلقت مسرعة. بعدها بثانية سمع دوي انفجار كبير نتج عن صاروخ أصاب نقطة التفتيش، وطمس معالمها، وحولها إلى حفرة كبيرة.

«شكراً لك يا طيب. لقد أنقذت حياتنا».. قال الشاب العشريني الذي يجلس إلى جانبه وهو ينظر إلى الخلف متأملاً الانفجار.

«العفو. هذا واجبي».. لم يستطع قول المزيد. سرق بعض النظرات تأمل فيها وجوه رفاقه الجدد. كانوا جميعاً في مقتبل العمر. تبدو في ملامحهم الحماسة رغم ما يظهر عليهم من إرهاق شديد. استجمع شجاعته وسألهم: «هل كنتم جميعاً مجندين في الجيش السوري النظامي قبل انضمامكم إلى الجيش الحر؟».

«بعضنا كان كذلك».. أجاب أكبرهم وكان يجلس في المقعد الخلفي. توقف برهة ثم أكمل: «لكنهم استشهدوا جميعاً الآن. لم يبقَ سوانا. نحن طلاب في كلية الطب. انخرطنا مع الجيش الحر لتقديم الرعاية الطبية وإنقاذ ومعالجة المصابين. في البداية لم نحمل السلاح، ولكن بمرور الوقت وازدياد المخاطر، أُرغمنا على حمله للدفاع عن أنفسنا».. نظر إلى أيهم وسأله: «وأنت، ماذا تفعل هنا؟».

«اختُطف ولدي وأنا الآن في طريقي للبحث عنه». أحس بالثقة وهو يتحدث عن مهمته.

نظر الشبان إلى بعضهم البعض: «هل اختطف منذ وقت طويل؟» سأل أحدهم.

«منذ بضعة أشهر».

نظر أيهم عبر المرآة. تغيّرت تعابير وجوههم.

«صبرك الله وحفظك وأهلك».. قال الشاب الذي جانبه بنبرة مواسية.

شكره أيهم وسأله عن الوجهة التي يودون الذهاب إليها.

أخبره أن الأوامر لديهم هي بالتوجه إلى قلب حمص، حيث تدور أشرس المعارك. «لا داعي لتأخذنا إلى هناك. يكفي أن نقترب قليلاً من الريف. تنتظرنا مجموعة من رفاقنا على الطريق».

أومأ أيهم برأسه. زاد من سرعة السيارة. أكمل طريقه صامتاً ينصت لأحاديث أولئك الطلاب الذين تغيّرت حياتهم، وأصبحوا جنوداً فجأة. قصصهم تفوح منها رائحة الدم والموت. كمائن وانفجارات وقتل بالجملة. معنوياتهم مرتفعة. موقنون بالنصر رغم طول الأمد.

بعد مضي بعض الوقت، أخبره أكبرهم سناً أنهم أصبحوا قريبين من نقطة الالتقاء المتفق عليها، وأن عليه التخفيف من سرعة السيارة. استجاب أيهم وخفض السرعة إلى أربعين كيلو متراً في الساعة فقط.

فجأة، وفي لحظة، انهالت زخات قوية من المطر. صوت ارتطامها بهيكل السيارة كان شديداً. نظر أيهم أمامه. الزجاج نظيف ولم تصبه قطرة ماء. زاد الصوت قوة. تهشمت إحدى النوافذ. تناثرت قطع الزجاج. سمع أحدهم يصرخ في المقعد الخلفي ويصيح: «لقد أُصبت. يا الله. يا إلهي أنقذني».

شعر أيهم وكأن الزمن توقف. كان لا يزال يسمع الاستغاثات من المقعد الخلفي. لم يجرؤ على النظر في المرآة. كان يضغط على دواسة البنزين بكل ما أوتي من قوة. لم يعرف إن كان قد أصيب هو الآخر أم لا.

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».. سمع أحدهم يتشهد.

تحول الصراخ إلى أنين ثم توقف. توقف الصوت وتوقف هطول المطر. توقفت أيضاً السيارة. أخذت تهبط شيئاً فشيئاً. تسلل الماء إلى الداخل. نظر أيهم إلى الشاب بجانبه. كان رأسه مائلاً ناحية الباب. رقبته وثيابه تخضبت باللون الأحمر القاني. نظر خلفه. لا صوت لا حركة. لون أحمر بدأ يمتزج بماء البحيرة الذي أصبح يعلو شيئاً فشيئاً.

حاول أن يحرر نفسه. آلمه كتفه الأيسر. لقد أصيب هو الآخر. دار به سقف السيارة. فقد القدرة على التركيز. أغمض عينيه. أخذ يبلع الماء واستسلم للغرق.

34

عادت ومعها حاسوبها المحمول. ملامح وجهها تنضح حماسة. وضعته أمامهما وقامت بتشغيله. سألها حماها عما يدور في رأسها. طلبت منه أن ينظر إلى الشاشة. فتحت متصفح الإنترنت وتوجهت إلى موقع محرك البحث «جوجل».

«قبل فترة، رأيت أمجد منهمكاً بالعمل على حاسوبه. عندما سألته عما يفعله. أخبرني بحماسة أن موقع البحث الخاص بـ«جوجل» بات يقدم خدمات شيقة ولا تخطر ببال. أخذني بعدها في جولة لاستعراض تلك الخدمات. عندما عرض عليّ سعيد اليوم صورة الصبي الذي يشبه غسان، تذكرت إحدى تلك الإمكانيات التي يوفرها «جوجل». في العادة، يتم البحث في شبكة الإنترنت عن طريق إدخال كلمات ذات دلالة حول الموضوع الذي يهم الباحث، ليقوم المحرك بإرجاع الصفحات التي تحتوي على تلك الكلمات. كما يمكن البحث عن الصور بنفس الطريقة».. توقفت للحظة لتتأكد من أنهما يفهمان ما تقوله. بدا سعيد مهتماً وقادراً على الاستيعاب بعكس حماها.

تابعت شرحها: «الخدمة الجديدة التي يقدمها «جوجل» تتمثل في إمكانية البحث عن الصور باستخدام صور شبيهة». نظرت إليهما مجدداً فلاحظت الحيرة التي كست وجهيهما. «ما أقصده، أننا نستطيع تلقيم محرك البحث بصورة الصبي التي جاء بها سعيد، ليعود إلينا بجميع الصور المخزنة لديه لنفس الصبي أو لشبيهين به. بالوصول إلى صور الصبي، نستطيع تصفح المواقع التي تحوي تلك الصور، والتي قد تحمل بعض المعلومات أو التفاصيل الإضافية عنه، ما يساعدنا في الوصول إلى العائلة التي تبنت ولدنا». توقفت لحظة ثم استدركت: «لكن، من المهم أن أذكر أن محرك البحث قد لا يكون دقيقاً بما يكفي، فهي تقنية جديدة لا تزال تحت التجربة كما فهمت من أمجد، وتعتمد على قياسات الوجه والمسافة بين العينين، ما يعني أنه من المحتمل أن نحصل على مجموعة كبيرة من الصور لأولاد أو أشخاص لديهم بعض الملامح المشتركة مع الصبي صاحب الصورة». توقفت لميس، وابتسمت ابتسامة عريضة، عندما لاحظت أن حماها قد بدأ يتململ.

«تقصدين أنك تودين البحث عن معلومات عن الصبي الذي يشبه ولدك بتزويد الحاسوب بصورته، والطلب منه إيجاد أي صور إضافية أو تفاصيل عن صاحب الصورة. أليس كذلك؟ هل فهمت ما تقولين؟».. سأل سعيد باهتمام.

ابتسمت لميس: «نعم، ما تقوله صحيح إلى حد كبير».

نظر أبو أيهم إليهما: «لم أفهم ما تقولانه، ولكن إن كان جوجو هذا قادراً على إيجاد حفيدي فلتستعيني به فوراً».

ضحكت لميس وغطت فمها بكفها: «جوجل يا عمي وليس جوجو». أشار بيده إليها وكأنه يخبرها أن الاسم غير مهم.

أدخلت صورة الصبي والتي حصلت عليها بمسح الصورة الورقية وتحويلها إلى صيغة رقمية. طلبت من المحرك أن يبحث في قاعدة بياناته كلها، دون استخدام أي فلاتر. نقرت على مفتاح الإدخال وانتظرت ثانية، ظهر بعدها عدد كبير من الصور. يناهز مجموعها الألف. أخذت تتفحصها بحماسة، أغلبها كانت لصبيان يشبهون غسان إلى حد ما، مع اختلاف في لون الشعر أو البشرة أو العينين. مقدار الشبه كان متفاوتاً. أدركت أن تصفح جميع الصور سيستغرق وقتاً طويلاً. التفتت إلى رفيقيها، ولاحظت كم كانا مبهورين بما يريانه.

فكرت بطريقة لتضييق نطاق البحث. «إلى أي بلد قلت أن العصابة قد أخذت غسان؟» سألت سعيداً.

سرح بذهنه لحظة ثم أجاب: «غسان وخاطفه ركبا الطائرة المتوجهة إلى فرانكفورت في ألمانيا، ولكني لا أعرف إن كانت تلك وجهتهما الأخيرة أم لا».

هزت لميس رأسها وفكرت قليلاً ثم قالت: «سأضيّق نطاق البحث للتركيز على النتائج القادمة من أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية فقط».

عدلت فلاتر البحث ونقرت على مفتاح الإدخال. ظهر عدد أقل من الصور. 157 صورة فقط. قبل أن تشرع في تصفحها، قررت أن تعدل مجدداً في فلاتر البحث، وجعلها تقتصر فقط على الصور القادمة من ألمانيا. نقرت مفتاح الإدخال مجدداً.

بدأت الصور بالظهور. تسمرت مكانها من الدهشة. ابتسمت ابتسامة عريضة ثم التفتت إلى حماها وإلى سعيد. كانت مفاجأة بحق. لقد ظهرت نفس الصورة. نفس الصورة التي حملها سعيد إليها، ولكنها هذه المرة بدقة أعلى وجودة أكبر بكثير. كان من الواضح أن أغلب الصور الخمسين التي

تم عرضها هي لنفس الصبي. كانت من مواقع إلكترونية مختلفة. بعضها مواقع إخبارية. جميعها باللغة الألمانية. سارعت لميس فنقرت على رابط أحد تلك المواقع. ظهرت صفحة تحوي كلاماً كثيراً، وفي أعلاها إلى اليسار صورة نفس الصبي. لم تفهم شيئاً مما كتب فطلبت من محرك البحث ترجمة الصفحة إلى العربية. خلال ثوانٍ معدودة ظهرت الصفحة مجدداً ولكن باللغة العربية هذه المرة. أخذت لميس تقرأ المقال المترجم أمامها. لم تكن الترجمة دقيقة، ولكنها كانت تفي بالغرض لتفهم المغزى. لقد كان مقالاً تأبينياً يتحدث عن تفاصيل حادث مأساوي أودى بحياة صبي من عائلة أرستوقراطية. دهشت عندما اكتشفت أن الصبي يحمل اسم توماس. أي نفس الاسم المستعار الذي اختير لولدها، كما أخبرها سعيد. استنتجت أن عائلة هذا الصبي الذي قضى في الحادث، قد تكون هي نفسها العائلة التي تبنت ولدها.

خطرت ببالها فكرة. رجعت إلى الصفحة الأصلية غير المترجمة وانتقلت إلى السطر الذي يحتوي على اسم الأب والعائلة وقامت بنسخه إلى ذاكرة الحاسوب. فتحت صفحة بحث جديدة، ولصقت اسم الأب مع العائلة، من الذاكرة، ونقرت على مفتاح الإدخال. نسيت تماماً أن حماها وسعيد لا يزالا معها في نفس الغرفة. أخذت تعمل بشكل سريع دون أن تفسر لهما ما تفعله. اكتفيا بالمراقبة. استطاعت، وفي أقل من ساعة، أن تجمع معلومات كثيرة عن الأب وعائلته. عرفت أنها عائلة كبيرة وشهيرة في ألمانيا. حصلت على أسماء شركاته وعناوينها. وبقليل من الجهد وصلت إلى رقم هاتف مكتبه الخاص. كانت تشعر بسعادة عارمة وتشويق لا مثيل له. لقد أحست أنها أصبحت على بُعد خطوات فقط من الوصول إلى ولدها الوحيد. أخذ قلبها ينبض بشدة. التفتت إلى حماها وإلى غريمها.

«لقد وصلت إليه. أصبح رقمه بحوزتي. سيعود غسان إلينا يا عماه».. فردت ذراعيها. حضنت حماها وألقت برأسها على كتفه. تذكرت زوجها: «علينا الاتصال بأبيهم وإخباره بالمستجدات. سيفرح كثيراً. عليه أن يعود مع أمجد فوراً. حاول يا عمي الاتصال به. أما أنا فسأتصل بالسيد..». أخذت تهجي اسمه: «فلووورياان. أتمنى أن يجيد الإنجليزية، وأن أتمكن من إقناعه بأني والدة الصبي الذي تبناه. ادع لي يا عمي أن أنجح في حثه وزوجته على إعادته لنا». ربت على ظهرها، وأخذ يدعو لها ولولديه وحفيده.

كان «القناص» يراقب ما يحدث وهو في حالة مضطربة بين السرور والشعور بالإحراج للتسبب في كل هذه المعاناة. أخذ يفكر في عشرات

العائلات التي تسبب في فقدانها لأولادها. تمنى بينه وبين نفسه أن تنشق الأرض وتبلعه. تمنى حقاً أن يتمكن من التكفير عن ذنوبه. أدرك أن دوره قد انتهى هنا، ولكنه عزم على الانتظار ريثما يتأكد من أن العائلة الألمانية ستوافق على إعادة غسان إلى ذويه. نظرت لميس إليه. توقع أن تعنفه أو تبصق في وجهه. لن يغضب فهذا أقل مما يستحقه. لكنها لم تفعل ذلك. لقد ابتسمت في وجهه وشكرته. شكرته لأن ضميره استيقظ وامتلك الشجاعة ليأتي إليها ويعترف لها بما اقترفه. أخبرته أنها مع ذلك، لن تسامحه، إلا إن تمكنت من استرجاع ولدها سالماً.

35

«مرحباً. هل بإمكاني التحدث إلى السيد فلوريان».. قالتها بإنجليزية سليمة بعد أن تدربت طويلاً على صياغة الجمل من أجل هذه المحادثة.

«من يطلبه؟» ردت السكرتيرة بلكنة ألمانية.

«أخبريه أن الاتصال من لبنان. اسمي لميس. أنا من سوريا. أنا أم توماس. أنا أم غسان. أخبريه أنت وسيفهم».

دونت البيانات رغم استغرابها: «السيد فلوريان لم يأتِ إلى المكتب اليوم، ولكني أستطيع تحويلك إلى هاتفه المحمول. دعيني أرى إن كان باستطاعته استقبال مكالمتك». تركت المتصلة في وضعية الانتظار، وقامت بطلب رقم مديرها الخاص.

بعد بضع رنات: «نعم لارا. ماذا لديكِ؟».

«لقد اتصلت سيدة من لبنان تتكلّم الإنجليزية وتود الحديث إليك. تقول أنها من سوريا، وأن اسمها لميس. قالت أيضاً أنها أم توماس، وأم هسان».

«ماذا؟ هل أنت متأكدة أنها قالت ذلك؟ أم غسان وأنها سورية؟».. سألها بلهفة كبيرة لم تعتدها منه.

تلعثمت قليلاً: «نعم سيدي. أنا متأكدة».

«صليني بها فوراً».

«حاضر سيدي. تفضل هي معك على الخط الآن».

«هالو. سيدة لميس؟ أنا فلوريان».

«مرحباً سيد فلوريان. أنا أتصل من لبنان. أنا سوريّة. أنا أم توماس».. توقفت لحظة ثم أضافت: «ألم تتبنَ صبياً اسمه توماس أو غسان؟ أنا أمه».

«نعم. نعم. يا إلهي. هل هذه حقاً أنت؟ كنت سأبعث رجالي ليقلبوا

سوريا بحثاً عنك». تحدث بحماسة واضحة.

لم تتأكد لميس من فهمها لكلامه: «أنت تعرفني؟ طمئني من فضلك. هل غسان بخير؟ هل تعاملوه معاملة حسنة؟».

«غسان بخير، لا تقلقي. نحن نبحث عن عائلته لنعيده إليها. لقد عرفنا مؤخراً فقط أنه تعرّض للاختطاف. انتظري لحظة».

أحست لميس بشيء من الطمأنينة رغم أنها لم تفهم كلامه بشكل جيد. فهمت أن غسان بخير. بدا لها فلوريان رجلاً طيباً.

«ماما. ماما حبيبتي. هاي إنتِ عن جد؟».

انتفض قلبها بشدة فجأة. لم تصدق ما سمعته. إنه صوت ولدها. هول المفاجأة جعلها غير قادرة على الكلام. بدلاً من ذلك انفجرت باكية.

سمع غسان صوت بكائها: «ماما. إنتِ بتبكي؟ وينك؟ ردي عليّ. أنا غسان ابنك. حبيبك. اشتقتلك يا ماما. أخذوني بعيد عنك. أنا مو قادر أعيش بعيد عنك وعن بابا. بدي أرجعلكم. مشان الله ردي عليّ يا ماما».. أخذ يبكي هو الآخر.

«غسون حبيبي. أنا الماما. كيفك يا روحي؟» اختلط كلامها بدموعها التي انهمرت غزيراً: «أنتَ بخير؟ أنا كنت حجن وأنتَ بعيد عني. طمني عنك. حدا أذاك؟ صحتك منيحة؟».

«أنا بخير يا ماما. أنا عند ناس طيبين. وعدوني يرجعوني لعندكم. وين البابا؟ اشتقتله كثير. خليني أكلمه الله يخليكِ».

«حبيبي إحنا بلبنان. هربنا من الحرب في سوريا. أبوك رجع عسوريا يدور عليك ويسألك عنك. قصة طويلة بس تجي لعنا بنحكي. إن شاء الله برجع أبوك وعمك سالمين، وبنلتقي كلنا مع بعض». كفكفت دموعها وطلبت من غسان أن يعطي الهاتف للسيد فلوريان لتستفسر منه عن كيفية استعادة ولدها.

«سيد فلوريان. أنا شاكرة لك ولزوجتك حسن معاملة ابني». أرادت أن تقول له أن جميلهما سيبقى في عنقها إلى يوم الدين، ولكنها لم تعرف كيف تعبّر عن ذلك بالإنجليزية: «لن أستطيع شكركما بما يكفي».

«لا داعي للشكر. ولدك شجاع وطيب وتستطيعين أن تفخري به».

«هل تستطيع مساعدتنا في إرجاع غسان إلينا؟» سألته بشيء من الخجل.

«لا تقلقي. بينما كنت تتحدثين معه طلبت من السكرتيرة أن تحجز ثلاث تذاكر لغسان ولي ولكارولين زوجتي. فهمت أنك في لبنان. سنأتي اليوم

على متن أول طائرة متجهة إلى بيروت. سأدع غسان يخبرك بموعد وصول الرحلة لتستقبليه في المطار. سأكون وزوجتي معه لنتأكد من وصوله بالسلامة ثم نرجع في نفس اليوم».

فهمت لميس أغلب ما قاله: «شكراً لك يا سيد فلوريان. انقل شكري لزوجتك. يجب أن تقضوا شهراً على الأقل في ضيافتنا».

ضحك فلوريان: «شكراً جزيلاً لكِ على هذا العرض. للأسف فلدي الكثير من الأعمال هنا. سنستأذنك فقط بالسماح لنا بالاتصال بغسان مرة في الشهر لنطمئن على أخباره. أعدكِ أننا لن نسبب لك أي إزعاج».

«تستطيعان الاتصال بغسان، وزيارته في أي وقت. سنكون جميعاً سعيدين بذلك».

شكرها فلوريان مجدداً وأعطى الهاتف لغسان بعد أن أخبره بموعد وصول الطائرة وفقاً للحجز الذي قامت به لارا.

دونت لميس تفاصيل الرحلة، وتنبهت إلى أن المكالمة على وشك الانتهاء نظراً لنفاد الرصيد، فطلبت من ولدها أن يكتب رقم هاتفها المحمول ليتحدث إليها بعد انقطاع الاتصال.

أنهت المكالمة وهي تكاد تطير فرحاً. عادت إلى المحل وكانت قد غادرته لأنها فضلت الاتصال وهي بمفردها. أخبرت حماها وسعيد بما حدث. سرا كثيراً بهذه الأخبار.

شعر «القناص» بفرحة عارمة. سيعود غسان إلى أهله أخيراً. لأول مرة منذ سنين يتذوق طعم السعادة الحقيقية. بإمكانه الآن الحصول على بعض الطمأنينة. ودع لميس وطلب منها السماح مجدداً. وعدته بذلك بمجرد أن تضم غسان إلى صدرها. سلّم على حماها الذي كانت عيناه تقطران كرهاً له. لم يلمه. لوح لهما بيده وانطلق عائداً إلى العراق مروراً بسوريا. منذ اللحظة لن يكون هناك قناص. لقد دُفن «القناص» إلى الأبد.

أما لميس، فكان عليها تجهيز البيت لاستقبال ولدها. أخبرها غسان أن الطائرة ستصل الليلة في تمام الساعة الحادية عشرة. نظرت إلى ساعتها. عليها الانطلاق من بيتها في طرابلس بعد سبع ساعات. أقفلت المحل وأخذت بيد حماها تحثه على الإسراع في المشي. تمنت أن تنقضي هذه الساعات في لحظات. تمنت لو تقفل عينيها وتفتحهما لتجد غسان بين ذراعيها. فجأة تذكرت أيهم. توقفت في منتصف الطريق. أخرجت هاتفها وسارعت لتحاول الاتصال به. بقي في رصيدها القليل. كالعادة، الهاتف مغلق أو خارج نطاق التغطية. ستحاول مجدداً مراراً وتكراراً إلى أن يرد. أرسلت

له رسالة قصيرة تخبره بآخر المستجدات. بعثت الرسالة ولكنها لم تصل. إذا وصلت ستعرف ذلك.

36

وصل مرهقاً جداً. طرق الباب. انتظر قليلاً. لم يفتح أحد. أعاد الكرة مجدداً. ما من مجيب. الشقة فارغة. كتفه لا تزال تؤلمه. لم يتعافَ بشكل كامل.

«ربما ذهبوا إلى المحل».. فكر في نفسه، رغم أن ذلك مستبعد، فليس من عادة أمه ترك البيت والذهاب إلى المحل. عليه المحاولة. خرج من البناية وتوجه إلى السوق.

المحل أيضاً مغلق. هذا غريب. في العادة يكون مفتوحاً في هذا الوقت. سأل المحلات المجاورة عن زوجته. أخبروه أنها أقفلت مبكراً اليوم، وكانت في عجلة من أمرها. عرف أنها كانت بصحبة والده. عاد أدراجه إلى الشقة وطرق الباب مجدداً. لم يفتح أحد. فتحت جارته باب شقتها وطلت برأسها. أخبرته أنها رأتهم جميعاً يغادرون الشقة قبل ساعة. لم تعرف إلى أين توجهوا. أغلقت بابها بعد أن شكرها.

كان متعباً جداً. جلس على الأرض وأسند رأسه إلى باب الشقة. أغمض عينيه. كان مثقلاً بالهموم. رحلته لم تجر كما خطط لها. تعرض لإطلاق نار وأصيب في كتفه. غرقت سيارته وكاد يفقد حياته بعد أن ابتلع الماء وابتلعته البحيرة. لم ينقذه إلا صوت ولده غسان يناديه: «أبي، لا تستسلم. أنا بحاجة إليك. لا تتركني وحدي». كانت هذه الكلمات كفيلة في بعث الروح في جسده من جديد. قاوم الغرق. فك الحزام. دفع بجسده خارج النافذة بكل ما أوتي من قوة بعد أن فشل في فتح الباب. البحيرة عميقة. جاهد ليسبح نحو السطح. لم يستطع الرؤية جيداً تحت الماء. لم يكن سباحاً متمرساً. بمضي الثواني الثمينة بدأت تخور قواه وينقطع نفسه. أدرك أنه ميت لا محالة. لكن كلمات ولده كانت لا تزال ترن في أذنيه. ضغط على نفسه أكثر ودفع نفسه نحو الأعلى. فجأة شعر بنفسه ينطلق نحو السطح بسرعة. مخلوق ما أمسك به من تحت إبطه وسحبه نحو النور. لم يعرف إن كان ملاكاً أم جنياً. لم يكن ذلك مهماً. المهم أنه بعد لحظات طفا على السطح، واستطاع أن يأخذ نفساً عميقاً ملأ صدره بالهواء النقي. استمر ذلك المخلوق في سحبه بعيداً إلى أن وجد نفسه فوق اليابسة بعيداً عن الماء. نظر إلى منقذه. كان شاباً يافعاً لم يبلغ العشرين من عمره. كان أحد أفراد المجموعة التي كان يفترض أن يلتقي بها رفاقه

ليكملوا طريقهم سوياً إلى حمص. شاء الله أن يتعرضوا لكمين نصبه جنود النظام قبل وصولهم إلى هدفهم. حزن كثيراً عندما عرف أن جميع من كانوا برفقته في السيارة قد فارقوا الحياة. كان الناجي الوحيد.

جفل أيهم عندما مر قط فوق قدميه الممددتين أمام الشقة. سحب رجليه وتابع القط طريقه. أسند رأسه مجدداً وعاد إلى ذكرياته. أنقذه الجيش الحر وبات ليلته معهم. أخرجوا الرصاصة من كتفه وضمدوا له جرحه. في الصباح ساعدوه بالوصول إلى منطقة آمنة بعيدة عن خط النار. أعطوه بعض المال بعد أن غرقت محفظته. استقل سيارة أجرة وتوجه مباشرة إلى منزل الخاطف. طرق الباب ففتحت مرام له. كان في حال يرثى لها. اعتذر عن مظهره غير الملائم وسألها إن كان زوجها قد عاد إلى المنزل. أخبرته أن سعيد لم يرجع بعد، وأنها لا تستطيع السماح له بالدخول لأنها لوحدها في الشقة. وعدته أن تتصل بلميس بمجرد أن يعود زوجها من سفره.

شكرها وعاد مع سيارة الأجرة التي كان قد طلب من سائقها الانتظار قليلاً قبل أن يغادر. لم يستفد شيئاً من هذه الزيارة. قرر التوجه إلى منزل العائلة في طرطوس لزيارة أخيه والاطمئنان عليه.

فتح عينيه. لم يستطع الاستمرار في سيل الذكريات فالقادم مؤلم. مرعب. لا يتحمله إنسان سوي. كاد يفقد عقله عندما علم بما أصاب أخاه. أمجد لم يكن مجرد أخ. كان الصديق المقرب والناصح المخلص. كان الوحيد الذي يأمنه على سره ويلجأ إليه في محنه. كان الوحيد القادر على فهمه وترجمة أفكاره. لم يتذمر يومًا من كثرة طلباته. وجهه البشوش وملامحه الهادئة لا تفارق خياله. أي مجرم حقير معدوم الإنسانية ذلك الذي فكر في إيذائه؟ هل أصبحت النفس البشرية رخيصة إلى هذا الحد. كيف سيكمل حياته وهو يعرف أن أمجد لم يعد جزءًا منها؟ كيف ستطيب له معيشة وأخوه الوحيد لم يعد يشاركه همومه وأحزانه وأفراحه؟ ماذا سيقول لأمه وأبيه؟ كيف سيزف لهما خبر استشهاده؟ كيف سيصف لهما مقتله؟ كيف سيواسيهما في فقدان فلذة كبدهما وهو نفسه بحاجة إلى من يواسيه؟ ماذا ستفعل أمه عندما يعود وحده ولا تجد أمجد برفقته؟ هل يكذب عليها؟ هل يخفي حقيقة مقتله؟ ستفضحه عيناه. ستشي به دموعه. أمجد قرة عين والديه. لن يتحملا فقدانه. كيف يخبرهما أنه لم يجد حتى قبراً له يزوره.

قُتل من بقي من السّنة في ذلك الحي وأحرقت جثثهم. لو فعل

ذلك يهود أو غزاة خارجيون لهان الأمر، ولكنهم جيرانهم وإخوان اللغة والقومية. ما حدث كان أكبر من أن تتحمله نفسه. مصابه الجلل كاد يحطمه ويقضي على ما بقي من رجاحة عقله. لم يستطع بعدها المكوث يوماً واحداً. قرر العودة إلى لبنان. طوال الطريق كان يفكر ببلده وبما آلت إليه. الأطفال يُخطفون. الإخوة يتقاتلون. لم يعد أحد يعرف فيما يَقتل أو فيما يُقتل. قتل على الهوية. نظام فاسد مجرم. مجموعات مقاتلة لا يُعرف خيرها من شرها.

نفض عنه تلك الذكريات المرعبة عندما سمع جلبة أسفل الدرج. صوت زغاريد. هل هو عرس؟ تكوم على نفسه ولم يقم من مكانه. لن ينتبهوا إليه. سيظنونه متسولاً آخر كأولئك الذين يفترشون الطرقات في كل مكان. دس رأسه بين رجليه وانفصل عن العالم حوله.

37

«أسعد يوم في حياتي».. هكذا عبر غسان عن فرحته عندما ركب الطائرة مع فلوريان وزوجته. كانا هما أيضاً سعيدين بسعادته. كادت عينا كارولين تدمع وهي تشاهد غسان وقد نبت له جناحان طار بهما إلى أمه بمجرد أن فتحت بوابة القادمين في مطار بيروت. راقبته وهو يرتمي في حضن أمه التي حملته ودارت به من فرط السعادة. رأتها وهي تنهال على ولدها بالقُبل. قبلت رأسه ووجهه وعنقه وحتى يديه. حاولت أن تتنبأ بما يدور في خلدها. هي أم مثلها. تخيّلت نفسها مكانها. ولدها يعود إليها بعد غياب طويل، بعد أن كادت تيأس ربما من عودته. تراه مقبلاً عليها وقد فتح ذراعيه. لقد اشتاق لأحضانها واشتاقت لضمه إليها. يرتمي بين ذراعيها فتحيطه بهما. تجذبه أكثر نحو جسدها وكأنها تتمنى أن يلتحم بها، وأن يعود جنيناً في بطنها. تُخرج ما تراكم في نفسها من أحزان مع كل قبلة تلثمه بها. تنظر إليه. تتفحصه. لا تكاد تصدق عينيها. ترفعه وتدور به وتنظر إلى السماء. تشكر ربها بعينيها. رحمته بها عظيمة.

تذكرت توماس، فلم تقوَ على حبس دموعها. خشي أن تنهار فأخذها بين ذراعيه وربت على ظهرها. ذكّرها أنهما جاءا لمشاركة غسان فرحته. كفكفت دموعها وتمالكت نفسها واقتربت من لميس فحيتها وعرفت عن نفسها. لم يكن من الأخيرة إلا أن أخذتها بالأحضان، وشكرتها وزوجها بكل كلمات الامتنان التي تعرفها. دعتهما إلى منزلها. أخبراها أنهما سيعودان إلى ألمانيا على متن نفس الطائرة. ألحت عليهما وأقنعتهما بالبقاء حتى الصباح.

في سيارة الأجرة، جلس غسان ملتصقاً بأمه. سألها مجدداً عن أبيه

وعمه. لم يجد عندها إجابة. كان مشتاقاً لأبيه كثيراً وكذلك لعمه.

عندما وصلوا إلى المنزل، أصرت جدته أن يدخل أولاً إلى البناية وسط الزغاريد. أرادت أن تستقبله استقبالاً خاصاً. أشارت إلى جده ليشاركها بالأهازيج التي يحفظانها.

- حوطتك بياسين... يا زهر البساتين... يا مصحف صغير... على روس السلاطين...

- اللهم صلي على النبي... وزيدوا صلاتو... يلي ما بيصلي على النبي... لشو حياتو...

- على باب بيتنا رمانة... حمرة ولفانة... حلفنا ما نقطفها... ليجي غسان بالسلامة...

صعد غسان الدرج، وتبعته أمه وجديه وضيفاه الألمانيان. الكل سعيد ومسرور.

وصل غسان إلى الطابق الثالث، حيث يفترض أن تكون شقتهم الجديدة كما أخبرته أمه في الطريق. شاهد رجلاً يجلس على الأرض ويسد باب الشقة. ذراعه ملفوف بشاش أبيض. رأسه مغروز بين ركبتيه. اقترب منه. شعر بقلبه يضطرب. شيء ما مألوف في هذا الرجل. ربت بأنامله الصغيرة على كتفه السليم.

«بابا. أنت بابا؟».

سمع أيهم صوتاً يناديه. صوت ظنه صادراً من أعماقه. «حبيبي غسان. أنت تناديني؟» رد على الصوت بصوت مسموع.

«بابا حبيبي. أنا غسان. ارفع راسك وشوفني».

بدا الصوت لأيهم أقوى وأوضح. شعر باليد التي ربتت على كتفه ثم مسحت شعره. أراد أن يرفع رأسه ويفتح عينيه. خشي أن يكون مجرد وهم وتكون بداية لفقده لعقله.

«بابا. ما اشتقتلي؟ مو حابب تشوفني؟».. فرك بأصابعه ساعد أبيه.

رفع أيهم رأسه ببطء. فتح عينيه. رأى وجهه الصغير المبتسم. فرك عينيه. لم يرَ لميس ومن معها. لم يرَ غير ولده الصغير. نهض على ركبتيه وهو غير مصدق. فتح ذراعيه، فانتهز غسان الفرصة، ليرمي بنفسه إلى أحضانه، ويحيط والده بذراعيه، ويلتصق بصدره. أقفل أيهم ذراعيه وانقطع عن الدنيا. أصبح في عالم آخر. هو وغسان فقط. فتحت ذراعه بلطف وانضمت لميس لهما. صمت الجمع خلفهم. تركوهم ليستمتعوا بخلوتهم. لم يتكلّم أحد. لا داعي للكلام. العيون أفصح من اللسان. نزلت أول دمعة

ولحقتها أخواتها. اختلطت دموعهم. تصافحت. تعانقت. روت حكايتهم. بكوا من الألم. بكوا من الفرح. بكوا شكراً لله. عاد غسان. أصيب أيهم. استشهد أمجد.

هذه حكاية شعب، مع كثيرٍ من التفاؤل. الواقع أشد إيلاماً. الغائب نادراً ما يعود.

انتهى